

تأليف
أبو بكر الجزائري
الواعظ بالمسجد النبوي الشريف

الناشر
مكتبة العلوم والحكم
السعودية

التوزيع
دار العقيدة
القاهرة

الطبعة الأولى

٢٠٠٤ م - ١٤٢٥ هـ



الناشر
مكتبة العلوم والحكم
السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، شرف آدم أبا البشر بخلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وكرَّم ذرِّيته، فصورهم فى الأرحام فى أجمل صورة وخلقهم فى أحسن تقويم.

ورزقهم من الطيبات، وفضلهم على كثير من المخلوقات، وزوَّدهم بالعقل ليعرفوه، وأمدهم بالنعم ليذكروه، ويشكروه.

أنزل الكتب، واصطفى من الملائكة رسلاً، ومن الناس، لإبلاغ عباده شرائعه من الدين، ليعبدوه ويوحدوه، فتكمل بذلك آدميتهم، وتشرُف به إنسانيتهم ويتأهلوا لكرامة الدار الآخرة، والسعادة الدائمة فيها، حيث كتب لهم ذلك وقدَّره تقديراً، فسبحانه من رب رحيم، وإله عظيم، لا إله غيره، ولا رب سواه.

والصلاة والسلام التامان، الأكملان، الدائمان، والمتلازمان على محمد حبيب اللَّه، وخاتم رسله وأنبيائه، صفوة الخلق وخيرتهم، وإمام الأنبياء وسيدهم، صاحب لواء الحمد، والمقام المحمود، والحوض المورود، وسيد كل مولود، وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين، وآل بيته الطيبين الطاهرين، وصحابته البررة الراشدين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنه ـ نظراً لأهمية العقيدة الإسلامية فى حياة الفرد المسلم وضرورة خلوِّها من الشك، وسلامتها من شوائب الشرك: ونقائها من كدورات(١) الخرافات. ونظراً إلى الهزَّات العنيفة القوية التى تتعرض لها العقيدة الإسلامية فى هذه الأيام من جراء طغيان المادة من جهة، ومن طفرة العلوم الكونية المادية من جهة أخرى، نظراً إلى هذا وذاك فقد رأيت أن الحاجة جدُّ

(١) الكدورات: جمع كدورة. وهى الكدر الذى هو ضد الصفاء.

ماسة إلى وضع كتاب مناسب فى عقيدة المؤمن على ضوء كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ على أن يكون سهل العبارة، قريب الإشارة، حججه قوية، وأدلته قطعية، مضاءً بضياء الأدلة السمعية الدينية الشرعية، مناراً بأنوار الحجج العقلية النظرية القياسية.

كما رأيت أنى أقترب من شاطئ نهاية حياتى، وأتقدم بسرعة نحو باب مماتى، ورجوت ربى أن لا يأتينى أجلى إلا بعد أن تقضى لُباناتى[1] فى وضع الكتاب المطلوب، وتركه بعدى صدقة جارية، وحسنة سارية، يصلنى من بركتها ما يزيد فى نعيمى إن كنت من المنعمين، أو ما يخفف عنى عذابى إن كنت من المعذَّبين.

واستعنت بالله تعالى على وضع الكتاب المرغوب، وأخذت فى الجمع والتأليف، وفى التحرير والتحبير، ولم يمض طويل زمن حتى تَمَّ وضْعُ كتاب فى عقيدة المؤمن على ضوء الكتاب والسنة وجاء كما أملت، سهل العبارة، قريب الإشارة، حججه قوية، وأدلته قطعية.

غير أن كثرة الأعمال، وانشغال البال، قد حالت ـ مع الأسف ـ دون التنقيح، وإن لم تحل دون التصحيح ؛ فمعذرة إلى الإخوة القارئين إن رأوا تقديم ما حقه التأخير، أو تأخير ما حقه التقديم، أو زيادة كلمة فى جملة، أو نقصها من أخرى: فأخلّ ذلك بجمال التركيب، أو حسن الترتيب فأفقد الكلامَ طلاه، والأسلوب حلاه.

هذا، والكتاب لو لم أكن جامعه، ومؤلفه لقلت فيه ما يرغِّب فى اقتنائه ويبعث النفس على شرائه.

وهذا أراه غير مانعى من أن أقول فيه كلمة تقويم، لا تعظيم ولا تفخيم، تحدد معالمه، وتظهر محاسنه وتبين ما فيه من خصائص، وما له من مميزات. وهل فى ذكر ذلك من بأس إذا كان يحمل الإخوة المؤمنين على قراءة الكتاب، واعتقاد ما فيه من الحق والصواب ؟ لا سيما وأنى ما كتبته إلا لهم، وما جمعته وألفته إلا لعلمى بحاجتهم الأكيدة إليه، وافتقارهم الشديد إلى مثله ؛ إذ هم يعيشون فى زمن أصبح من الصعب فيه قراءة كتب الأولين، والاستفادة منها، وذلك لعوامل كثيرة من أهمها ما يلى: ـ

---

(1) اللبانة بالضم: الحاجة.

أولاً: ضعف الملكة العلمية التى يتأتى بها القارئ أن يفهم ما يقرأه، ويستفيد منه ما هو فى حاجة إليه من تصحيح معتقد، أو فهم حكم، أو تحقيق مطلب.

ثانياً: قلة العلماء الدارسين لكتب الأولين، المحققين لها، العالمين بما فيها، الذين يرجع إليهم الطالب اليوم فيما خَفِيَ عنه منها، أو أشكل عليه فيها.

ثالثاً: انعدام الهمم العوالى (إلا ما شاء اللّه)، تلك الهمم التى كانت تحمل أصحابها على الصبر فى الطلب، وعلى المثابرة فى الدَّرس حتى يلين الصُّلب، ويسهل الصعب، فتنكشف مخدِّرات المعانى، وتتجلى شمس العلوم والمعارف.

رابعاً: ما طبع به العصرُ اليوم أهلَه من حُب العجلة والعاجلة، والرَّغبة عن الأجلة[1] والآجلة. والعلمُ من شروط اكتسابه، والحصول عليه الصبرُ والأناة والرغبة فيما عند اللّه.

هذه بعض العوامل التى جعلت الحاجة إلى مثل هذا الكتاب الذى نقدِّم له: حاجةً ماسَّة، والعمل فى تأليفه وإخراجه من الأعمال الصالحة النافعة[2]

والآن، فإلى كلمة تقويم[3] الكتاب حيث أقول:

إنَّ هذا الكتاب الذى سمَّيته «**عقيدة المؤمن**» هو ـ بحق ـ حاو لعقيدة المؤمن، مشتمل على أصولها، جامع لفروعها، لم يترك من أصول العقيدة ما يخلُّ بها، ولم يغفل من فروعها ما يضعفها أو يوهنها، فقد اشتمل على الإيمان باللّه تعالى وأدلته ومراتب المؤمنين فيه، وعلى توحيد اللّه تعالى، وأقسامه، وعلى الشرك وأنواعه ومظاهره، وعلى بيان الوسيلة والتوسل، والشَّفاعة والاستشفاع، وعلى أولياء الرحمن وكراماتهم، وأولياء الشيطان ومهاناتهم وعلى

---

(1) الأجلة: المتأخرة. قال صاحب القاموس المحيط: أجل كفرح فهو أجل وأجيل: تأخر. والعاجلة: الدنيا، والآجلة: الآخرة.

(2) أى المتعدى نفعها إلى غير عاملها.

(3) أى بيان قيمة الكتاب المعنوية، ومن اللحن الشائع قولهم: تقييم كذا بمعنى تقويمه.

الإيمان بالملائكة، وأدلة وجودهم: العقلية والسمعية، وعلى بيان مراتبهم وأعمالهم وأحوالهم ومادة خلقهم، وعلى ذكر الجن ومادة خلقهم، وعلى ذكر أحوالهم وأعمالهم، ومآلهم، وعلى ذكر الشياطين وما جُبلوا عليه، وما يحفظ الإنسان منهم، وينجيه من كيدهم. وعلى الإيمان بالكتب الإلهية المنزَّلة، ومَنْ نزلت عليهم، وأدلة ثبوتها، وبيان عددها، وأسمائهم، وناسخها، ومنسوخها، وعلى الإيمان بالرسل (عليهم الصلاة والسلام)، وبيان عددهم وأسمائهم، وأسماء أممهم، وبيان ديارهم وأزمنتهم، وعلى أعاظمهم وهم أولو العزم، وعلى أدلة الوحى وثبوته بالأدلة العقلية والسمعية، وحاجة الناس إلى الوحى الإلهى، وعدم استغنائهم عنه بحال من الأحوال. وعلى المعاد، والبعث، والجزاء، وإمكان ذلك، ووجوب الإيمان به، وعلى كيفية البعث وأحوال الناس فيه، وما يجرى عليهم، ويطرأ لهم: مِنْ وزنِ أعمالهم وعبورهم على الصراط، ونجاة الناجين، وهلاك الهالكين، وعلى ذكْر دار السلام، وما فيها من نعيم مقيم، وعلى ذكر دار البوار وما فيها من جحيم وحميم، وعلى الإيمان بالقدر، وأدلة وجوب الإيمان به العقلية القياسية، والدينية الشَّرعية، وعلى ذكر الجبر والاختيار، والإرادة والمشيئة، والهداية والإضلال، والحسنة والسيئة. وعلى خاتمة فى بيان ثمرة هذه العقيدة، وفائدتها المقصودة منها، والمتوخاة فيها.

ومن خصائص هذا الكتاب: احتواؤه على كل أجزاء العقيدة الإسلامية، وبحثها بالتفصيل، ومن مميزاته: جمعه - فى إثبات مسائله - بين الدَّليلين العقلى والسمعى، وكتابته بروح العصر.

والله أسأل أن ينفع به من يقرأه ويدرسه، وأن لا يحرمنى أجر ما بذلت فيه من جهد، هو من فضل ربى علىَّ وإكرامه لى. والحمد لله ربِّ العالمين.

* * *

حاجة الإنسان إلى العقيدة وضرورتها له

ما هو الإنسان ؟

الإنسان هو هذا الكائن الحيُّ المنتصبُ القامة، البادى البَشرة، ذو العقل والتفكير والأخلاق الفاضلة، والعواطف الجيَّاشة، والإحساسات الصادقة، والمنطق السليم، والكلام الفصيح المبين. ابتدأ اللّه تعالى خَلْقَه من طين، ثم جعل ذريته من سلالة من ماء مهين ؛ إذ خلق آدم من طين بيديه، ونفخ فيه من روحه، وخلق منه أنثاهُ حوَّاء، وعلمه الأسماءَ، وأسجَد له ملائكة السماء، فسجدوا كلهم أجمعون إلا أبليس أبى. ونهاه عن الأكل من الشجرة فنسيَ، فأكل منها، فعصىَ وغَوى، وتلقى كلمات منه تعالى، فقالها فتاب عليه وهَداه، وأهبطه إلى الأرض خليفةً فيها بعد أن هيأها له، وسخَّر له كل ما فيها.

هذا هو الإنسانُ فى معتقدنا، وهو ـ أى معتقدنا هذا فى الإنسان ـ مُسْتَقًى من وحى السماء لا مجال فيه لَلقياس ولا للنظرَ والاستدلال ؛ إذ مثلُه لا يُعلم بغير الوحى أبداً.

وهذه حقوقه عندنا: حرمةُ دمه، وماله، وعرضه، واحترام مشاعره وعواطفه وأخلاقه، والاعترافُ بحرياته الشخصية ما لم يخلُّ بكرامتَه، ومصالح الهيئة الاجتماعية التى هو أحد أفرادها، وجزء من أجزائها.

وأدلة عقيدتنا هذه ـ فى الإنسان ـ هى إخبار خالقه عنه، وعن كيفية خلقه وتنشئته، الواصلة إلينا من طريق يحيل العقلُ البشريُّ تكذيبها وإنكارَها وَهى أقوالُه تعالى، فى كتابه الكَريم: القرآن العظيم، إذ قال تعالى فى خلق آدم: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ (الحجر: 26).

وقال عنه أيضاً: ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ (ص: 71، 72).

وقال عنه أيضاً: ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ** ﴾ (السجدة: 7) .

وقال فى خلق ذريته: ﴿ **ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ** ﴾ (السجدة: 8) .

وقال فى خلق الإنسان الذى هو ابنُ آدم: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ** ﴾ (الإنسان: 2) .

وقال في خلقه أيضاً: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ (المؤمنون: 12 ـ 14).

وقال في خلق المرأة الأولى حواء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ (النساء: ١).

وقال عنها أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (الأعراف: 189).

وقال في تعليمه ـ آدم ـ الأسماء والبيان: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: 31).

وقال: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن: 1-4).

وقال في خلقه ـ آدم ـ بيديه وتسويته له، وإسجاد ملائكته له: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (ص: 71-76).

وقال في نهيه ـ آدم ـ عن الأكل من الشجرة التي أكل منها بتغرير من الشيطان فعصى وغوى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (طه: 115-123).

وقال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة:37).

وقال في بيان هذه الكلمات من سورة الأعراف: ﴿قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف:23).

وأقوال رسوله ﷺ التي تلقاها وحياً من ربه سبحانه وتعالى، فقد روى مسلمٌ في صحيحه عنه ﷺ قوله: «خُلِقَت الْمَلائكَةُ مِنْ نُور، وخلق الجان مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَار، وخلقَ آدمُ مما وُصِفَ لكُمْ»[1] يعني ﷺ وخلق آدمَ من طين، كما بين ذلك في القرآن الكريم، وقال ﷺ في رواية

---

(١) متن مسلم (8/ 226).

البخاري ومسلم: «**يَجتمعُ المؤمنون يوم القيامة فيقولون: ألا تَنْظُرُونَ منْ يَشْفَعُ لكُمْ إلى ربِّكُمْ ؟! فَيأتُونَ آدمَ عَليه السَّلام فَيقُولُونَ: أنْتَ أبو البشَر خَلقك الله بيده، ونَفَخَ فيكَ من رُوحه، وأمَرَ الملائكةَ فَسَجدُوا لَكَ... إلخ**[1]» ... والشاهدُ منه في قوله ﷺ «**خلقَك الله بيده**». فلو لم يَكن خَلقهُ خَلقاً مباشراً، وإنما كان كخلق سائر الناس لما كان لذكر اليد والخلْق أيُّ ميزة، أو فضيلة على خلق غيره من بني آدم. وقال ﷺ -في رواية البخاري ومسلم وأحمد واللفظُ له-: «**احتجَّ آدمُ ومُوسَى فَقَال مُوسَى: يا آدمُ أنْتَ الذي خَلقَكَ الله بيده، ونَفَخَ فيكَ منْ رُوحه أغْويتَ الناسَ وأخْرجْتَهُمْ من الجنَّة. قال: فقَال آدمُ: وَأنْتَ مُوسَى الذي اصطَفَاكَ الله بكَلامه تَلُومُني على عمل أعْمَلهُ قَدَّرهُ الله عليَّ قَبلَ أنْ يَخْلُقَ السَموات والأرض بأربعين سَنَة ! قَالَ: قالَ: فَحَجَّ آدمُ مُوسَى**»[2].

وقال ﷺ -في رواية أحمد وأبي داود والترمذي وصححها-: «**إن اللّهَ خلقَ آدمَ من قَبْضة قبضها منْ جَميع الأرض فجاءَ بنو آدمَ على قدر الأرض، فَجاءَ منْهُمْ الأبيضُ والأحمرُ والأسودُ وبين ذلكَ، والسهْلُ والحزْنُ وبين ذلك، والخبيثُ والطيبُ وبيَن ذلك**»[3].

وقال ﷺ -في رواية البخاري-: «**خلَقَ اللَّهُ آدمَ على صورته وطوله ستونَ ذراعاً، ثم قَالَ: اذهبْ فَسَلِّم على أولئكَ النَّفر منَ الملائكة فاستمعْ ما يُحيُّونكَ ؛ فإنَهَا تحيتُك وتَحيةُ ذرِّيتك، فَقَال: السلامُ عليكُمْ. فَقَالوا: عَلَيكَ السلامُ ورحمةُ اللَّه، فزادوه ورحمةُ اللّه، فكُلُّ مَنْ يدخلُ الجنةَ على صُورَة آدمَ، فلم يزلْ الخلْقُ يَنقصُ بعدُ حتى الآن**»[4].

وقال ﷺ -في رواية مسلم-: «**خَيرُ يوم طَلَعَتْ فيه الشمسُ يوْمُ الجمعة، فيه خُلقَ آدمُ، وفيه أُدخل الجنةَ، وفيه أُخرجَ منها، ولا تقومُ الساعةُ إلا في يوم الجُمُعة**»[5].

وبعدُ: فهذه الأقوالُ الإلهيةُ، والأحاديثُ النبويَّةُ كلُّها قاضيةٌ بخلق آدمَ عليه السلام خلْقاً مُباشراً. خلَقَه اللَّهُ تعالى بيَده، ونفخَ فيه من روحه، وأسجدَ له ملائكتَه، وعلَّمه الأسماء كلّها، وجعلَ طولَه ستين ذراعاً، وأسكنَه جنَّته، ثم أخرَجَه منها لما أكلَ من الشجرة فعَصَى وغوَى، وأهبطَه إلى الأرض هو وزوجه حواء التي خلقها اللّه منه بالأمر الإلهي، وأمرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له: كنْ فيكون.

---

(1) اللؤلؤ والمرجان (1/ 49/ 50).
(2) اللؤلؤ والمرجان (3/ 311)، مسلم (8/ 49)، وكذا أبو داود (2/ 528)، والفتح الرباني (1/ 127)، وألفاظهم متقاربة.
(3) أبو داود (2/ 525)، والترمذي في تفسير سورة البقرة، وأحمد في (5/ 338).
(4) البخاري (8/ 62)، وعلى صورته أي على صورة آدم التي خلقه بها كما في آخر الحديث.
(5) مسلم (3/ 6).

ومن آدمَ وحواء وبطريق التَّناسل والخلق التدريجيِّ خَلقَ اللَّهُ ذريتَه فى كمالهم وجمالهم فصحاءَ عُقلاء سادة فى الأرض، قَد سخَّر اللَّهُ لهم كلَّ ما فيها لينتفعوا به فى حياتهم الدنيا، وبعثَ فيهم الرُّسُلَ، وأنزلَ عليهم الكتبَ تكميلاً لآدميتهم وإسعاداً لهم فى حياتهم، وإعداداً لهم بواسطة تزكية نفوسهم، وتطهير أرواحهم للسعادة الأُخرويَّة فى الملكوت الأعلى بعد موتهم وانْقضاء آجالهمَ.

هذا هو الإنسانُ المكرَّم فى مُعْتَقَد المؤمنين أجمعين. وأما الإنسانُ فى معتقد الملحدين الكافرين فهو متحول عن خَلية هبطتْ من بعض الكواكب إلى الأرض ثم نَمَتْ فيها، فكانت حيواناً رديئاً فى أبسط شكل، ثم تغيرتْ الأرض بفعل بعض المُؤثرات الطبيعية، فاضطر هذا الحيوانُ المخلوقُ لتغيير شكل معيشَته، فتبع ذلك تَغيُّرٌ فى صفاته، ثم استحال مع طول الزمن وكثرة المؤثرات(1) المختلفة إلى أحوال فارق فيها جنسه الأول، ثم ارتقى إلى قرد على مبدأ النشوء والارتقاء الذى فتنوا به، ثم مرت عليه ملايين السنين فارتقى إلى حيوان آخر، هو بين القرد والإنسان بواسطة بينهما، ثم انقرض هذا الحيوان الواسطة بدليل عدم العثور عليه فى آثار الأحياء. ولعل انقراضه كان على مبدأ الانتخاب الطبيعى، والبقاء للأصلح ـ كما يقولون ـ ومن ذلك الحَيوان الواسطة المفقود ارتقى الإنسان إلى ما هو عليه الآن !!.

وبنوا معتقدهم هذا فى خلق الإنسان، وأنه متحول من القرد، على أساس مجموعة نظريات هى الانتخاب الطبيعى، والبقاء للأصلح، والنشوء والارتقاء، والمطابقة، وعامل الوراثة. وهى فى الجملة نظريات صحيحة معلومة بالحسِّ، وهى سنن اللَّه تعالى فى الخلق والتكوين لكثير من المخلوقات، فالإنسان ابن آدم يوجد أولا خليَّة فى نطفة الرجل وماء المرأة، ثم يكون حيواناً منوياً ذكراً أو أنثى، ثم يتلاقح كما هى سنَّة اللَّه تعالى فى اللقاح، ثم يتدرج خلقه من حال إلى حال إلى أن يتم خلقه فيصير بشراً سوياً كما جاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ** (١٣) **ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ (المؤمنون:13-14).

وكما صح به قول الرسول ﷺ: «**إنَّ أحدكُمْ يُجمعُ خَلْقُهُ فى بَطْنِ أمِّه أربعينَ يوماً نُطفةً، ثم يكونُ عَلَقةً مثْلَ ذَلك، ثُمَّ يكونُ مضْغةً مثلَ ذَلكَ، ثُمَّ يأتى إليه المَلكُ فينفخُ فيه الروحَ، ثُمَّ يؤمر بكتْب أربع كَلمات: رزْقُهُ، وأجلُهُ، وعملُهُ، وشقىٌّ أو سعيدٌ**»(2)، وقد سئل رسول اللَّه ﷺ: «بم

---

(1) لا غرابة فى هذا التصور المضحك المزرى، لأنه البديل لهم عن الإيمان بخلق الله تعالى للإنسان، إذ إنهم لو آمنوا بأن الله تعالى خلق آدم خلقاً مباشراً كما ذكر تعالى، لآمنوا بالله وعبدوه، وهم لا يريدون ذلك، فلذا هم مضطرون إلى هذا الافتراء والهراء والتلفيق أعماهم الله ولعنهم.

(2) أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود مطولاً، راجع اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (3/ 207-208)، طبعة عيسى الحلبى وشركاه.

يكون الشبه في الولد ؟ فقال: فإذا سبَقَ ماءُ الرجُلِ ماءَ المرأة نَزَعَ الولدُ له وإذا سَبَقَ ماءُ المرأة نَزَعت الولد» رواه البخارى(1). وهو إشارة إلى عاملَ الوراثة.

وعجمة التمر تلقى فى الأرض نواة لا حياة فيها، ثم تنفلق عن غصن أخضر. ثم يتدرج خلقها حتى تصبح نخلةً باسقةً لها طلع نضيد رزقاً للعباد. وبالجملة فسنن اللّه تعالى فى الخلق التدريجى فى الإنسان والحيوان والنبات ثابتةٌ لا تنكر، وسنَّتُه تعالى فى انتقال صفات الأصل إلى فرعه ثابتة كذلك، وسنته تعالى فى البقاء للأصلح ظاهرة فى كثير من الكائنات، ولكنَّ هذه السنن هى من خلق اللّه وتقديره، وهى خاضعة لإرادته ومشيئته ؛ ولذا يخرقها بالمعجزات التى يعطيها لأنبيائه تدليلاً على صدق ما ادعوه من أنهم أنبياؤه ورسله، فَخلْقُ عيسى عليه السلام كان على خلافَ سنَّة الخلْق المعروف فى سائر بنى آدم كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ (آل عمران:59).

وتكلُّمُ عيسى فى المهد فى أسبوع ولادته كان على خلاف سنة اللّه تعالى فى نطق الإنسان الذى لا يتمُّ إلا بعد قطع الطفل مرحلةً من حياته. وسلامَةَ إبراهيمَ من إحراق النار لما يُلْقَى فيها من أجسام قابلة للاحتراق، وأمثلةُ إبطال اللّه تعالى لسنته فى خلقه متى شاء ذلك كثيرةٌ. **والمقصود من هذا**: أنّ ما يسميه الملاحدةُ بالقوانين الطبيعية ويتَّخذون منه دليلاً على كفرهم باللّه تعالى، ما هو فى الواقع إلا سنَنُ اللّه تعالى التى أودعها فى الكون. يُوجدُ بها ويخلُق ما يشاء إيجاده وخلْقه، وهى خاضعةٌ لله تعالى، متى شاء أمضاها، ثابتةٌ لا تتغيَّرُ، ولا تتَبدلُ كما قال اللّه تعالى: ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ (فاطر:43). ومتى شاء أوقفها وأبطلها لحكمة منه اقتضت ذلك، وهو العزيز الحكيم.

بَيْدَ أنَّ خلق آدم وحواء عليهما السلام كان بالخلق المباشر، ولم يكن أبداً كما تخيل الملاحدةُ، وتصوروا، لأخبار اللّه تعالى وأخبار رسله التى يستَحيل فيها الكذبُ، هذا وقد ناقش العلماءُ المؤمنون هذه النَّظَريةَ الدارونية التى أصبحت مذهبَ الملاحدة ومعتقدَهم، وأبطلوها نهائيًا بنفس المقاييس والنظريات الطبيعية التى أثبتها الدارونيون بها.

وهذه بعض الاعتراضات التى عورضت بها النظرية الدارونية وأبطلتها:

1 ـ إذا كانت نظرية النشوء والارتقاء مطَّردة فى كل شيء، فعن أى شيء ترقت الأنعام التى

---

(1) (فى 5/ 88، 4/ 10) متن مسلم بلفظ: (إذا علا ماؤها ماء الرجل شبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها شبه أعمامه) (1/ 173)، منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع بيروت.

هى الإبل والبقر والغنم ؟[1]، وعن أى شىء ترقت البهائم ذات القوائم الأربع: الخيل والبغال والحمير، والأسد والنمر والفيل والذئب والكلب.

2 ـ ومضت القرون الطويلة على هذه الحيوانات ولم تترقَّ إلى ما هو أكمل منها ؛ إذ الكمالُ لا حدَّ له، فبقى الفرس فرساً والكلب كلباً، والأسد أسداً، والذئب ذئباً ؟ والإنسانُ إنساناً، منتهياً كل منها إلى ما هو عليه الآن، ومنذ قرون طويلة ؟؟؟

3 ـ لمَ بقى القرد الأولُ، وانقرض الحيوان الواسطة الذى ترقى من القرد ؟ فلو كانت نظرية البقاء للأصلح، والانتخاب الطبيعى مطردة لانقرض القرد الأول وبقىَ الحيوانُ الواسطةُ الذى ترقَّى عن الأول ؛ لأنَّه أكمل منه وأصلحُ، والبقاء للأصلح؟؟

فَلمَ هنا كان البقاء لغير الأصلح. ولمَ أساء الانتخاب الطبيعى هنا فانتخب الناقص فأبقاه، ولم ينتخب الكامل فأرداه ؟

4 ـ إن مذهبكم المادى قائم على أساس نكران القياس والنظر والاستدلال. فلم تؤمنوا بغير المرئى المحسوس، فلمَ خالفتموه هنا، وقلتم بالنظر والقياس والاستدلال ؛ لأنكم ما شهدتم الخلية الأولى التى زعمتم أنها نزلت من بعض الكواكب. كما أنكم لم تشاهدوا المؤثرات الطبيعية التى زعمتم أنها اقتضت من الحيوان الأول أن يغير أسلوب معيشته حتى ترقى تبعاً لذلك، كما أنكم لم تشاهدوا الحيوان الواسطة وقلتم بمجرد النظر والقياس، وبذلك نقضتم مذهبكم المادى، وخرجتم عنه، فثبت عجزكم، وبطل معتقدكم فى النظرية الدارونية التى قال عنها أحد العلماء المؤمنين: «إنها نظرية أبوها الكفر وأمها القذارة ..»[2].

وأخيراً فقد اعترف كبار أصحاب النظرية الدارونية بعجزهم، وقالوا بالحرف الواحد: إن نظرية النشوء والارتقاء ليست ثابتة علمياً، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان أبداً، وإنما آمنا بها ؛ لأنها البديل الوحيد عن الإيمان بالله !.

وبهذا افتضحت اللعبة، واكتشفت الجريمة، والحمد لله.

---

(1) يقول الله تعالى من سورة الزمر: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ إلى آية (6) فلننظر كيف عبر تعالى عن خلق الأنعام بلفظ الإنزال ولم يعبر بلفظ الإخراج كما قال فى الثمار: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ من سورة البقرة (22).

(2) قصة الإيمان (193) من فصل: بين دارون والجسر.

(مقارنة)

ولنختم الحديث عن الإنسان بالمقارنة التالية، ليتجلى الفرق بين الإنسان عند المؤمنين، والإنسان عند الملاحدة الدارونيين، فنقول:

الإنسان عند المؤمنين:

خلق في السماء خلقاً مباشراً مستقلاً، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلمه الأسماء كلها، وأسجد له ملائكة السماء، خلقه في أحسن تقويم، وخصه بالتكريم بين العالمين.

حرم دمه وماله وعرضه إلا بحق، أرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب؛ فهيأه بذلك للكمال، وأعده لسعادة الحال والمآل. أخبر عن خلقه وتكوينه وكرامته ومآله وخالقه وأنبيائه الذين أرسلوا إليه.

الإنسان عند الملحدين:

خلق بواسطة النشوء والارتقاء في أقبح صورة، ثم تدرج في ملايين السنين إلى أن أصبح قرداً، ثم ترقى إلى حيوان أرقى من القرد في ملايين أخرى من السنين.

أخبر عن خلقه ونشوئه وتكوينه كبارُ الملاحدة، وشرار الناس، وأكثرهم فساداً وفجوراً، مآله الهلاك والدمار، فلا خلود له ولا بقاء.

والآن يا معشر العقلاء، فأي الإنسانين أحق بالتكريم، وأي الإنسانين يجب أن يعترف به الناس أجمعون، إنسان المؤمنين أم إنسان الملاحدة (الدارونيين) ؟!

إنه من المسخ في العقول، والشذوذ في الفهوم، والانحراف في الفطر: القول بنظرية (الدارونيين) في الإنسان، إنَّها نظرية فاسدة خبيثة أبوها الكفر وأمها القذارة[1].

* * *

(1) نفس المرجع في ص (21).

العقيدة

ما هى العقيدة ؟

العقيدة هى: مجموعة من قضايا الحقِّ البدهيَّة المسلَّمة بالعقل، والسمع، والفطرة، يَعقدُ عليها الإنسان قلبه، ويثنى عليها صدره جازماً بصحتها، قاطعاً بوجودها وثبوتها، لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون أبداً.

وذلك كاعتقاد الإنسان بوجود خالقه، وعلمه به، وقدرته عليه، ولقائه به بعد موته ونهاية حياته، ومجازاته إياه على كسبه الاختيارى، وعلمه غير الاضطرارى. وكاعتقاده بوجوب طاعته فيما بلغه من أوامره ونواهيه من طريق كتبه ورسُله طاعة تزكو بها نفسه، وتتهذَّب بها مشاعره، وتكمل بها أخلاقه، وتنتظم بها علاقته بين الخلق والحياة.

وكاعتقاده بغنى ربِّه تعالى، وافتقاره هو إليه، وفى كلِّ شأنه حتى فى أنفاسه التى يرددها، فبالله تعالى حياتُه، وعليه وحده توكله واعتماده، إذ هو مَحطُّ رجائه إذا طمع، ومَأمَنُ خوفه إذا خاف، بحبه يُحبُّ، وببغضه يُبغض.

هو مولاه الذى لا مولى له غيره، ومعبوده الذى لا معبودَ له سِواه، لا يرى ربوبيةَ غيره، ولا يعتقد ألوهيةَ سواه.

* * *

حاجة الإنسان إلى العقيدة

دعوى استغناء الإنسان عن العقيدة دعوى باطلة، يكذبها الواقع، ويبطلها تاريخ البشرية الطويل ؛ إذ واقع البشرية شاهد على أن الإنسان حيثما كان، وفى أى ظرف وُجد ؛ وعلى اختلاف أحواله، وتباين ظروفه لا يخلو من عقيدة أبداً، وسواء كانت تلك العقيدة حقّاً أو باطلاً، صحيحة أو فاسدة حتى أولئك الذين يدعون اليوم أن العلم قد أغنى عن العقيدة وعن التدين، وأن الإنسان فى عصر الذرة، وغزو الفضاء لم يصبح فى حاجة إلى الإيمان بالله تعالى، وبالغوا فى الكفر والإنكار حتى قالوا: إن الإلة لم يخلق الإنسان، وإنما الإنسان هو الذى خلق الإله(1)، وهم يريدون بذلك أن الإنسان فى الظروف الصعبة التى كان يعيشها، والمخاوف تنتابه من كل ما حوله من مظاهر الكون ؛ إذ هو يخاف المرض، ويخاف الفقر، ويخاف الرعد والبرق، والفيضان والسيول، والعواصف والزلازل، وحتى الحيوانات، اضطر لأجل ذلك إلى الإيمان بقوة غيبية ذات قدرة لا تَعجز، وسلطان لا يُغلب ولا يقهر، سماها إلهاً يفزع إليه عند الشدائد، ويتقرب إليه بالعبادات ليدفع عنه الشرور، ويقيه من المهالك، لهذا قالوا: إن الإنسان هو الذى خلق الإله، وليس الإله هو الذى خلق الإنسان، وهو قول مضحك، وجهل فاضح، وكفر صريح، وكذب ممقوت، ومغالطة مكشوفة، وسخف عقول لا حد له !!!!

وتحرير هذه القضية الفاسدة: هو أنهم إن كانوا يعنون بالإله الذى خلَقه هو إله الوثنيين الذين اتخذوا أصناماً آلهة، نحتوها بأيديهم، وعبدوها بأهوائهم، فنعم. هذه الآلهة خلقها الإنسان، وليست هى التى خلقت الإنسان. وأما إن كانوا يعنون بالإله الذى خلق الإنسان، الله الذى خلق السموات والأرض وما فيها، وما بينهما، وخلق الإنسان، وكرَّمه فأنزل عليه كتبه، وبعث إليه رسله، وعرفه بنفسه، وبشرائعه التى بها يتم كماله، وتتحقق سعادته، فقولهم مغالطة، وجهل، وسخف، وكذب ؛ إذ الإنسانُ لم يخلق حتى نفسه فضلاً عن أن يخلق غيره، فكيف بالله خالق كل شيء وربه ومليكه. سبحان الله وتعالى عما يصفون.

---

(1) هذه العبارة القذرة من قاموس الشيوعية الماركسية عدوة الإنسان.

إن ادعـاءهم استغناء الإنسـان اليوم عن الإيـمان بالله تعـالى، لأنه عـرف الطبيعـة، واكتشف أسرار الكون، فما أصبح يخاف المرض، ولا الفقر، ولا الفيضانات، ولا الزلازل، والجوائح، ولا العاهات، ادعـاءٌ باطل لا وزن له، ولا قيـمة أبداً[1] ؛ إذ الإنسان مـا زال يخاف من كل هذه، وجميع وسائله التى يملكها ليدفع بها عن نفسه لم تُؤَمِّنْه بعد، ولن تؤمنه أبداً، وكيف ؟ والآلام التى يعانيها الإنسان اليوم جسمانيّاً تزداد يوماً بعد يوم، وفى كل أنحاء الوجود البشرى، فوباء الكوليرا، وأمراض السرطان، والبرص، والصرع، وغيرها ما زالت تفتك بالآلاف من الناس، وفى كل سنة، والمجاعات تهدد مناطق شاسعة من العالم، والفيضانات تجرف كل سنة القرى العديدة، وتقتل وتشرد الآلاف من الناس، والزلزال من الحين إلى الحين يدمِّر المدن والقرى، ويودى بحياة الآلاف من البشر، ولم يستطع الإنسان الكافر بالله، والذى يدعى أنه خلق الإله، لم يستطع أن ينجو من هذه الويلات فضلاً عن أن يضع لها حداً، أو يوقف وجودها. بل ازدادت مصائب الإنسان ومحنه، وعظم الخطب واشتد عليه لما كفر بربه، ودينه، فأصبح فى تمزُّق شخصى، وهبوط نفسى، وسقوط خُلقى كاد يفقد معها طعم حياته ولذة وجوده، لقد غاض ماء الحياة من وجهه فأصبح صفيقاً، عربيداً، فاحشاً، متفحشاً، وغار معين الكرامة الآدمية فيه فصار لا غيرة له ولا شهامة ولا كرامة، ولا مروءة. ألف الكذب، والغدر، والخيانة، وتعوَّد الجريمة ومرد[2] على النفاق، والتضليل، والخداع فساءت المجتمعات البشرية وهبطت فيه الحياة إلى أبعد حدود الهبوط والسقوط، حتى صاح العقلاء منددين بالكفر والإلحاد، مطالبين بالرجعة إلى الدين والإيمان، بل حتى كبار الملاحدة قد نكسوا على رؤوسهم، وقالوا فى وضوح: لا غنى عن الدين، وطالبوا علماء النفس والاجتماع بأن يضعوا لهم ديناً ،ولكن بدون الإيمان بالله، وذلك لأن الله يأمر بالعدل، والإحسان، وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء، والمنكر، والبغى[3]، وهم لا يريدون عدلاً، ولا معروفاً، ولا إحساناً، كما لا يريدون أن يتخلوا

---

(1) ادعاء باطل خبر إن الموجود فى أول الكلام وما بينهما اعتراض فلينتبه له.
(2) مرد: أى أقام عليه ولم يتب منه، ولج فيه وأبى غيره.
(3) هذا مقتبس من الآية (90) فى سورة النحل.

عن الظلم، ولا عن الفحش، والمنكر. ولذا فهم يريدون ديناً صناعيًا يهذب نفس الإنسان، ويكمل أخلاقه، وبدون ذكر الله فيه، ولا ذكر أمره تعالى أو نهيه: وهيهات هيهات أن ينفع دين صناعى فى تقويم الأخلاق، وإصلاح النفوس، وتهذيب المشاعر، وتطهير الأرواح، إن القوم مغرورون، مخدوعون، جهال، ضالون، مضللون، لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم.

والقصد من إيراد هذا الذى ذكرناه، هو تقرير حقيقة علمية ثابتة بكل القوانين العقلية، والشرعية، وهى أن الإنسان دائماً فى حاجة إلى الإيمان، والتدين، والعقيدة، وأن الدين ضرورة من ضرورات حياته، وحاجة من حاجات نفسه، فلا غنى له عن الإيمان بربه، وعن عبادته بحال من الأحوال. ومن هنا لم تخلُ أمة وجدت على وجه الأرض ومنذ عهد الإنسان بالحياة من عقيدة ودين[1]، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ** ﴾ (فاطر:24).

والمراد من النذير نبى، أو رسول، أو عالم وارث لعلم النبوة ينذر تلك الأمة عاقبة الكفر بالله وبكتبه، ورسله، وشرائعه، ويحذرها من نتائج الشرك بربها، والمعصية له، ولرسله وما يتبع ذلك من انحراف السلوك بالظلم والشر والفساد.

* * *

(1) قال بازماك المؤرخ الإغريقى مقرراً الحقيقة التى قررناها وذكرها القرآن الكريم، قال: قد وُجدت فى التاريخ مدن بلا حصون ولا قصور وبلا سدود ولا قناطر، ولكن لم توجد مدن بلا معابد.

وجـه ضرورة الدين للإنسـان

الإنسانُ منذُ أن وُجد على هذه الأرض بهبوط أبيه الأول آدم، وأمِّه حواء عليهما السلام من الجنة دار السلام، وهو فى حاجة ماسة وملحة أيضاً إلى قوانين ضابطة تعدِّل من غرائزه، وتنظم سلوكه، وتحددُ اتجاهاته، وتهيئُه للكمال الذى خلق مستعداً له فى كلتا حياته: الأولى هذه التى يقضيها قصيرةً على هذه الأرض، والثانية التى تتم له فى عالم غير هذا العالم الأرضى الهابط، وإنما فى عالم الطهر والصفاء، فى الملكوت الأعلى كما أخبر بذلك ربُّه بواسطة كتبه التى أنزلها، وأنبيائه الذين أرسلهم.

غيرَ أنَّ تلك القوانين المطلوبة لتعديل غرائزه، وتنظيم سلوكه، وتحديد اتجاهاته فى الحياة، لا توجد ـ وهيهات هيهات أن توجد فى تشريع غير ربانى، أو سماوى لا دخل لأهل الأرض فى وضعه وشرعه، إذ لا يُعرِّف الإنسان بعواطفه وأشواقه، ولواعج نفسه، وبأفكاره، وآماله، ومتطلعاته، ولا يقوى على توفيته مطلوبه من ذلك كله إلا اللّهُ خالقه. فهو ـ إذاً ـ وحده الذى يحق له أن يضع له من القوانين، والشرائع، والأديان ما يكمله به ويعده للكمال والسعادة الأبدية الخالدة.

ولذا كان الدين ضروريًا للإنسان بوضعه الخاص يأكل ويشرب، ويتوقَّى الحرَّ والبرد، وعليه أن يعمل لإعداد ذلك لنفسه فيُوجد بالسنن التى وضعها ربُّه طعامه وشرابه، ولباسه، ودواءه، وسكنه ومركوبه. وهذه حال تدعو إلى تعاون أفراده لتوفير ما به تقوم حياتهم، وتستمرُّ إلى نهاية أجلها المسمَّى.

والإنسان بفطرته يشعرُ بضعفه، وحاجته إلى ربه فى إعانته وتوفيقه ورعايته وحفظه، ولذا فهو يطلب التعرف إلى ربه، والتعرف إليه بما يحب من أنواع القرب وضروب الطاعات والعبادات.

والإنسان بمواهبه، وأفكاره، ومشاعره، وأحاسيسه، يطلب دائماً المزيد من السموِّ والرِّفعة فى ذلك، حتى لا يريدُ أنْ يقفَ عند حدٍّ أبداً، فهو إذاً فى أحواله الثلاثة التى ذكرنا مفتقرٌ إلى تشريع دينى إلهى يلائم فطرته، وينظم له علاقته فيما بينه وبين أفراده الذين لا يستغنى عن التعاون معهم لتوفير أسباب حياته وبقائها صالحة فى هذا الوجود من مَطعم،

ومشرب، وملبس، ومسكن، ومركب، ويمده بعلوم ومعارف عن ربه ولقائه، وعن كيفية عبادته ودعائه، وذكره والتقرب إليه بفعل طاعته، وإتيان محابِّه، وترك مكارهه، واجتناب مساخطه، كما يمده بفيض علمى كامل عن الحياة والكون يعرف به حقيقة الوجود، وعلة الكون والحياة، وأسباب السمو والكمال، والهبوط والنقصان التى تطرأ له فى حياته الأولى والآخرة .

وبناءً على كل ما تقدم، فضرورة الإنسان إلى دين إلهى صحيح أشدُّ من ضرورته إلى العناصر الأولية لحفظ حياته من ماء، وغذاء، وهواء، ولا يُنكر هذه الحقيقة، أو يجادل فيها إلا معاند مكابر، لا يُؤبَه لعناده، ولا يُلتفت إلى جداله.

كما أن دعوى العقل فى إمكانه الاستقلال بهداية الإنسان إلى ما يصلحه ويسعده، دعوى باطلة ساقطة لا وزن لها ولا واقع، وذلك لأننا رأينا الكثير من الأمم والشعوب لما فقدت هداية الوحى الإلهى لم تُغْنِ عنها هدايةُ العقول شيئاً، فضلت وهلكت، ومما قاله القرآن فى هذا الموضوع قوله تعالى من سورة الأحقاف: ﴿ **وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴾ (الأحقاف:26).

وذلك لأن العقول لا تهدى إلى معرفة كل ما ينفع الإنسان فى حياتيه ليأخذ به. ولا إلى معرفة كل ما يضر الإنسانَ فى حياتيه كلتيهما ليتجنبه. وينجو مما يضرُّه إلا فى ضوء الشرع الإلهى. ونور وحيه ؛ لأن العقول لا تعدو كونها آلة إدراك كحاسة العين التى هى آلة إبصار. والعين قطعاً لا تبصر مهما كانت سليمة وقوية إلا فى الضوء والنور، ولا يمكنها أن ترى وتبصر فى الظلام أبداً. وفى أى حال من الأحوال العقلُ مثل العين سواء بسواء. كما أن العين لا تبصر إلا فى الضوء والنور، فإن العقل لا يدرك إلا على ضوء الشرع الإلهى ونور وحيه تعالى إلى أنبيائه ورسله. ومن رأى غيرَ هذا فإنه يغالط نفسه ويكابر فى شىء من الخطأ ومن الضلالِ المكابرةُ فيه ؛ لكونه من المحسوس المشاهد.

كما أن دعوى الاكتفاء بالعلم عن الوحى الإلهى الذى تمثله الشرائع الإلهية الصحيحة، السليمة من التحريف، والزيادة، والنقص، والتبديل ـ كالدين الإسلامى مثلاً ـ دعوى باطلة قطعاً، ومن وجهين أيضاً:

الأول: أنَّ ما عند الناس من بعض العلوم، والمعارف فى الفنون والأخلاق، والآداب إنما هو ـ بدون شك ـ مأخوذ من الوحى الإلهى، إما بالنص اللفظى، أو بالاستنباط. وإنما نسب إلى بعض الأشخاص مغالطة وتضليلاً لا غير.

والثانى: أن العلم المادى مقصور على نفع الإنسان فى الجانب المادِّى منه، وهو الجسم ومتطلباته. وأما الجانبُ الروحىُّ ـ وهو الأهم قطعاً ـ فإن العلم المادِّى لم يخدمه فى شىء، ولم يقدم له أى نفع البتة ؛ لأنه لم يكن روحيًا مجانساً للروح فيقدم له ما هو فى حاجة إليه.

إن العلوم الإنسانية الخالية من الوحى الإلهى لم تعْدُ الكشفَ عن بعض الظواهر الكونية المادية فقط. ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ (الروم: 7).

فكيف إذاً تستطيع أن تقدم أى خدمة للروح، وهى لم تكسرْ حجاب المادة بعدُ، ولم تعرف أى سر عن حقائق الكون وعِلَلِه.

وقد اعترف علماؤها بالعجز الكامل عن معرفة العلل والأسرار لأية ظاهرة من ظواهر الكون فقالوا: اسألونا بكيف، لا بماذا ؟ يعنون قولوا لنا: كيف وقع الشىء الفلانى؟ فإننا نجيبكم. أما لماذا وقع؟ فإننا لا نعرف الإجابة عنه، ولا نملكها أبداً ؛ وذلك لحرمانهم من علوم الوحى الإلهى.

وشىء آخر، أليست العلوم المادية قد بلغت الذروة فى الكمال بعد أن قطعت شوطاً بعيداً فى التطور والشمول فى كل المجالات، ومع هذا الكمال فإن البشرية فى شقاء دائم، ولم تَخْطُ يوماً خطوة إلا إلى شقاء آخر أكبر، والواقعُ يشهد. وكفى به شهيداً ؟ ولذا فإنه لا مناص من الاعتراف بالحقيقة والتسليم بها. وهى أن الدين الحق ضرورى للإنسان، لا غنى له عنه بحال من الأحوال. وأن كمال الإنسان وسعادته متوقفان عليه توقفَ المعلول على علَّته. والمسبب على سببه.

وليعلم أخيراً، أن الدين الذى نعنى ضرورته للإنسان -لتوقف سعادته وكماله عليه فى الدنيا والآخرة- إنما هو الدين الحق الصحيح، الدين الذى شرعه الله، وصحت نسبته إليه تعالى. أما الأديان الباطلةُ المفتراة كالبوذية، والمجوسية، والمحرَّفة المبدَّلة كاليهودية، والنصرانية فإنها وإن سُميت أدياناً فإنها خالية من الوحى الإلهى الذى يمثل فيها شرعاً إلهياً متكاملاً يقدم للإنسان كلَّ ما يحتاجُ إليه لإصلاح جسمه، وروحه، وإسعادهما فى الدنيا، والآخرة. والدليل الواضح لذلك أن أوروبا المتدينة بالنصرانية لم تتقدم حضاريًا إلا بعد التمرد والكفر بالدين الذى كانت تعيش عليه زمناً طويلاً وهو يكبلها ويقيدها. حتى قام رجال منها، وحاربوه، وخرجوا عن قيوده، وكفروا بشرائعه. وبذلك تم لهم الانعتاق من الضلال، والانطلاق من الباطل.

وإن بحثت البشرية الراشدة العاقلة عن دين إلهى صحيح سليم، فإنها واجدَتُه قطعاً وبدون شك فى الإسلام دين البشرية العام، الذى تضمنه كتابه القرآن الكريم، الذى لم ينقص منه حرف منذ أن نزل، ولم يزد فيه آخر. ولم تحرف فيه كلمة عن موضعها منه. ولم تخرج عبارة عن مدلولها قط، بالرغم من مرور ألف وأربعمائة سنة عليه تقريباً.

إن الدينَ الإسلامى هو الدين الكفيل بإنقاذ البشرية اليوم، والخروج بها من محنتها. محنة المادية العاتية، التى سلبتها ـ أو كادت ـ كلَّ معانى الآدمية الكريمة، والإنسانية الفاضلة حتى صيرت الإنسان آلة لا فهم لها ولا ذوق، ولا تقدير لها ولا احترام...

فإلى الإسلام يا عقلاء الناس ؛ فإنه الدواء لدائكم، والهداية لكم من ضلالاتكم ؛ فأقبلوا عليه عقيدة، وحكماً ونظاماً، فإنه ينجيكم ويسعدكم.

جرِّبوا، فإنَّ التجربة أكبرُ برهان !!

* * *

الركن الأول من أركان عقيدة المؤمن :

الإيمان بالله رب العالمين

إن المسلك السهل ـ والسليم في آن واحد ـ للبحث عن الإيمان بالله تعالى أى عن وجوده تعالى، والتصديق به عز وجل ربًا وإلهاً، هو مسلك احترام العقل البشرى، وقبول أحكامه التى يصدرها على الأشياء نفياً أو إثباتاً، وجوداً أو عدماً، ومن ذلك: حكمه الواضح الصريح بوجود البارى عز وجل، وبوجوب معرفته وطاعته، والتقرب إليه، والأخذ بهدايته، والسير فى طريق أوليائه من صالحى عباده.

ولنستمع إليه ـ العقل ـ وهو يُورد أدلته، ويقدم شواهده، ويُظهر بيانه، ليصدر بعد ذلك حكمه النهائى فى قضية الإيمان بالله تعالى، وأسمائه وصفاته، ووجوب طاعته وعبادته، والأخذ بهداية وحيه، واتباع شرعه: إنه يقول بمنطقه السليم: إن السماء التى تظلنا، ونشاهدها بحواسنا، ونراها بأم أعيننا، ولا نستطيع عدها لكثرتها، ولا حدّها لبعدها وعلوها. هذه السماء يقول ـ العقل ـ: إنها موجودة فعلاً، ولا سبيل إلى إنكارها بحال من الأحَوال، فمن أوجدها ؟؟

ويقول: هذه الأرض التى نعيش عليها وهى موجودة فعلاً، ولا معنى لإنكارها أبداً، فمن أوجدها ؟؟

ويقول: هذه الكائنات الحية على تباينها، واختلاف أنواعها، منْ أرقاها وهو الإنسان، إلى أدناها: كالنحلة، والنملة، والعنكبوت، وهى موجودة فعلاً، لها غَرَائزها، ومداركها الخاصة، وأنظمة حياتها، وطرق معاشها، وحفظ أنواعها إلى آجالها، ولا مجال لإنكار ذلك بحال، فمن أوجدها؟ ومن وهبها حياتها؟ ومن خلق لهَا أرزاقها، وهداها إلى طلبهَا، والحصول عليها، والانتفاع بها فى حفظ نوعها واستمرار وجودها ؟ إن العقل يقول: ابحثوا عن الموجد، عن الخالق، عن الرزاق، عن المدبر، عن المنظم، عن المسخر، عن خالق الكون، عن واهب الحياةَ لكل ذى حياة، وعن سالب الحياة من كل من وُهبت له، ومتع بها مدة حياته الموقوتة، وفترة عمره المحدود.

ابحثوا، واطلبوا، واستقصوا فى البحث والطلب، واعلموا أنه لا يوجد شىء موجود أوْجَدَ نفسَه بنفسه، ولا كائن كوَّنَ نفسَه فى هذه العوالم الموجودة، والكائنات المشاهدة المحسوسة أبداً.

ابحثوا عن خالق، رازق، مدبر، ذى إرادة، وحكمة، وعلم، وقدرة، يخلق، ويرزق، بعلم وقدرة، ويبدع، وينظم، ويدبر بإرادة وحكمة. ابحثوا عنه، ولا تستهينوا بالعقل أو تَزْدَرُوه، وأنتم تعلمون أن أحدكم إذا فقده أصبح مجنوناً، مختل التفكير والتقدير، مسلوب الإرادة والتدبير، يَهْرُفُ بما لا يعرف، ويرمى إلى ما لا يهدف، فتقولوا: إن الموجودات أوجدت نفسَها بنفسها، أو

تقولوا: إنها وُجدت بدون مُوجد، فإن ذلك مُزْرٍ بكم، مخل بكرامتكم، خارج بكم عن دائرة العقلاء من بنى الناس أجمعين، لأن العقول كلها مطبقة مجمعة على أن الشىء لا يُوجد نفسَه، كما أنه لا يوجد بغير موجد ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (الطور:35). إنكم تقرون أن جميع الكائنات التى تخضع للحس والمشاهدة مادة، والمادة ميتة قطعاً، والميتُ لا يخلق الحىَّ، وكيف يَهَبُ الحياةَ مَنْ هو ميتٌ؟ !

وزيادة فى التثبيت من هذه الحقيقة ـ وهى أن الشىء يستحيل أن يخلق نفسه، وأن كل موجود لا بُدَّ له من موجد ـ نقول: إنه لما لم نجد للكائنات موجداً لها من نفسها اضطررنا إلى الإيمان بوجود إله قوى، قادر، ذى إرادة، وعلم وحكمة، وهو اللّه الذى أخبرنا بواسطة كتبه التى أنزلها، وأنبيائه الذين أرسلهم أنه رب كل شىء، وخالق كل شىء، وأنه هو بديع السموات والأرض، ومدبر الأمر فيهما، له وحده الخلقُ والأمر، وهو على كل شىء قدير. وزيادة فى التثبيت والتقرير، نهبط إلى عالمنا الأرضى هذا ،وننظر إلى الأشياء الموجودة فيه وهى لا تُعَدُّ كثرةً، هل نجد بينها مَنْ يخلق نفسه بنفسه، أو يخلق غيره.

فها هى ذى النباتات على كثرتها، واختلاف أجناسها، وتنوُّع أفرادها لا تخرج عن سُنَّة وجودها التى سُنَّت لها، واطردت فيها، وهى وجود تربة صالحة، وماء كاف لسقيها، ومناخ طيب صالح للحياة والنماء فيه مع تقدم وجود البذرة الحية بالقوة المكفورة ـ المغطاة ـ بالتربة الملائمة لإنباتها، إنَّ النباتات بهذا هى مفتقرة إلى عناصر شتى، وهى البذرة، والتربة، والهواء، والماء، لم تكن لتوجدها النباتات لنفسها، فكيف يصح إذاً أن يقال: إنها خلقت نفسها بنفسها، اللهم إنه لا يقول بهذا إلا مجنون أو مغرور يجاحد ويعاند !

وها هى ذى الحيوانات على اختلافها، وكثرة أفرادها، من أرقاها وجوداً وحياة، إلى أهبطها حياةً ووجوداً، لا يوجد بينها حيوان واحد يخلق نفسه بنفسه. وإنما جميعها وكلٌّ واحد منها تبعاً لسُنَة الخلق فيه، والمطردة فى كل أفراده، وهى بالنسبة إلى الإنسان الذى هو أرقاها وأفضلها، وجود نطفة من أبوين ذكر وأنثى، واستقرارها فى الرحم المعدة لها، وتطور تلك النطفة من حال إلى حال إلى أن يتم الخلق، ويخرج الإنسان طفلاً صغيراً، ثم ينمو حسب النمو فيه إلى أن يبلغ أشده، فيكتهل ويهرم ويموت، وهو فى كل ذلك الخلقِ والتطور والنماء والكمال والنقصان والموت والفناء: لا يملك من أمره شيئاً.

فهل يُعقل أن يقال: إن الإنسان خلق نفسه بنفسه. وإذا بطل هذا فى الإنسان، فهل يصح فيما دونه من سائر الحيوان ؟ اللهم لا، وإذاً فهل يعقل أن يتم الخلق والإيجاد بدون ما خالقٍ ولا مُوجد؟

اللهم لا، حتى ولو كان المخلوق نحلة، أو الموجود فنجان قهوة، وهل يوجد عاقل فى دنيا الناس يرى موجوداً عظيماً كعمارة ضخمة، أو دون ذلك كرغيف خبز، ثم ينكر أن يكون له موجد أوجده؟ ويعتذر عن إنكاره وجحوده بأنه لم يَرَ موجدَه ولم يشاهده، اللهم لا. وإذاً، فكيف يعقل الكَفر بوجود اللّه خالق كل شىء لمجرد أنه لم يُر فقط؟ مع أن هناك نفس الإنسان التى بين جنبيه، قد آمن كل إنسان بوجودها ولم يرها إنسان قط، وهناك العقل البشرى لم ينكره أو يكفر به أحدٌ قط مع أنه لم يُرَ قط. وآمن بكل من النفس والعقل لوجود آثارهما الدالة عليهما. وكم من موجودات آمن الناس بموجدها ولم يروها قط. وذلك لدلالة وجودها على مُوجِدها ؛ إذ العقل يحيل وجود أى شىء بدون موجد، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (الطور:35).

والأعجب من هذا، أن الملاحدة بمجرد معرفتهم لسنن اللّه تعالى فى خلق بعض المخلوقات، وإيجاد بعض الموجودات طاروا فرحاً بذلك. واتخذوا منه دليلاً على عدم وجود الخالق سبحانه وتعالى. فقالوا: قد عرفنا كيف تنشأ السحب وتتكون الأمطار. وكيف يخرج الكتكوت «الفروج» من البيضة. فلا حاجة إذاً إلى الإيمان بوجود اللّه تعالى. وهو سخف عجيب. وحمق مُتَنَاه، وإلا فمتى كانت معرفة سنن اللّه تعالى فى خلق الأشياء وإيجادها دليلاً على عدم وجود اللّه؟ بل هى بالعكس دالة على وجود اللّه، وعلمه، وقدرته لو كانوا يعقلون !!.

إن مثلهم فى هذا الكفران والنكران، كمثل من قُدِّم له طبق فيه تمر حلو، فأكل حتى شبع. ثم سأل عن صانعه. فقيل له: إنه اللّه. فآمن به لوجود أثر وجوده وهو صنعه. ثم قدر له أن زار بستان النخل ووقف على كيفية غرس النخل وتربيته، وتأبير طلعه. فعاد فأنكر أن يكون التمر من صنع اللّه تعالى ؛ لأنه رأى كيف ينشأ النخل. وكيف تتم تربيته وإصلاحه حتى يثمر تمراً حلواً. وتناسى أن الذى صنع التمر، هو اللّه الذى أوجد البذرة، والتراب، والماء، والهواء، وأوجد الفلاح، أوجد له قدرة، ووهبه علماً حتى فلح الأرض وغرس البذرة، وسقاها، ورباها، وأبّرها لما أطلعت. ورعاها حتى أصبحت تمراً حلواً.

فهذا مثلُ منكرى الخالق عز وجل من الملاحدة الذين أنكروا وجود اللّه لمجرد معرفتهم لبعض ظواهر الكون، وإذا قيل لهم: لقد عرفتم قوانين الكون، وسننه، فمن وضع تلك القوانين، ومن سَنَّ تلك السنن فى الكون، والتى بواسطتها يتم خلق الأشياء وإيجادها؟؟ قالوا فراراً من الإيمان باللّه عز وجل حتى لا يعبدوه ـ قالوا: الطبيعة ؛ ولو أن الطبيعة نطقت، وقالت لَهم: اعبدونى، لكفروا بها، وأنكروها، كما كفروا باللّه، وأنكروا وجوده، وهو يناديهم فى كتابه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:21).

ومما يدل على أنَّ الملاحدة ما كفروا باللّه إلا فراراً من عبادته، والتزام شرائعه، أن الإيمان باللّه تعالى خالقاً للكون، مدبراً له: ليس بأصعب ولا أبعد فى الاستحالة من الإيمان بالطبيعة الميتة، العمياء، الصماء خالقاً مبدعاً، كما قال أحد علماء الكون: لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه لكان يتمتع بأوصاف الخالق، وفى هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الإله، وينتهى الأمر إلى التسليم بوجود إله، ولكنه إله عجيب ؛ لأنه غيبى ومادى فى آن واحد. ثم قال: «إننى أفضل أن أؤمن بذلك الإله الذى خلق العالم المادى وهو ليس بجزء من هذا الكون، بل هو حاكمه، ومدبره، ومديره، بدلاً من أن أتبنى مثل تلك الخزعبلات» يعنى قول الملاحدة: إن الطبيعة، والضرورة، والصدفة هى التى أوجدت الكون، ووهبت الحياة، ووضعت السنن والقوانين ؛ وهو أمر عجب، وجهل مركب، وفساد عقول لا حد له.

ولنناقش الآن كلمات: الطبيعة، والضرورة، والصدفة التى ينسب إليها الملاحدة خَلْقَ العالم وإدارته وتدبيره. فنقول:

ما هى الطبيعة ؟

إن الطبيعة هى: المادة، وعناصر تكوينها من البرودة، والحرارة، والرطوبة، واليبوسة، والمواد المركبة منها، وهى الذرات المكونة من النوى المشتملة كل نواة منه على بروتون، ونيترون، وإلكترون.

هل هذه العناصر من النوى، والذرة، والخصائص المشتملة عليها المادة، أوجدت نفسها، فكونت ما يُسَمى بالطبيعة ؟ اللهم، لا ؛ إذ هو تحيله العقول، ولا تقبله أبداً. إن معنى هذا الهراء: أن الطبيعة أوجدت نفسها أولاً، ثم أوجدت غيرها من الموجودات ! إن المادة المركبة من عناصرها، والمودع فيها خواصها، وطباعها مفتقرة إلى من يوجد عناصرها، ويودع فيها خواصها، وحينئذ فهى حادثة مخلوقة، فكيف يصح أن تكون إلهاً، خالقاً، يُنْسَب إليها الخلق، والتكوين والإبداع والتنظيم ؟

سبحانك اللهم، هذا ضلال فى العقول مبين.

إن العقول السليمة قد حكمت بحدوث المادة المركبة من عناصر عدة ؛ إذ كلُّ مركب حادثٌ، وكلُّ حادث مفتقرٌ إلى محدث أحدثه قطعاً. كما قضى بذلك قانون العلّيّة المسلم به من جميع العقلاء.

إن وجود مادة، وحركة لها ـ وهى طاقتها ـ معلول، فلابد له إذا من علة اقتضت وجوده، وهو الإله الأزلى، الذى ليس بمادة ؛ إذ لو كان غير أزلى لكان مُحْدَثاً، ولو كان محدثاً لكان مادة، والمادة ميتة فكيف تخلق الأحياء ؟ ومن بديهات العقول أن فاقد الشىء لا يعطيه، وسواء كان نفيساً كالحياة، أو خسيساً كالموت والعدم. وبما يقضى على هذه الفرية الدجلية، التلصصية، التى اغتر بها أهل الغفلة عن ذكر اللّه تعالى، وتلاوة كتابه حتى أصبحت شبهة عقلية تضطرب

لها قلوبهم، وهى نسبة الخلق والإيجاد إلى المادة ـ أن يقال: إن الإبداع الموجود فى الكون كله علويه وسفليه، من الذرة إلى المجرة ؛ شاهدُ حقٍّ، وقاضى عدل باستحالة صدوره عن الطبيعة العمياء الميتة، أو عن الصدفة البعيدة عن كل حكمة، الخالية من كل إرادة، وعلم وتدبير.

ما هى الصدفة ؟

إنهم يعنون بالصدفة، أن الأشياء تم تكوينها على ما هى عليه من الجمال، والإبداع والنظام بطريق الموافقة لا بطريق القصد، والإرادة، والتدبير، بحيث لم يكن هناك قصد، ولا إرادة، ولا تدبير. وهى قضية، القولُ بها مخجلٌ، والنظرُ فيها لهوٌ وباطل.

وخلاصة هذه الأضحوكة والأعجوبة معاً: أنه بمرور الزمن الطويل الذى لا يتكلمون فيه إلا بالأرقام الهائلة كمئات الملايين تضليلاً وتدجيلاً، فيقولون مثلاً: عناصر الذرة تلاءمت وتناسبت بمرور ملايين السنين، والحياة وجدت خلية على الأرض، وبمرور ملايين السنين كانت الحياة على هذه الصورة من الجمال والكمال، وليس وراء ذلك إرادة هادفة، ولا تدبير، وإنما هى صدف وموافقات تم بواسطتها الكون والحياة، وقد أقاموا نظريتهم هذه على أساس من الافتراضات الوهمية، والقياسات الفاسدة التى لا يقبلون مثلَها لو قالها غيرُهم ؛ ولأنهم يدعون أنهم لا يؤمنون بغير المحسوس المشاهد غير أنهم هنا خرجوا عن مبدئهم، وقالوا بالفرض والقياس تأييداً لترهاتهم، وأباطيلهم، وضلال عقولهم فى القول بالصدفة، وأنها علة الحياة، وأداة التكوين والإيجاد، كل ذلك هروباً من الإيمان بالله عز وجل، الذى لم ينكروه، ويكفروا به إلا تخلصاً من الطاعة والنظام.

هذا، وقد ذكر العلماء لإبطال فرية الصدفة فى الخلق والإبداع أمثلة عديدة قضوا بها على هذه النظرية الميتة العمياء، القائمة على أساس الوهم، والخيال اللاشعورى، منها قولهم: إن مثل من يقول: الإبداع الموجود وُجِدَ بطريق الصدفة لا غير، وليس ثَمَّ من إرادة لأحد، وإنما هى الصدفة والتلقائية فقط كمثَل من يقول: إن داراً للطباعة بها صندوق من الحروف يكفى لتصفيف كتاب، فأصاب الدار هزة من زلزال عنيف، فتساقطت تلك الحروف على بعضها، فكونت بالصدفة كتاباً ذا أبواب وفصول علمية مختلفة، وفى مواضع شتى، كمثل من يقول: إن رجلاً أعمى غرزت له إبرة فى لوحة، وأعطى ألف إبرة، وقيل له: ارم هذه الإبرة واحدة بعد الثانية لتدخل الأولى فى ثقب الإبرة المغروزة فى اللوحة، وتدخل الثانية فى عين الإبرة الأولى، والثالثة فى عين الثانية، وهكذا بطريق الصدفة حتى تدخل كل الإبر فى بعضها بعضاً، والرجل

-كما علمنا- أعمى لا يبصر شيئاً، فهل عاقل يصدق بصحة هاتين العمليتين ؟ اللهم لا ؛ لأن هذا من قبيل المستحيل الذى لا تقبله العقول ولا تقره، وإذاً فكيف يصدق أن الكون كله بما فيه من إبداع وتنظيم فى كل ذرة من ذراته، تم بطريق الصدفة والتلقائية.

اللهم إن مخلوقاً يصدق بهذه الترهات لمجنونٌ قطعاً لا تصح نسبته إلى العقلاء، ولا يذكر فى عدادهم أبداً. وكالصدفةِ عند الملاحدة الضرورةُ.

ما هى الضرورة ؟

إن الضرورة معناها: أن التنوُّعات الموجودة حصلت بطريق الضرورة، فحاجة الزرافة إلى تناول غذائها من أشجار عالية هى التى جعلت عنقها يطول، وحاجة السمكة الملحة إلى السبح فى الماء هى التى أوجدت زعانفها التى تساعدها على السباحة، إلى غير ذلك من الهراء والتعسف العجيب، والمنطق السقيم. وما قالوا بهذه التَّرهات والأباطيل إلا إمعاناً فى الهروب من مواجهة الحقيقة، وهى الإيمان بالله الصانع الحكيم، الذى لا إله إلا هو ولا رب سواه، وإلا فما يسمونه بالضرورة إنما هو العناية الإلهية بمخلوقاته، أو لم يروها فى ذات الولد وكيف تدر اللبن لمولودها بمجرد أن تضعه؟!، وفى ولدها الذى كان فى بطنها يتغذى بواسطة الأنبوب المتصل بسرته؟، ولما انفصل عنها وخرج من بطنها وحملت له الغذاء فى ضرعها، وهَدَى اللّهُ ذلك المولودَ إلى معرفة امتصاص حلمة الثدى ليتغذى باللبن إلى أن يصبح قادراً على التغذى بالحبوب والفواكه، والخضر. أو لم يروا إلى ذكور الحيوانات كيف تأتى إناثها مدفوعةً إلى ذلك بما أودع الله فيها من غريزة إتيان الجنس لتحبل الأنثى ذاتُ اللبن، فتوفر للإنسان لحماً، ولبناً، وجبناً، وسمناً، هو فى حاجة إلى مثلها لاستكمال غذائه الذى هو عنصر نمائه وحياته إلى أجله. أو لم يروا إلى ذبابة لقاح التين، كيف تخرج من حبتها بعد نضجها لتدخل فى التينة فتلقحها، ثم تخرج منها لتدخل فى أخرى فتلقحها، كل ذلك ليتوفر للإنسان فاكهة من ألذ الفواكه، وأكثرها نفعاً له ؟ !. أو لم يروا إلى الرياح كيف تثير السحاب، وهو الضباب الناتج عن تبخر الرطوبات فى الأرض، ومياه الأنهار، والبحار، وكيف يبسط الله تعالى ذلك السحاب فى السماء على نسب ومقادير خاصة، فيتكثف فى طبقات الجو، ويصبح يحمل كميات من الماء عذبة صافية ثم يمطر حيث يأذن الله تعالى، فتحيا به الأرض بعد موتها ؛ فَتُخرج للإنسان غذاءه من الحبوب، والفواكه، والخضر. فليقولوا لنا: أين الضرورة فى إيجاد اللبن فى الضرع؟ وأين الضرورة فى لقاح الحيوان ؟ وأين الضرورة فى تلقيح ذباب التين لأنثاه حتى يكون التين؟ وأين الضرورة فى عملية التبخر والتكثف، وإثارة الرياح للسحب، ونزول المطر بالمقادير والكميات المحدودة، والأوقات المحدودة، وفى إنبات الأرض وخروج الثمرات المختلفة، أين وجه الضرورة فى ذلك ؟؟

إنه لا ضرورة، وإنما هى عناية اللّه الذى أعطى كل شىء خَلْقه ثم هدى. ونختم هذا الجزء من البحث بالحجة العقلية التالية: إن النبات، والحيوان، والإنسان هذه الثلاثة سَلَّم الماديون بحدوثها، وبأن الإنسان أحدَثُها عهداً بالحياة، فيقال لهم: من أحدثها ؟ والجواب لا يخلو من افتراض ثلاثة حلول:

الأول: أن نقول: إن اللّه هو الذى أحدثها.

والثانى: أن تكون حدثت بواسطة ذرات المادة، وأجزائها، وعناصرها عن إرادة وقصد، وعناية، بمعنى أن العناصر المادية فكرت ودبرت واتفقت على صنع المخلوقات على ما هى عليه من صور وأشكال.

والثالث: أن تكون وُجدت من طريق الصدفة بمعنى أن الذرات تلاقت، وتجمعت على نسب وأوضاع مخصوصة بطريق الصدفة، فتكونت هذه المخلوقات بما فيها الحيوان والإنسان.

فأى الفروض أولى بالصحة والقبول ؟ أما الثانى: فالملاحدةُ يردُّونه، ولا يقولون به ؛ لأنه ينسب للمادة قصداً وإرادة، وهم لا يقولون بالقصد والإرادة أبداً. وأما الثالث: فهو محال عقلاً؛ لبطلان قانون الصدفة وفساده كما عُلم، وتقدم. فَلم يَبْقَ إلا الافتراض الأول، وهو أن اللّه تعالى هو الذى خلقها بطريق السُّنن المطردة، التى وضعها لخلق كل المخلوقات، وإيجاد هذا العالم وبذلك وجب الكفر بآلهة الملاحدة الثلاثة التى هى الطبيعة، والصدفة، والضرورة، ووجب الإيمان باللّه الخالق، المدبر، الحكيم، العليم.

والآن ولما ثبت بالبراهين العقلية وجودُ اللّه تعالى، ووجب الإيمان به ربّاً وإلهاً ؛ فإنه ينبغى التعرُّفُ إليه سبحانه وتعالى.

معرفة اللّه جل جلاله
ومراتب المؤمنين فيها

إن للمعرفة باللّه تعالى مراتب يترقى فيها المؤمنون به عز وجل حتى يبلغوا الكمال فى معرفة ربهم سبحانه وتعالى وبقدر معرفتهم له جل وعز تكون تقواهم له، وخشيتهم منه، ومحبتهم، وطاعتهم له، وتقربهم إليه، وتوسلهم.

فالمرتبة الأولى: من مراتب المعرفة باللّه عز وجل هى مرتبة علماء الكونيات الذين يحصلون على إيمانهم باللّه، ومعرفتهم له بواسطة النظر والاستدلال بالخلق فى الكونيات، والإبداع فيها، فيؤمنون بخالق ذى قُدرة وإرادة، وعلم، ويعرفونه بتلك الصفات من القدرة، والإرادة، والعلم، والحكمة، والتدبير. غير أنهم يجهلون من أسمائه تعالى وصفاته ما به تعظم

محبتهم له، وخشيتهم منه، وطلبُ التقرُّب إليه، والمنزلة عنده، وذلك لعدم إيمانهم بكتابه ورسوله [1]؛ إذ به تتم المعرفة الحقّة للّه سبحانه وتعالى.

وهؤلاء قد ينفعهم إيمانهم فى الحياة الدُّنيا بقدر ما أثمرَ لهم من تعظيم لله تعالى، ومحبة فيه، وقد ينفعهم فى الآخرة بتخفيف العذاب عنهم.

والمرتبة الثانية: من مراتب معرفة اللّه عز وجل هى مرتبة أهل الإيمان التقليدى الحاصل لهم عن طريق الشعور الفطرى، واستفاضة الأخبار بوجود اللّه تعالَى وَشهرتها، ومرتبة هؤلاء فى معرفتهم باللّه تعالى أضعف مراتب المعرفة، وصاحبُها أقلُّ المؤمنين تقوى لله عز وجل، ومحبَّةً له، وخشية منه، وأولئك كعوام المؤمنين من أتباع الأنبياء صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين.

والمرتبة الثالثة: هى معرفة المؤمنين من أهل الشرائع الإلهية، وهى مرتبة عالية فى معرفة اللّه تعالى والإيمان به، حيث عرف أهلُها اللّهَ تعالى بطريق أخباره عز وجل، وأخبار العارفين به. والمبلِّغين عنه، كما عرفوه عز وجل بواسطة الشواهد والبراهين التى أقامها سبحانه وتعالى لمعرفته، وبواسطة الأدلة والأعلام التى نصبها لذلك، فهؤلاء المؤمنون أكثرُ الناس محبة لله، وطاعة له، وخشية منه، وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ (فاطر: 28).

والمرتبة الرابعة: هى مرتبة معرفة الأنبياء والمرسلين باللّه تعالى، وهى مرتبة أعلى من سابقتها، وأتم وأكمل من كلِّ مراتب المعرفة باللّه عز وجل والإيمان به وحبه وخَشيته وطاعته، والاستقامة على مَنهجه، وتحقيقاً للعبودية، وأداءً لحقوق الربوبية والألوهية ؛ لأن أهلها جمعوا بين صفاء الفطرة، وسلامتها من التلوُّث بالآثام قبلَ نبوَّتهم، ورسالتهم، وبعد اصطفائهم للرسالاتَ ؛ وتشريفهم بحملها وإبلاغها لمن أرسلوا إليهم، وبين المعرفة المكتسبة بالنظر والاستدلال بالبراهين العقلية، وبين العلم اليقينى ؛ لتَلقيهم عن اللّه تعالى وَحْيَهُ، ولمَاَ أظهره على أيديهم من عظيم المعجزات، وخوارق العادات وَلمَا خصهم به من معارفَ به، وبأسمائه وصفاته ما كانوا به أكملَ المؤمنين إيماناً، وأقواهم يقَيناً، وأكثرهم له تعالى محبةً وطاعة. وأشدَّهُم له تقوى وخشية. كما قال إمامهم وخاتمهم محمدٌ ﷺ وهو يخاطب أكملَ الناس إيماناً باللّه ومعرفةً لهُ بعدَ الأنبياء والمرسلين ـ وهمْ صحابتهُ رضوانُ اللّهِ عليهم ـ: «**فواللّهِ إنى لأعلمكم باللّهِ وأشدكمْ لَهُ خشيةً**»[2].

---

(1) المراد من الكتاب هنا القرآن الكريم. ومن الرسول محمد ﷺ .

(2) رواه البخارى ومسلم. اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (3/ 111).

الطريقة الأولى
إلى معرفة الله سبحانه وتعالى
الهداية العقلية

إن العقل السليم إذا أصدر حكماً على شيء ما من الأشياء المحسوسة أو المعقولة ؛ فإن حكمه لا ينتقض أبداً بخلاف حكم غيره مما طريقُه الحواس، أو العادات، أو الاستقراء ؛ فإنه كثيراً ما ينتقض، فالعينُ المبصرة قد تصدر حكماً ما على مرئى من المرئيات بأنه ثابت أو متحرك فتخطئ فى الحكم. والأذنُ السامعة قد تصدر حكماً على مسموع بأنه صوتُ إنسان، أو حيوان، فيتبين خلاف ما حكمت به، وكذا الذوق، أو الشم ؛ فقد يحكم الذوق بأن طعم كذا من المأكولات حلو أو مُر. ويتبين الأمر بخلاف ذلك. ويحكم الشم بأن رائحة كذا طيبة أو كريهة. ويظهر خطأ الحكم.

وأما حكم العادات القائم على التجارب: فإن الخطأ فيه أكثر، وأكثرُ منه خطأُ حكم الاستقراء والتتبع ؛ لأن الإنسان مهما أوتى من قوة لا يستطيع أن يحيط علماً بالأشياء كلها. فلذا كان الخطأ أكثر فى أحكام الذين يبنون أحكامهم على التجارب والملاحظات والقياسات والافتراضات. أما أحكام العقل: فإنها متى ثبتت سلامة العقل وصحته لا تنتقض أبداً، وسواء كانت واجبة، أو جائزة أو مستحيلة.

ومن أمثلة ذلك حكم العقل فى الواجب: أن كل معلول لابد له من علة. وحكمه فى الجائز: أن يسكن المتحرك أو يتحرك الساكن، متى وُجِدَت علة الحركة أو السكون. وحكمه فى المستحيل: أنَّ القائم ليس بقاعد.

وهذه العصمة لحكم العقل السليم من الخطأ تتناول أحكامه الضرورية والنظرية على حدٍّ سواء. ومن أحكام العقل الضرورية: أن الواحد نصف الاثنين، وأن الرجل غير المرأة، وأن المملوءَ من الأوعية غيرُ الفارغ ؛ إذ هذه الأحكامُ تدرك بغير تأمل، ولا نظر أو استدلال.

ومن أحكام العقل النظرية: أن الثلاثة ثمنُ الأربعة والعشرين، وأن الواحد نصف سدس الاثنى عشر، وأنَّ العالم حادث، وأن المعلول لابد له من علة ؛ إذ هذه الأحكام العقلية لا تدرك إلا بالنظر وبالتأمل، ومع هذا فإن الخطأ لا يتطرق إليها أبداً.

ومن هنا، كانت الهداية العقلية أحد طريقى الإيمان بالله ومعرفته سبحانه وتعالى، فلنذكر هنا جملة من أحكام العقل وقوانينه القاضية بوجود الله تعالى، والهادية إلى معرفته عز وجل. ومن ذلك:

١- قانون العلّة:

لقد ركز فى فطرة كل إنسان عاقل أنَّ كلَّ متغَير من جسم أو حال أو صفة، لابد له من سَبَب تغير به، ولا يخرج شَيء عن هذا القانون بحال من الأحوال ؛ إذ كل من يرى آنيةً موضوعةً، أو آلة مصنوعة يحكم على الفور بعقله أن لنية واضعها فى مكانها الذى هى موضوعةٌ فيه، وأن للة صانعاً صنعها حتماً، ويجعل من المحال أن تكون الآنيةُ قد وُضعت فى مكانها بلا واضع وضعها فيه، وأنَّ الآلة قد صُنعت بلا صانع صنعها.

ويؤمن الإنسان بهذا إيماناً راسخاً، ولا يستطيع أحد أن يقنعه بخلافه أبداً، وذلك لأن العقل حكم بأن كلَّ آلة لابد لها من صانع، وأنَّ كل مُتَغير من الأشياء من صفة إلى صفة، أو من مكان إلى مكان لابد له من علة تغيَّرَ بسببها. وهذا القانون أو الحكم العقلى يسرى على العالم كله بجميع أجزائه، من المادةً والحركة والتنوعات ـ أى أنواع المخلوقات ـ فى وجوده وتغيره، فلابد لوجوده من علَّة، ولابد لتغيره من سبب أثَّر فيه، فهو يتغير من حال إلى حال لأجله. ولابد أن تكون العلة التىَّ اقتضت وجوده وتغيره علةً كافيةً، وإلا لَما تَمَّ لها هذا الإيجاد والتغير.

وبالنظر إلى مظاهر الإبداع، والقصد، والتنظيم، والتنسيق، والإحكام فى الخلق والإيجاد، والتدبير فى التصريف أثناء التغيير والتبديل ؛ فإن العلة التى اقتضت وجود العالم وسائر المخلوقات فيه، لابد وأن تكون ذات قدرة، وإرادة، وعلم وحكمة ؛ إذ لا بد من الكفاية فيها، وإلا لما تم هذا الخلق، والإبداع، والتنظيم، والإتقان، والتدبير الحكيم، ومحال أن تكون العلة الكافية هى الطبيعة لعدم القصد لها، والإرادة، والعلم، والحكمة، كما لا تكون (الصدفة) لاستحالة ذلك مع وجود الإبداع المدهش للعقل، والتنظيم المحيِّر له، والموافقات يستحيل بها تجمُّعُ المادة، وتوافقها حتى يتمَ الخلق، والإبداع، والتنظيم. كما لا تكون ـ ولن تكون ـ الضرورة، إذ نظرية الضرورة سخر منها كل ذى عقل صحيح، ومجها كل صاحب ذوق سليم.

ولم يَبْقَ أن تكون تلك العلة الكافية التى اقتضت وجود العالم وتنوعاته إلا اللّه سبحانه وتعالى وهكذا أصدر العقل السليم حكمه الصحيح الذى لا ينقض أبداً بوجود اللّه ذى الأسماء الحسنى، والصفات العليا، فآمن به المؤمنون، وعرفوه بواسطة هذا الحكم العقلىِّ السليم الصحيح والذى لا يُنقض أبداً .

٢ ـ قانون الوجوب:

إن قانون الوجوب هو أحدُ طرُق الاستدلال العقلىِّ على وجود اللّه تعالى ووجوب الإيمان به، والتعرف إليه، ووجوب طاعته والتقرب إليه. وحقيقة هذا القانون هو أن يقال: إنَّ الموجودات من هذه الحوادث التى يحويها العالمُ العلوىُّ والسفلى من كلُّ الموجودات من جماد، ونبات،

وحيوان، وإنسان، إما أن يكون وجودها واجباً، أو مستحيلاً، أو جائزاً، ولا يخلو أمْرُها من واحد من هذه الثلاثة بحال من الأحوال لقضاء العقل الصحيح بهذا، وتسليم جميع العقلاء به.

وحقيقة الواجب: أنه ما أوجب عدمُ تصور وقوعه تناقضاً عقليّا لا يقبل. وحقيقة المستحيل ـ وهو نقيض الواجب ـ أنه ما أوجب تصورُ وقوعه تناقضاً عقليّا لا يصح.

وحقيقة الجائز ـ ويقال له: الممكن أيضاً ـ أنه ما لا يوجب تصور وقوعه تناقضاً عقليّا لا يصح أو لا يقبل. وبناء على هذا فهل وُجودُ الكائنات واجبٌ أو مستحيل أو جائز ؟

والجواب: أنَّ وجود الكائنات ليس بواجب ؛ إذ تصور عدم وقوعها لا يوجب تناقضاً عقليّا، كما أنه ليس مستحيلاً ؛ إذ تصورُ وقوعها لا يوجب تناقضاً عقليّا، وكيف وهي موجودة فعلاً ؟ إذاً، فإذا لم يكن وجود الكائنات واجباً، ولا مستحيلاً تعيَّنَ أن يكون جائزاً ؛ إذ الأحكام ثلاثة فقط، وإذا تعين أن يكون وجودُ الممكنات جائزاً لا غير، فإنَّنا نقول: ما دامت الكائنات جائزة الوجود ممكنته فقط ـ وقد وجدت فعلاً ـ فما الذى اقتضى وجودَها ورجحه على عدمه ؟ والجواب أن نقول: إنه لابد من علَّة اقتضت الوجودَ ؛ إذ تصورُ وجود معلول بدون علة مستحيل، لإيجابه تناقضاً عقليّا لا يُقبل. وإذاً فما هى هذه العلَّة التى اقتضتَ وجود الكائنات ؟ وكون هذه العلَّة التى اقتضت وجود الكائنات هى الطبيعة باطل ؛ لأن الترجيح لا يكون إلا عن قصد وإرادة، والطبيعةُ لا إرادة لها ولا قَصْد كما يعترف بذلك القائلون بها. وكونها الصدفة باطل، لما تقدم من استحالة ذلك لوجود الإبداع، والتناسق، والتآلف، والوزن الدقيق، ولأن الموافقات لا تتم إلا بعقل جبار، وإرادة عظيمة، وتدبير وحكمة، وكونها الضرورة باطلٌ بل من أبطل الباطل ؛ لأن الضرورة ليست إلا وهماً من أوهام الخيال ولا قائل بها البتة، وقد بينَّا أنها عناية اللّه تعالى بمخلوقاته، تلك العناية الإلهيَة التى أعطت كل مخلوق خَلْقه، وهَدَتْه إلى ما يكملُ به وجودُه وتحفظ به حياته إلى أجَله الذى حُدِّدَ له. إذاً، فإنه لم يَبق من علَّة لوجود الكائنات اقتضت وجودَها، ورَجحتْه على خلافه إلا أن يكون اللّهُ جلّ جلاله، هو الذى اقتضى وجودها ورجحه، فكان الكون على ما هو عليه من إبداع وتنظيم. ومظاهرُ القدرة، والعلم، والتدبير، والإحكام، والإتقان كلُّها دالّة على علم اللّه، وقدرته، وكمال تدبيره، وعظيم حكمته.

بهذا عُرِفَ اللّهُ جلّ جلالهُ، وآمن به المؤمنون، وأحبوه، وعبدوه، وتقرَّبوا إليه.

٣ ـ قانون الحدوث:

لقد ثبت اليوم ـ وبدون شك ـ حدوث سائر الكائنات الحيَّة، ومن أقربها عهداً بالحدوث الإنسانُ، كما قرر هذا علماء الكون وطبقات الأرض. وبهذا ثبت حدوث العالم بأسره قطعاً ويقيناً؛ لأنَّ الشيء الواحد لا يكون قديماً وحديثاً فى آن واحد، كما لا يكون بعضه قديماً، والبعض

الآخر حديثاً ؛ إذ القول بهذا يوجب تناقضاً عقليّا لا يصح، ولا يُقْبل فى قضايا العقول السليمة.

وإذا سلَّمنا بحدوث العالم كله ـ وهو مُسَلَّم حتى من الطبيعيين أنفسهم ـ فإنَّه لا انفكاك حينئذ من التسليم بوجود علة كافية لإحداثه ؛ إذ وجود معلول ـ وهو الحدوث بدون علَّة ـ يوجب تناقضاً عقليّاً لا يصح ؛ لإطباق العَقول السليمة على رفضه، وعدم قبوله.

هذا، وما فى العالم الحديث من إبداع، ونظام، وتدبير يوجب عقلاً أن تكون العلة التى ترتب عليها حدوث العالم علة كافية، ذات قدرة وعلم، وإرادة وقصد، وحكمة وتدبير، كما يوجب أن تكون العلة واجبة الوجود لذاتها، بحيث لا يُتَصور افتقارها إلى علَّة أخرى لئلا يلزم الدَّور والتَسلسل وهما محالان فى حكم العقول.

وأخيراً فالعلة الكافية التى وجب عقلاً أن تكون، ووجب أن تكون واجبة الوجود هى اللّه الخالق، المدبر، الحكيم، ذو الأسماء الحسنى، والصفات العليا، رب العالمين، وإله الأوَّلين والآخرين.

وبهذا القانون الخاص ـ قانون الحدوث ـ ثبت وجودُ اللّه تعالى عقلاً، ووجب الإيمان به ربّا وإلهاً، وتعيَّنَتْ عبادته بفعل ما يحب، وترك ما يكره ؛ طلباً لرضاه، والسعادة فى جواره الكريم يوم لقائه بعد فناء هذا العالم الحادث وانقضَائه.

٤ ـ قانون النظام:

إن التأمل فى الكون كله علويه وسفليه يكشف عن حقيقة كبرى، لا مجال لإنكارها، أو تجاهلها والإغضاء عنها، أو الغض من شأنها، ألا وهى هذا النظام الدقيق العجيبُ، الَذى رُبطت به أجزاءُ الكَون كله من الذرَّة إلى المجرَّة، هذا النظام المدهش، المحير للعقول، الذى يُحيل العَقلُ البشرى السليمُ أن يكون ناجماً عن صدفة وتلقائية، أو عن تفاعلات كيمائية، أو يكون نتيجة للحركة المستمرة للمادة منذ ملايين السنين كما يزعم الخياليون، والمغرورون، المخدوعون ؛ إنه لمن أمحل المحال، وأبطل الباطل أن يصدر هذا النظام الشامل للخلق كله عن ذى إرادة، وقصد، وعلم، وحكمة، وتدبير، إن نظرةً إلى السماء، إلى خَلْقها، وتكوينها، إلى الإحْكام والإتقان فيها، إلى أبعادها، إلى سعتها، إلى عدد نجومها، ومواقعها، إلى الأفلاك الدائرةَ فيها، إلى ضوء شمسها، ونور قمرها. هذه النظرة الفاحصة الشاملة تُرى الإنسان العاقل من مظاهر القدرة، والعلم، والإرادة، والقصد، والتصميم ما يجزم معه ببطلان هَراء الماديين، وترهات الملحدين ؛ ويسلم بوجوَد إله عظيم متصف بصفات الربوبية، ونعوت الألوهية.

وأى نظرة فاحصة دقيقة إلى الأرض، إلى خلقها وتكوينها، إلى محيطاتها، وأنهارها، إلى جبالها ووهادها، إلى مرتفعاتها وسهولها، إلى النباتات والأشجار، إلى التنوع فى الحيوانات،

وإلى الاختلاف فى أجناس البشر لوناً ولساناً، تقف بالناظر عند حقيقة لا يستطيع إنكارها، ولا إخفاءها وجحودَها، وهى أنَّ وراء هذا الخلق والإبداع خالقاً، مبدعاً، عليماً، حكيماً، وهو اللّه الذى لا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه. قال تعالى فى هذا المعنى من سورة «ق»:

﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ** ﴾ (الآيات: 6-8).

إن نظرة عابرة فقط إلى النور، والفَلَك، وهذا الهواء المشترك، إلى ائتلاف الهواء، إلى عناصر الماء، إلى النوعية، والزَّوجية فى كل شىء فيها، وعليها، تكفى فى إقناع ذى العقل بوجود إله ذى قصد وإرادة، وحكمة وتدبير، وقدرة لا تُحَد، وعلم لا يُحيط به أحدٌ، ألا وهو اللّه العزيز الحكيم، اللّه الذى أوجبت العقولُ السليمة وجودَه، ودلت كل ذرَّة فى الكون على علمه، وقدرته، وتدبيره، وحكمته.

٥ ـ قانون العناية بالإنسان:

قبل عرض قانون «العناية» الذى هو أحد القوانين العقلية الموجبة للإيمان باللّه تعالى، والمعرفة به سبحانه وتعالى، نذكر قاعدة عامة فى الكون كله، قد تخفى على غير المتأملين فى الكون، والدارسين له، وهى أنه لا مجال فى الكون للباطل، ولا محلَّ فيه للعبث بحال من الأحوال؛ بل الكونُ كله قائم على أساس العدل والحق، والنظام والإحكام. ولا يوجد جزءٌ واحد من أجزائه خلْواً من فائدة مقصودة منه، أو حكمة مُتَوَخَّاة فيه. وهذه الحقيقةُ الكونية تظهرُ بوضوح لكلٍّ من تأملَ الكون، ونظر فى حقائقه. وقد قرَّر هذه الحقيقةَ وأكَّدها كتابُ اللّه القرآن الكريم فى قوله: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ (الدخان: 38-39).

وفى قوله: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ (ص: 27).

ومثل هذه الحقيقة الكونية فى وضوحها وثبوتها قانونُ العناية الذى نعرضه الآن برهاناً عقليّاً على وجود اللّه تعالى، وطريقاً من طرق معرفته عز وجل. وقانون العناية هذا يتألف من حقيقتين:

الأولى: خلو الكون كله من أيَّة ظاهرة للعبث، والباطل فيه.

والثانية: أنَّ الكون كلَّه، وبجميع أجزائه مُسَخَّر لخدمة نوع واحد من بين سائر أنواعه، فمنْ أعظم كائن فيه، إلى أصغر كائن وأحقره، الكل يخدمُ ذلك النَّوْع، وهى حقيقة مدهشة للغاية، أن يكونَ هذا الكون الفخم الهائل بكل ما فيه من أجرامه السماوية، ومخلوقاته الأرضية، الجميع مسخر تسخيراً خاصّاً لخدمة نوع واحد من بين سائر المخلوقات التى حواها الكون، وانتظمها هذا

الوجود المادى القائم على أساس الحقِّ والعدل، والخالى من جنس اللعب والعبث كما سبق بيانه.

وهذا النوع المسخرُ له الكون كله، هو الإنسان وحده، والمثل الذى يوضح هذه الحقيقةَ التى تبدو غريبةً بادئ ذى بدء عجيبة هو: أن يأمرَ أحدُ الملوك العظماء ببناء قصر فخم، كبير، فيبنى على أحسن طراز، ويُجَمل بأحسن أنواع التجميل، ويزوَّد بكل أسباب الراحة، والارتفاق، بحيث يصبح آية فى باب القصور الملكية فى دنيا الناس متعة وجمالاً، ثم يُنْزل به ضيفاً كريماً عليه، ويقول له: لقد بنينا لك هذا القصر لتعيش طوالَ حياتك متمتعاً بكلِّ ما فيه من خيرات ونعيم. فالملك هو اللّه، والقصر هو الكون، والضيف هو الإنسان، وهذه الحقيقة قد قرَّرها القرآن أيضاً وأكدها كالحقيقة الأولى، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: 12-13).

ولنستعرض الآن بعض مظاهر العناية بالإنسان فى الكون:

١ ـ فى السماء:

إن فى السماء الدنيا كواكب كثيرةً، ونجوماً عديدة، وفيها الشمس وفيها القمر، والأرض أكثر تعلقاً بهما من غيرهما من سائر الأجرام السماوية، فبالنجوم المشرقة، والكواكب المنيرة ازدانت السماء الدنيا التى هى سقف لهذه الدار التى يسكنها الإنسان ويعمرها، وبالقمر المنير ذى المنازل والتقدير استنار غالب ليل الإنسان، وبه يعرف عدد السنين والحساب، وبالشمس المضيئة أشرق النهارُ على الإنسان، وبها عرفَ ليله، وميز نهاره، ومنها استمدت أرضه دفئها، وحرارتها، وطاقتها المودعة فيها، ولولا الشمس لتجمدت الأرض، ولما كانت صالحة للحياة. وفى السماء تتجمع السحب وتتراكم، ومنها تنزل الأمطار مياهاً عذبة، بها حياة الإنسان وسعادته. وفى السماء ـ فى علوها وارتفاعها، وكثرة أجرامها، ومجرَّاتها، وكواكبها، ونجومها، وشموسها، وأقمارها ـ آياتٌ عظام تهدى الإنسان إلى معرفة ربه، وتبين له قدرته عليه، وتُريه سوابغ نعمه به.

٢ ـ فى الأرض:

إن فى الأرض البحار، والأنهار، والمعادن، والجبال، والسهول، والتلال، فيها الأحياء المائية، والحيوانات البرية ذات المنافع العديدة، والفوائد الجمة الكثيرة، وبها الأشجار المظلمة والمثمرة، وبها الزروع، والنباتات التى هى أرزاق وأقوات، وكلها مسخَّرة للإنسان مُعْطاةٌ له، لم يكن فيها شيء لغيره، ولا يخرج منها شيء عن منفعته وفائدته بحال من الأحوال.

وبعد هذا الذى أجملناه فى تقرير كون الوجود كله من أرض وسماء قد وضع مسخَّراً لخدمة الإنسان، وذلك دليل على وجود خالق للكون والإنسان معاً، وهو اللّه تعالى الذى خلق الكون أولاً، ثم خلق الإنسان وسخر له كل ما خلق فى الكون ؛ عناية به، وكرامة له، نذكر ظاهرة كونية واحدة من ظواهر العناية بالإنسان لنزيد بها قانون العناية تأكيداً وتوضيحاً، وهى ظاهرة اللقاح فى النبات والحيوان. وهى ظاهرة مسلَّمة من كل العقلاء. فالنباتات كلها فيها الذكر، وفيها الأنثى، ويجرى اللقاح بينها حسب سنَّة ثابتة وقانون مرسوم لا يُخَالَف، وذلك ليتوفر للإنسان غذاؤه من الحبوب، والفواكه، والخضر التى هى العنصر الهام فى غذائه الذى هو قوام حياته. وظاهرة اللقاح فى الحيوان أبين وأوضح، فالتيس مثلاً يطلب أنثاه مندفعاً إليها، ويجرى وراءها، له صوت عجيب، حتى إذا أتم لقاحها، وفرغ منها اعتزلها اعتزالاً كليًا إلى أن تضع حملها، وترضعه، ويكاد يستغنى عنها، ثم يعاودها التيس مرة أخرى، ويجد من غريزته المودعة فيه دافعاً قوياً نحوها لا يملك التخلى عنه ولا السيطرة عليه حتى يتم مهمته التى هيئ لها.

ولنتساءل، لم يتم هذا ؟ ولصالح مَنْ ؟ إنه يتم من أجل الإنسان ولصالح الإنسان فقط ؛ إذ بهذا يتوفر له قسط آخر مهم من غذائه الذى هو اللبن والجبن، واللحم، كما يتوفر له كساؤه، وفراشه وغطاؤه.

وأخيراً، هذه العناية بالإنسان، المتجلية فى الظواهر الكونية، كلها إن لم تدل على وجود خالق للكون ذى إرادة، واختيار، وعلم، وقدرة، وقصد، وحكمة، خلق الإنسان وسخر له الكون كله ـ كما هو مشاهد محسوس ـ فإنه لم يبق شىء يدل على آخر فى الحياة أبداً، فلا الرماد يدل على النار، ولا النوى تدل على التمر، ولا الكلام يدل على الإنسان، ولا الحركة تدل على الحياة، وحينئذ: فعلى العقل العفاء، وعلى الدنيا السلامُ.

الطريقة الثانية
إلى معرفة الله سبحانه وتعالى
الهداية الدينية

قد سبق أن ذكرنا أن طريقة الهداية الدينية تجمع بين الاستدلالين: القياس العقلى، والدينى الشرعى ؛ فهى أعظم طريقتى الهداية إلى معرفة اللّه تعالى والإيمان به عز وجل، وهى التى تبعث المهتدى بها إلى العمل، المزكى للنفس، والمهيئ له لسعادة الدارين، بخلاف الهداية العقلية وحدها ـ وهى الطريقة الأولى من طريقتى الهداية ـ فإنها، وإن أنقذت صاحبها من التمزق

الشخصي، والقلق النفسي ، والحيرة الفكرية، فإنها لا تزكى نفسه، ولا تُقَوِّم أخلاقه، ولا تهيئه لسعادة الدنيا والآخرة، كما أنها لا تخرجه من دائرة الكفر الموجب للعذاب الأخروى، والخلود فيه.

وهذا عرض سريع لطريق الهداية الدينية المفْضية ـ بمن أخذ بها ـ إلى معرفة اللّه تعالى معرفة سليمة تبعث على الاستقامة، وتعد للسعادة والكمال، فى الحال والمآل. وقبل الشروع فى الكلام، نذكر أن هناك حقيقتين ثابتتين ينبغى أن تكونا منطلق التعرف إلى اللّه تعالى، والتعريف به سبحانه وتعالى، هما:

الأولى: أنه لا يعرفُ اللّه كنفسه سبحانه وتعالى، ولا يعرّف باللّه مثلُ اللّه جل جلاله وعَظُمَ سلطانه.

والثانية: أن مصدر معرفة اللّه تعالى، هو كتابه ورسوله ؛ فقد تعرف اللّه تعالى إلى عباده فى كتابه بما لا مزيد عليه. كما أن الرسول ﷺ لم يَألُ جهداً فى التعريف بربه عز وجل، بالحديث عنه وبذكر أسمائه وصفاته حتى عرف المؤمنون ربهم معرفة أثمرت لهم محبته وطاعته، ويحسن أن ننبه هنا إلى أن للتعريف باللّه عز وجل فى الكتاب طرقاً مختلفة، وأساليب متنوعة. منها: أن يخاطب عباده كافةً، مؤمنهم وكافرهم، ويتعرف إليهم فيأمرهم وينهاهم.

ومنها: أن يتعرف إلى أنبيائه ورسله عليهم السلام فيناديهم، ويخاطبهم ويُوحِى إليهم.

ومنها: أن يتعرف إلى عباده المؤمنين به وبرسله، فيخاطبهم، يأمرهم وينهاهم، يعدهم ويبشرهم، ينذرهم ويحذرهم.

ومنها: إرساله تعالى الرسل، وإنزاله عليهم الكتب، وتأييدهم بالمعجزات والخوارق التى يعجز عنها البشر عادة، ولا يقدرون على مثلها، لكونها لا تخضع للسنن الكونية. وهذا تفصيل ذلك:

أولاً: خطابه عز وجل لكافة عباده فى قوله من سورة البقرة: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ (الآيتان: 21، 22).

فقد اشتملت هاتان الآيتان على نداء اللّه تعالى للعباد، وأمرهم بعبادته، ونهيهم عن الشرك به وبعبادته. كما اشتملتا على التعريف به تعالى ربّا خالقاً، مدبراً رازقاً. خلق البشرية كلها، وجعل لها الأرض فراشاً، والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء، فأخرج لها به من الثمرات رزقها، وما به قوامُ حياتها. كما اشتملت الآيتان على دليلين عقليين:

(**الأول**): دليل الحدوث.

(**الثانى**): دليل العناية. وقد سبق بيان كل منهما فى بحث الهداية العقلية، فليرجع إليهما.

وفى قوله سبحانه من سورة النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ (النساء:1).

ففى هذا النداء الإلهى، يأمر اللّه تعالى البشريَّة كلها بتقواه، وهى عدم الخروج عن طاعته بترك أمره، أو بفعل نهيه، ويذكرهم بأنه ربُّهم أى خالقهم، ورازقهم، ومدبِّر أمرهم، كما ذكَّرهم بأصل نشأتهم. فاشتمل هذا النداءُ الكريم على التعريف باللّه تعالى بوصفه الخالق، كما اشتمل على دليل عقلى، وهو دليل الحدوث.

وفى قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأعراف:54).

ففى هذا الإخبار الإلهى تعريفٌ باللّه سبحانه وتعالى بوصفه الربَّ الذى خلق الكون كله، علويه وسفليه، وهو يدبر أمره من فوق عرشه. وكما انفرد بالخلق والتدبير انفرد بالأمر والعبادة والتشريع.

كما فى هذا الخبر القرآنى دليل عقلى على إثبات وجود اللّه تعالى، وهو دليل العلة الكافية ؛ إذ الخلق والتدبير مشاهدان فى الكون لكلٍّ ذى عينين فلابدَّ إذاً من خالق مدبر للكون. ونَفْيهُ مستحيل، لما يوجب من التناقض العقلى.

وفى قوله عز وجل من سورة فاطر: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (فاطر:3).

ففى هذا النداء تعرَّف اللّهُ تعالى إلى الناس بأنه وَلِىُّ نعمتهم ـ نعمة الخلق والرزق ـ وطَلَبَ منهم أن يذكروا ذلك ليشكروه بعبادته وحده. لكونه لا يستحقُّ العبادَةَ سواه، وعجَّبهم من انصرافهم عنه، وهو ربهم الذى لا ربَّ لهم غيرهُ. فاشتمل هذا النداء الكريمُ على دليلين عقليين، هما: دليل الحدوث، ودليل العناية.

وفى قوله تعالى من سورة الحُجُرات: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:13).

فاشتمل هذا النداء الإلهى على التعريف به تعالى بوصفه الخالقَ، والمدبِّرَ ذا العلم، والخبرة التامة، فمن مظاهر تدبيرِه للناس، أن جعل حياتهم اجتماعيةً ليتم التعاون بينهم على تحقيق سعادتهم، ولو شاء لجعلهم يعيشون على نمط حياة البهائم والحيوانات، فلا أسرة، ولا قبيلة، ولا شعب، وحينئذ لا مناص من أن يعيشوا عيش الحيوانات، فلا مدنية، ولا حضارة، بل ولا إنسانية ولا كرامة آدمية. كما اشتملت الآية على دليل الحدوث، والعناية أيضاً.

وفي قوله من سورة لقمان عليه السلام: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑩ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ (لقمان:10-11).

ففي هذا الخبر الإلهي تعريفٌ بالله تعالى بصفات الكمال التي انفرد بها دون غيره. وهي خلق السموات خلقاً محكماً بما أودع فيها من قانون «الجاذبية» فتماسكت أجرامها، ولم تحتج إلى ما يدعمها من وسائل الدعم التي عرفها الناس -كالأعمدة ونحوها- وإلقاؤه تعالى الجبال في الأرض لحفظ توازنها حتى لا تضطرب بأهلها ولا تميل بهم فيهلكوا. ونشره تعالى آلاف الدواب المختلفة نوعاً، وشكلاً وخاصية. وفوائد نشره في الأرض التي هي كالمائدة الكبرى للإنسان، وكالفندق العظيم للإقامة والسكن. وإنزاله عز وجل المطر من طبقات الجو السامية. وإنباته النباتات المختلفة التي هي أصل غذاء تلك الدواب التي بثَّها في الأرض. كما اشتمل آخر الخبر المذكور على تحدٍّ صريح لأولئك الذين يؤلهون غيره تعالى من مخلوقاته بأن يشيروا إلى شيء ما قد خلقته آلهتهم الباطلة المزعومة. كما اشتمل الخبر أيضاً على الأدلة العقلية التالية: دليل الحدوث، ودليل العناية، ودليل النظام، ودليل الوجوب.

وفي قوله تعالى من سورة الزمر: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ⑤ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ (الآيتان:5،6).

ففي هاتين الآيتين من كتابه تعالى يتعرف سبحانه وتعالى إلى عباده من خلال صفاته العليا، وهي كونه الخالق، القوي القادر، المدبر، العزيز، الغفار، كما يتعرف إليهم بنعمه عليهم في خلقهم، وجَعْلِ الأرض مناسبةً لحياتهم فيها باختلاف الليل والنهار عليها، وبوجود الشمس والقمر مسخرين فوقها، القمر ينيرها، وبه تُعْرف شهورها وأعوامها، والشمس تضيئها، وتدفئها، وتجعل الحياة صالحة فيها.

وبإنزال الأنعام، ذات اللحوم، والألبان، والأصواف والأشعار، والأوبار، حيث يشربون ألبانها، ويركبون ظهورها، ويأكلون لحومها، ومن أصوافها، وأوبارها، وأشعارها يلبسون ويتأثثون.

بتلك الصفات العُلَى، وهذه النعم العظمى يتعرف الله جل جلاله إلى الناس، ويخبرهم بأنه هو ربهم، وإلههم، لا ربَّ لهم غيره، ولا إله لهم سواه، ويُعجِّبهم[1] من انصرافهم عنه،

(1) يحملهم على التعجب.

وإقبالهم على سواه. وقد اشتملت هاتان الآيتان على كل القوانين العقلية، من دليل الوجوب، والحدوث، والنظام، والعناية، والعلة، وبأى تأمل فى الآيتين يظهر ذلك جلياً.

وفى قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ (الآيتان: 28، 29).

ففى هاتين الآيتين من كتابه تعالى يُعَجب تعالى عباده من كفرهم به وجحودهم له، مذكراً لهم بحال العدم السابقة لخلقهم، وبحياتهم وموتهم، ثم بَعْثهم بعد فنائهم، ورجوعهم إليه ليحكم بينهم، ويجزيهم برحمته وعدله، ويتعرف إليهم بدليل عنايته بهم، وبقدرته عليهم، وبعلمه بهم. كما اشتملت الآيتان على أدلة: الحدوث، والعلة، والعناية.

ثانياً: خطابه تعالى لخواص عباده من أنبيائه ورسله، وتعرفه إليهم بندائهم، ووحيه إليهم، وإنزال ملائكته عليهم. ومن ذلك نداؤه لآدم أبى البشر عليه السلام، وخطابه إياه فى قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿ **يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ (الآية: 35).

وقوله من سورة طه: ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ** ﴾ (الآيات: 115، 119).

فقد نادى آدم فى الآية الأولى، وأمره أن يسكن الجنة هو وزوجه، وأباح لهما كل ما فيها من الأطعمة، ونهاهما عن الأكل من شجرة واحدة، وحذرهما من ذلك.

وفى الآية الثانية أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس امتنع، فخاطب الربُّ تعالى آدمَ مُعْلماً إياه بعداوة إبليس له ولزوجه، ومحذراً لهما من الخروج من الجنة إنْ هما أطاعا إبليس، وأكلا من الشجرة التى حرم عليهما.

ومن ذلك خطابه لنوح، ووحيه إليه، ونداؤه إياه فى قوله تعالى من سورة «هود»: ﴿ **وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ (الآية: 36).

وفى قوله تعالى: ﴿ **وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ** ﴾ (الآية: 37).

وفى قوله تعالى: ﴿ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾ (الآية:48).

ومن ذلك خطابه لإبراهيم عليه السلام، وعهده إليه وإلى ولده إسماعيل ببناء البيت العتيق، وتطهيره للطائفين والعاكفين، ونداؤه إياه، ووحيه إليه، فى قوله من سورة البقرة: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة:124).

وفى قوله: ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (البقرة: 125).

وفى قوله: ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الصافات: 104 ـ 105).

وقوله عز وجل: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ ﴾ (النساء: 163).

ومن ذلك نداؤه تعالى لموسى عليه السلام، وإعلامه بأنه ربه، الذى لا إله إلا هو، وأمره إياه بعبادته، وبإقام الصلاة لذكره، وسؤاله إياه عما فى يمينه وإجابة موسى له ؛ وأمره تعالى له بإلقاء العصا فى حديث ممتع جميل تَمَّ لموسى مع ربه جل وعلا بجانب الطور، وذلك فى قوله تعالى من سورة طه: ﴿ يَا مُوسَىٰ (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (13) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ (الآيات:11-14).

وفى قوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (20) قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (24) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (35) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (36) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (37) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (40) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41) اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا

لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ (الآيات: 17 - 47).

ومن ذلك نداؤه لداود عليه السلام، وإخباره إياه باستخلافه له ؛ وأمره إياه بالعدل والحكم بالحق، ونهيه إياه عن اتباع الهوى فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (ص: 26).

ومن ذلك استجابته لأيوب لما دعاهُ لكشف ضره، فكشفه عنه، وأعطاه ما فقده من أهل ومال، وأرشده إلى استعمال الماء غسلاً وشرباً لشفائه من مرضه، وأفتاه فى يمينه حتى لا يحنث فيها، وذلك فى قوله تعالى من سورة ص: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (الآيات: 41 ـ 44).

ومن ذلك نداؤه تعالى لزكريا عليه السلام، وتبشيرُه إياه بيحيى لَمَّا سأله الولدَ، وإعطاؤه الآية على ذلك فى قوله تعالى من سورة مريم: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ (الآية: 7).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ (مريم: 10).

ومن ذلك نداؤه لعيسى ابن مريم عليهما السلام، وخطابُه إياه، وتذكيره بنعمته عليه وعلى والدته، وتأييدُه بروح القدس، وإخبارهُ بأنه متوفيه ورافعهُ إليه، فى قوله عز وجل من سورة المائدة: ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (الآية: 110).

وفى قوله من سورة آل عمران: ﴿ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ (الآية: 55).

ومن ذلك نداؤه لمحمد ﷺ، وخطابُه إياه، وإرسالهُ، وأمره، ونهيه، وإرشاده له، وتعليمه فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم، كتابه الذى أنزله عليه، وجعل هداية أمته فيه، كقوله تعالى من سورة المائدة: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (الآية: 67).

وقوله تعالى من سورة الأحزاب: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (الآيتان: 45، 46).

وقوله عز من قائل: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ (الآيات: 1 ـ 3).

وقوله من سورة الجاثية: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ (الآيتان: 18، 19).

ثالثاً: نداؤه تعالى لعباده المؤمنين، وأمرُه إياهم، ونهيه لهم، وإخبارُهم. وذلك في قوله من سورة آل عمران: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا ﴾ (الآيتان: 102، 103).

وفي قوله من سورة الحج: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ (الآيتان: 77، 78).

وفي قوله من سورة الزخرف: ﴿ يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ (الآيات: 68 ـ 70).

رابعاً: اصطفاؤه للرسل وإرسالهم إلى الناس يبلغون عنه شرائعه وأحكامه، ويبشرون أولياءه برحمته، وينذرون أعداءه من نقمته.

ومن ذلك إرساله نوحاً عليه السلام في قوله تعالى من سورة نوح: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الآيات: 1 ـ 4).

ومن ذلك إرساله هوداً، وصالحاً عليهما السلام إلى كل من عاد، وثمودَ، كما في قوله تعالى من سورة هود: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا (1) إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (الآيتان: 50 ـ 51).

وقوله: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (هود: 61).

ومن ذلك إرساله إبراهيم، ولوطاً، وشعيباً، وموسى، وعيسى عليهم السلام، كما جاء ذلك

(1) أي على إبلاغهم، وتعليمهم توحيد الله تعالى بعبادته وحده دون غيره.

في قوله تعالى من سورة الحديد: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (الآية: 26).

وفي قوله من سورة الصافات: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ [1] (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [2] (الصافات: 133 ـ 138).

وفي قوله من سورة الأعراف: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: 85).

وفي قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ (هود: 96 ـ 98).

كما أرسله إلى بني إسرائيل قومه ؛ إذ جاء ذلك في قوله تعالى من سورة الصف: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الآيتان: 5 ـ 6).

ومن ذلك إرساله محمداً ﷺ وهو خاتم النبيين (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، وفي قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الآية: 158).

وقوله من سورة الأحزاب: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا (٤٧) وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ (الآيات: 45 ـ 48).

إن هؤلاء الرسل جميعاً ـ وغيرهم كثير ـ قد أوحى الله تعالى إليهم وعرفهم بنفسه فعرفوه، وأرسلهم إلى أممهم فبلغوهم رسالاته باسمه ودعوا إليه بإذنه، واستنصروه فنصرهم، وسألوه العظائم من المعجزات فأعطاهم. فهل بعد هذا يطالب عاقل بالدليل على وجود الله تعالى، ووجوب الإيمان به. وبمعرفته، وعبادته، والتقرب إليه ؟ ! اللهم لا، اللهم لا.

---

(1) أي وقت الصباح وهو النهار.

(2) أي ما حل بهم من الهلاك فتعتبروا به.

خامساً: ما أنزله تعالى من كتب بطريق الوحى المباشر حيث أنزل صحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى، وفرقان محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

فهذه الكتب قد تلقاها المرسلون وحياً وأوحاها اللّه تعالى إليهم، وتلقاها أتباع أولئك الرسل عن رسلهم، ولم يشكّ أحد منهم فى أنها وحى اللّه، وكتبه أنزلها على رسله، وفيها أمره ونهيه، وإخباره ووعده، ووعيده، وشرائعه، وأحكام دينه، وإن كان قد طرأ على بعضها فساد بالتحريف، والزيادة والنقص، فإن القرآن الكريم كتاب محمد ﷺ[1] وهو أحدثها نزولاً، لم يزل غضّاً طريّاً كما نزل، لم ينقص منه حرف، ولم يزد فيه آخر، وهو آية صدق نبوة صاحبه الأمى الذى لم يقرأ، ولم يكتب، ولم يجلس بين يدى أستاذ قط. وقد اشتمل كتابه ﷺ -القرآن- على علوم ومعارف بهرت العقول، وأخذت بالمشاعر والقلوب فما من علم من العلوم الإلهية، والإنسانية إلا وذُكر فيه طرف منه وأشير إلى دقيقة من دقائقه، أو جليلة من جلائله. فسبق[2] الزمانَ بإشاراته إلى شتى العلوم، والمخترعات العصرية، فذكر الذرة[3]، ونظام الزوجية[4] فى كل أجزاء الكون وذراته، كما أشارَ إلى اتساع الكون[5] وكروية الأرض[6]، وذكر مبادئ الصحة[7]، ووضع قواعد العدل فى الحكم[8]، وأسس الآداب الرفيعة والأخلاق البشرية الفاضلة، الشيء الذى لم تعهده البشرية فى كتاب غيره[9].

فهذا الكتاب العظيم حوى من العلوم الإلهية، والكونية، والقانونية التشريعية فى كل مجالات الحياة ما لم يَدَّع أحد من الخلق أنه قوله وكلامه، أو تركيبه وتأليفه، وكل ما فى الأمر أنه نزل على بشر هو أكمل البشر طهراً وصفاء، وصدقاً وأمانة، وعدلاً ورحمة.

---

(1) فإن قيل: هل تصح إضافة الكتاب إلى محمد ﷺ؟ قلنا: نعم، لإضافة كتاب موسى إليه فى قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ (الأحقاف:12).

(2) الضمير المستتر يعود على القرآن.

(3) فى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزلزلة:7).

(4) فى قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ (الذاريات:49).

(5) فى قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات:47).

(6) فى قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ (الزمر:5).

(7) فى قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (الأعراف:31).

(8) فى مثل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء:58).

(9) وذلك بمثل قوله -عز وجل- من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:90).

فما مصدر هذا الكتاب، ومَنْ أنزله ؟ فهل يَحسن السكوت عن الجواب ؟ أو يحسن الكذب والمغالطة فنقول: فاض به وجدان محمد الأمى كما يقول المضللون !! أو ماذا عسى الإنسان العاقل أن يقول ؟ إنه لا جواب صحيح غير الاعتراف بأنه تنزيل الله، وكتاب الله، ووحىَ الله، ولازم ذلك أن الله منزله موجود، وأنه عليم قدير، وعزيز حكيم. وأن من نزل عليه هو نبى الله ورسوله، وأن كل ما جاء فى هذا الكتاب حق، وصدق، وعدل. وأن الهداية البشرية متوقفة ـ لا محالة ـ عليه، وأن السعادة الإنسانية منوطة بالإيمان به، والأخذ بما فيه.

سادساً: ما آتى الله عز وجل رسله من معجزات خارقة لسنن الكون، وقوانين الحياة تدليلاً على صدق نبوتهم وثبوت رسالتهم، ومن ذلك: معجزة إبراهيم أبى الأنبياء، وإمام الموحدين ـ بلا منازع ـ حيث ألقى به خصوم الحق والتوحيد من المشركين والجاحدين، ألقوه فى أتون جحيم تخلصاً منه، ونقمة عليه، فخرج منها بحمد الله تعالى ولم تحرق النار سوى كتافه الذى شُدت به يداه، وقيدت به رجلاه، فكانت معجزة خارقة لقانون الأجسام القابلة للاحتراق إذا ألقيت فى النار، أو أشعلت فيها. (1)

ومن ذلك معجزات موسى عليه السلام التى لا ينكرها إلا مكابر «سوفسطائى »، ولا قيمة له بين عقلاء البشر، فإن انفلاق البحر لمرور أمة بكاملها عليه، واجتيازه لم يكن إلا إحدى الخوارق التى يطأطئ لها الإنسان رأسه إجلالاً وإعجاباً(2). وإن تفجُّر اثنتى عشرة عيناً، تشرب من كل عين منها قبيلة بكامل أفرادها، لخارقة لا يملك العقلاء عندها إلا التسليم بها. (3)

ومثلهما العصا التى يلقيها موسى باسم الله فتنقلب حية تسعى، وتهتز كأنها جان، وتلقف كل الباطل أمامها. (4)

ومن ذلك معجزات عيسى عليه السلام، كإبرائه الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله تعالى، وكَتَكَلُّمِه فى المهد فى أيام ولادته الأولى. (5)

---

(1) ثبت هذا بالقرآن كلام الله، إذ يقول تعالى فى حكاية دعوة إبراهيم عليه السلام قومه: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء: 68-69).

(2) جاء هذا فى قول رب العالمين: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ (64) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ (الشعراء: 63-65).

(3) قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ (البقرة: 60).

(4) قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف: 107).

(5) قال الله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ (المائدة: 110).

ومن ذلك ما أوتى محمد رسول الله ﷺ من معجزات كالعروج به إلى الملكوت الأعلى(1)، ورد عين قتادة بعد أن سقطت متدلية على وجنته(2)، ونطق جذع النخلة، وحنينه إليه(3)، وسلام الحصى،(4) والشجر عليه(5)، وفيضان الماء من بين أصابعه في صحراء قاحلة لا ماء بها حيث سقى وشرب وتطهر جيش بأكمله، عدد أفراده ألف وأربعمائة فرد(6)، وكل هذه المعجزات له وغيرها قد شاهدها عشرات المئات من الناس، ممن هم أكمل الناس صدقاً ومعرفة، وصلاحاً، بحيث تواطؤهم على الكذب يُعَدُّ مستحيلاً عقلاً.

فهذه المعجزات ـ وكل واحدة خارقة لنظام السنن الكونية ـ فهل تدل على غير وجود الله ربّاً وإلهاً ذا صفات متناهية في الكمال؟؟؟

اللهم إنها لا تدل إلا عليك، ولا تُعَرِّف إلا بك يارب العالمين، وإله الأولين والآخرين، سبحانك أن تخفيك ألسنة الجاحدين.

والآن فليقل المنصفون: بمن يجب أن يؤمن العقلاء: أبإله يخلق ويرزق، ويدبر، يحيى ويميت، ويضر وينفع، ينزل الكتب، ويرسل الرسل، ويضع الشرائع والقوانين، ويهدى ويضل، ويسعد ويشقى، يوالى ويعادى، ويحب ويبغض، ويعطى المعجزات ويهب الكرامات، له تسعة وتسعون اسماً وصفة كلها أسماء حسنى وصفات عليا، يُكلم ويَعْلَم، ويسمع ويجيب، يرفع ويضع، يُعزّ ويُذلّ، يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الظلم والعدوان ؟؟؟

أم يؤمن بطبيعة ميتة عمياء صماء بكماء لا إرادة لها ولا اختيار، لا تسمع دعاء، ولا تجيب نداء، لا تحب ولا تكره، لا تضر ولا تنفع، لا تعلم ولا تكلم، لا تنزل كتباً ولا تبعث برسول، ولا تشرع ولا تقنن، لا تهدى ولا تضل، لا اسم لها ولا صفة، سوى الحدوث والموت، والصمم والبكم والعمى ؟!!!

ألا، فليقولوا لنا !!، أما نحن فقد آمنا بالله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان

---

(1) ثبت الإسراء والمعراج فى الصحيحين وغيرهما من كتب السنة بالتواتر مع ذكره فى سورة الإسراء بالقرآن. راجع اللؤلؤ والمرجان (1/ 35-39)، والبخارى (1/ 92-94)، فى مواضع أخرى تبلغ تسعة مواضع، وكذا مسلم فى (1/ 99-107)، وفى موضع آخر.

(2) ورد هذا فى سيرة ابن هشام فى الحديث عن غزوة أحد (3/ 33).

(3) نطق عذق النخلة ثبت عند الترمذى فى كتاب المناقب. باب رقم 9 وحديث رقم (2632)، أما حنين الجذع فقد جاء فى صحيح البخارى (2/ 11).

(4) راجع الترمذى. كتاب المناقب. باب (8). حديث (3630).

(5) ذكره مسلم فى (8/ 58، 59).

(6) راجع البخارى (7/ 148).

عرشه على الماء، خلق آدم من تراب ونفخ فيه من روحه، وخلق ذريته من ماء مهين، خلق كل شيء وملكه، خلق بقدرته ودبر لحكمته، أنزل الكتب وأرسل الرسل، يدعى فيجيب، ويسأل فيعطى، ويستنصر فينصر ،يهدى من يشاء برحمته، ويضل من يشاء بعدله، فبمعرفته ومحبته تثلج الصدور، وتمتلىء النفوس بالسعادة والحبور. لا أُنْسَ بغير ذكره، ولا سعادة بغير طاعته، الحياة بدون الإيمان به موتٌ، والوجودُ بغير عبادته عدم ،رضاه أملُ الآملين، وغاية العاملين، لا نرضى بغيره بدلاً، ولا نبغى عن طاعته حولاً، معرفته ومحبته جنة القلوب، لا نصب فيها ولا لغوب.

اللهم كما وهبتنا الإيمان بك، وهديتنا إلى معرفتك، فسخرنا لطاعتك، امنن علينا بمحبتك، وأكرمنا بولايتك، وألبسنا ثوب عافيتك، واخلع علينا حُلل رضوانك، آمين.

أسماء الله تعالى وصفاته

المؤمنون بالله تعالى ليسوا على درجة واحدة فى معرفة أسماء الله تعالى وصفاته، إذ منهم من لم يعرف الله تعالى إلا لكونه خالقاً، مدبراً، حكيماً، ذا إرادة واختيار، إليه منتهى الكمال، والجلال، والجمال، وذلك، لأنهم آمنوا بالله تعالى، وعرفوه بواسطة النظر والاستدلال، والقياس العقلى، وهى الهداية العقلية مجردة عن هداية الدين الشرعية.

ومنهم من عرف الله تعالى بصفات الخلق، والإرادة، والتدبير، والحكمة، وبانتهاء الكمال، والجلال، والجمال إليه تعالى، وعرفه بجميع أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وأهل هذه المعرفة هم أهل الهدايتين العقلية النظرية، والدينية الشرعية، لأن من أسمائه تعالى ما لا يُعْلَم إلا عن طريق الوحى الإلهى فقط. فالله أعلم بأسمائه وصفاته من خلقه، وأنبياء الله ورسله أعلمُ بذلك من غيرهم ممن لم يهتدوا بهداية الوحى الإلهى من سائر الناس.

وحذراً من الكذب على الله تعالى، وخوفاً من تكذيبه تعالى، ولا سيما وقد توعد الله تعالى مكذبيه والكاذبين عليه فى قوله من سورة الزمر: ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ** ﴾ (الآية: 32).

فإن المؤمنين بالوحى الإلهى، العارفين بأسماء الله تعالى وصفاته يلتزمون حيال أسمائه عز وجل وصفاته بمبدأين، لا يجيزون الخروج عنهما بحال من الأحوال، لما يؤدى إليه الخروج عنهما من تكذيب الله تعالى أو الكذب عليه، والعياذ بالله تعالى من ذلك كله.

المبدأ الأول: أن لا يُسَمُّوا الله تعالى باسم له لم يُسَمِّ به تعالى نفسَه فى كتابه أو على لسان

رسله عليهم السلام، فهم إذا دَعَوه دَعَوه بأسمائه الحسنى حيث انتدبهم لذلك فى كتابه بقوله من سورة الأعراف: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف: 180).

وإذا نعتوه وعَرَّفوا به نعتوه بصفاته، وعَرَّفوه بأفعاله وآياته الدالة عليه جل جلاله، وعظم سلطانه.

والثانى: أن لا يُشَبِّهوا اللّه تعالى فى ذاته، ولا صفاته، ولا أفعاله بذوات المخلوقين، ولا بصفات المحْدَثين ولا بأفعالهم ؛ لاستحالة وجود شَبَه لله تعالى عقلاً وشرعاً. أما الشرع: فقد أخبر تعالى في غير موضع من كتابه بنفى الشبيه له والكفؤ، فقال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الشورى: 11).

وقال عز وجل: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾.

وأما العقل: فإن خالق المادة لا يكون مادة، وما لم يكن مادة فكيف تشبهه المادة، وهل يُشَبَّه ما ليس بمادة بما هو مادة ؟ فلذا قضى العقل باستحالة أن يُشَبَّه الخالق بمخلوقاته.

ومن هنا، فالمؤمنون يصفون ربهم بكل ما وَصَف به نفسَه فى كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ولا يتحرجون من ذلك أبداً.

فيقولون: إن اللّه يسمع ويبصر، ويحب ويبغض، وخلق بيديه، واستوى على عرشه، ويجيء لفصل القضاء، وينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، وكلَّم موسى، وذلك لأمور.

أحدها: أنه ما دام تعالى قد وصف نفسه بهذه الصفات، ووصفَه بها رسوله ﷺ وهو أعلم الناس به تعالى لم يَبْقَ إذاً من معنى للتحرج فى وصفه تعالى بذلك ؛ إذ لو لم يكن ذلك جائزاً ومشروعاً لَنَهَى عنه تعالى فى كتابه، وحرَّمه على لسان رسوله ﷺ ، كما حرم تكذيبه والكذبَ عليه، ووصفه بما هو براء منه من سائر الأوصاف والنقائص المنافية للكمالات الإلهية كأن يكون له صاحبة أو ولد، أو شريك فى الملك، أو وليٌّ من الذل.

وثانيها: أنهم عندما يصفون ربهم بصفاته التى وصف بها نفسه، أو وصفه بها رسولهُ ﷺ ، هم يعلمون يقيناً أن هذه الصفات محال أن يكون شيء منها يشبه صفات المخلوقين للفرق الكبير، والبَوْن الواسع بين الخالق والمخلوق، فإذا وصف اللّه تعالى نفسه بأن له يداً، ووصفه المؤمن بها: فليس معنى ذلك أن يد اللّه تشبه يد الإنسان، وأن المؤمن يخطر على باله أن شَبَهاً ما بين يد الخالق ويد المخلوق، لا، واللّه، لأن الفرق بين يد اللّه تعالى الخالق، ويد الإنسان المخلوق كما بين ذات اللّه الخالق، وذات الإنسان المخلوق، وإذاً فلا مشابهة بين يد الخالقَ ويد المخلوق البتة، ولذا فالمؤمنون لا يؤولون صفات اللّه تعالى، ولا يُحَرفونها، أو يعطلونها خوفاً من

التشبيه؛ لأنهم يعلمون أن الشَّبَهَ بين صفات الخالق وصفات المخلوق مُحالٌ عقلاً وشرعاً، ولا واقع له فى الخارج أبداً، ولذا هم يَعُدُّون من الكذب والباطل أن يُشَبه المرءُ الخالقَ عز وجل بالمخلوقين، أو يُشَبِّه صفاته تعالى بصفاتهم، وذلك كأن يقول: يدُ اللّه كيد الإنسان، أو عين اللّه مثل عين الإنسان، أو استواء اللّه على عرشه كاستواء الإنسان على عرشه مثلاً !، إذ هذا كله ومثْلُه: باطلٌ لا واقع له فى الخارج أبداً، وهو كذب بحت، وافتراء مَحض، وذلك لقضاء العقول باستحالة وجود شبه ما بين الخالق والمخلوق فى الذات، والصفات والأفعال.

وثالثها: أن العقول السليمة لا تُحيل إطلاق لفظ صفة لذات من الذوات، وبإطلاق ذلك اللفظ لتلك الصفة على ذات أخرى مع انعدام الشبه تماماً بين الصفتين، وبين الذاتين الموصوفتين بهما، وذلك كلفظ «الرأس» فإنه يُطْلق على المال والإنسان، فيقال: رأس المال، ويقال: رأس الإنسان، ولا شبه بينهما البتة ؛ وذلك لانعدام الشبه بينَ الذاتين الموصوفتين بهما، وهذا لفظ «العينَ» يطلق إطلاقات فيقال: عين الشمس، وعين الماء، وعين الحيوان، ولا شبه بين تلك الذوات التى أطلق عليها لفظ «العين» المشترك بينها إلا فى مجرد الاسم فقط.

وأخيراً، فهداية المؤمنين فى هذه العقيدة عقلية ودينية، فالعقلية: هى استحالة إدراك كُنْه ذات الله تعالى، وكنه صفاته ؛ لأن ذات الرب تعالى ليست مادة فَتُدْرك، وصفاتُه من ذاته، وَمتى استحال إدراك كُنْه الذات استحال كذلك إدراك كنه الصفات. والدينية الشرعية: هى إخباره تعالى بأنه ليس كمثله شىء، وأنه لم يكن له كفواً أحد، وأن الخلق لا يحيطون به علماً، مع وصفه تعالى لنفسه بصفات شتى ذاتية: كالسمع والبصر، واليد، والعين، والرضا، والغضب، والحبِّ والسخط، وفعلية: كالمجىء، والنزول، والخلق باليد، والاستواء على العرش، وما إلى ذلك مما ورد من الصفات فى الكتاب الكريم والسنة الشريفة معاً.

خلاصة: وخلاصة هذا البحث فى باب الأسماء والصفات الإلهية، هى أن المؤمنين المهتدين يؤمنون بأسماء اللّه تعالى وصفاته ؛ إذ بهما تمت معرفتهم له تبارك وتعالى، ويدعون اللّه تعالى بأسمائه، ويصفونه بصفاته غير مُشَبِّهين صفاته بصفات المخلوقين، ولا مؤولين لها ولا مُعَطلين، ومع اعتقادهم الراسخ بأن اللّه ليس كمثلَه شىء، وبالعجز الكامل فى إدراك كُنْه ذاته تعالى أو كُنْه صفاته الذاتية والفعلية على حد سواء.

وبذلك سَلموا من تكذيب ربهم، ومن الكذب عليه، ونجوا تبعاً لذلك من العذاب المتوعَّد به من كذَّب اللّهَ تعالى أو كذب عليه فى قوله تعالى: ﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ** ﴾ (الزمر:32).

بـراءة واعـتـذار !!

اللهـم إنى أبرأ إليك منْ كـفـر كل مَنْ كـفـر بـك، ومنْ إلحـاد كل مَنْ ألحـد فى أسـمـائك أو صفاتك، ومن شرك كل مَن أشرك بك فى ربوبيتك أو ألوهيتك.

وأعـتـذر إليك من كل اسـتـدلال استدللتُ به عـليك، ومن كل قـيـاس عـقلى وضـعـتـهُ تدليلاً على وجودك، وأنت مُوجد كل موجـود، ومن كل برهان أتيتُ به على إثباتك، وإثبات جلالك وكمالك، ومن كل دليل مادى سَقتُه لأثبتَ به وجودك ؛ لأنك يا ربى أنت الدليل على وجـودك، والبرهان على جلالك وكمالك، فكيف يصح طلبُ الدليل للدليل، والإتيان بالبرهان على البرهان ؟؟

قـــالوا ائتنـا بـبـــرهـان فـــقـلتُ لـهـم أنَّى يَقُـــوم عـلى البــــرهـان برهـانُ

اللهـم، إنا ـ كـلُّ عـبـادك المؤمنين بك ـ قـد عـرفناك بك، ولـم نعـرفك بغـيـرك، إنك أنت الذى تعـرفتَ إلينا بنعـمك وآلائك علينا، وبنور الإيمـان الذى جعلتَ فى قلـوبنا، فعـرفناك ربنا، ورب كل العالمين، وإلهنا، وإله الأولين والآخرين.

اللهـم، إننا لـم نـعـرفك ـ وأنـت تعلـم ـ بقـيـاس، ولا تطلُّب منّاً لك والتـمـاس، وإنما عـرفناك بما فطرتَ نفوسنا عليه من الإيمان بك، والافتقار إليك، والتوكل والاعتماد عليك. فطرنا بوجودك ناطقة، وأحوالُنا المتبدلة المتغيـرة بكمالك شاهدة ! هيـهات هيهات يا ربنا أن تُعـرفَ بالقياس(1)، وأنت رب الناس، وملك الناس، وإله الناس، أو أن تُثْبَت بالدليل وأنت خالق المستدلِّ والدليل.

اللهـم إن شـفـيـعى عندك، ووسـيلتـى إليك فى العـفـو عنى، مـا قـد علمتـه منى من شـعـور(2) بالحياء والخجل، وأنا أدلل عليك وأبرهن على وجودك، وأنت الظاهر الذى لا يخفى، والموجود الذى به قام كلُّ الوجود !

---

(1) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله تعالى) فى كتاب توحيد الربوبية من فتاواه: أن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قيل له: بماذا عرفت ربك؟ فقال: من طلب دينه بالقياس لم يزل دهره فى التباس، خارجاً عن المنهاج، ظاعناً فى الاعوجاج، عرفته بما عرف به نفسه، ووصفته بما وصف به نفسه. وذكر أيضاً أن شيخاً عارفاً قيل له فى ذلك فقال: عرفت الأشياء بربى، ولم أعرف ربى بالأشياء. مجموع فتاوى ابن تيمية (2/ 18).

(2) حقاً لقد كنت أشعر بشعور غريب لم أستطع أن أعبر عنه إلا بأنه ضرب من الحياء والخجل، وما فى معناهما، وذلك أثناء كتابتى للبحوث المتعلقة بوجود الله تعالى والإيمان به فى هذه الرسالة، لا سيما عند الاستدلال والنظر، والقياسات العقلية، إذ كان يهاجمنى شعور باطنى فطرى بأن الله تعالى لا ينكر وجوده، ولا يقوى على إنكار وجوده أحد، وكيف نرضى بالحياة أن نقبلها خالية من الله والإيمان به؟ وكيف؟؟!!

التوحيد

ما هو التوحيد ؟

التوحيد: مصدر وحد الشيء، يوحده توحيداً: إذا أفرده، ونفى عنه التعدد. والتوحيد في عرف الشرع نفي الكُفء والمثل عن ذات الله تعالى وصفاته، وأفعاله، ونفي الشريك في ربوبيته، وعبادته عز وجل. قال تعالى في نفي الكفء: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

وقال في نفي الشَّريك في الربوبية: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ﴾ (الرعد:16).

وقال: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ (يونس:31).

وقال في نفي الشريك في العبادة: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ (محمد:19).

وقال: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام:162).

ومن هنا كان التوحيد ثلاثة أقسام: توحيد في الذات، والأسماء والصفات، وتوحيد في الربوبية، وهي اختصاصه تعالى، وتفرّده بالخلق، والرزق، والتدبير لسائر الخلق والملكوت، وتوحيد في الألوهية، أي في العبادة، وهو اختصاصه تعالى بسائر العبادات، وتفرده بها دون سائر مخلوقاته سواء من كمل منهم وشرف كالملائكة والأنبياء، والصالحين، أو كان دون ذلك من سائر الناس والمخلوقات.

وقد تقدم قريباً بحث توحيد الذات، والأسماء والصفات، وسيفرد كل من توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية ببحث خاص، تبين فيه حقيقته، وما ينبغي للمؤمن أن يعلمه منه، ويعتقده فيه.

توحيد الربوبية

ما هو توحيد الربوبية ؟

لابد للإجابة عن هذا السؤال إجابة كافية تحدد المعنى المسئول عنه، وتُظْهره بوضوح، لابد من معرفة مدلول كلمة (الرب) التي منها اشتق لفظ الربوبية، إن لفظ «الرب» يطلق على عدة معان، منها السيد، والمالك، والمربي والمصلح، والمعبود بحق سبحانه وتعالى ؛ إذ لفظ الرب يطلق عليه إطلاقاً حقيقياً. ويطلق على غيره إطلاقاً مجازياً، إضافياً لا غير.

ومن هذه المعانى الكثيرة للفظ «الرب» اشتق اسم الربوبية التى تعنى الخلق، والرزق، والملك، والسيادة، والتربية، والإصلاح، والتدبير. ولكون اللّه تعالى هو الرب الحق للعالمين، اختص بالربوبية دون سواه، ووجب توحيده فيها، وامتنع عنه الشريك فيها، بحيث لا تصلح الربوبية لغيره من سائر خلقه ولا تصح.

ومن هنا أصبح توحيد الربوبية معناه نفى الشريك عنه تعالى فى صفات الربوبية الحقة، والتى هى الخلق، والرزق، والملك، والتدبير الذى من لوازمه الإماتة والإحياء، والعطاء والمنع، والضر والنفع، والإعزاز والإذلال. ولا يُخلُّ بتوحيد الربوبيةَ، أو يضرَّه أن يقال: فلان رب الدابة، أو فلان سيدَ قومه، أو فلان يملكَ كذا، أو فلان يربى، أو يصلح، أو يحكم ؛ إذ هذا الإطلاق لا يعنى أكثر من أن اللّه تعالى رب كل شىء، ومليكه، وهبهم من فضله ما أصبحوا منه يتمتعون بهذا القدر من الملك أو السيادة، أو التربية والإصلاح، وهى نسب إضافية لا غير ؛ إذ الواقع المشاهد لا يثبت للإنسان ملكاً حقيقياً، ولا سيادة من كل وجه، ولا تربية زائغة عن الإرشاد والتوجيه، ولا إصلاح ولا حكم بغير إنفاذ شرائع اللّه تعالى فى عباده، وإصلاحهم بها.

فطرية الإقرار بالربوبية:

وعقلاء الناس فى كل زمان ومكان يتحاشون دائماً أن ينسبوا شيئاً من صفات الربوبية لغير اللّه تعالى، الرب الحق الذى لا رب غيره، ولا إله سواه، وذلك لما يعلم الإنسان العاقل ذو الفطرة السليمة من عدم صلاحية المخلوقين للاتصاف بصفات الربوبية، وعجزهم عنها ؛ لأن المخلوق لا يخلق، والمملوك لا يملك.

ويكفى شاهداً على هذه الحقيقة اعترافُ مشركى العرب حين نزول القرآن وهم يدعون إلى عبادة اللّه تعالى وحده، اعترافهم بعدم صلاحية آلهتهم لشىء من صفات الربوبية وحقائقها، مع شدة تعصبهم لتلك الآلهة، وتقديسهم لها، وتعظيمهم ؛ فإنهم كانوا لا يترددون فى الاعتراف بعدم صلاحية الإنسان فضلاً عن غيره من التماثيل والأصنام، للاتصاف بصفات الربوبية، فلم يكونوا ينتحلونها لأفرادهم، ولا لآلهتهم، ولا يدعونها لهم بحال، وذلك لما وقر فى نفوسهم بحكم الفطرة البشرية من عجز المخلوقين عن الخلق، والرزق، والتدبير، والملك.

وقد سجل القرآن الكريم عجزهم واعترافهم فى غير آية منه، ومن ذلك قوله تعالى من سورة يونس: ﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ** ﴾ (الآية:31).

وقوله سبحانه من سورة الزخرف: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ (الآية: 9).

وقوله من سورة المؤمنون: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ (الآيتان: 86-87).

وقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (الزخرف: 87).

الإلحاد الشيوعي:

ويضاف إلى تلك الحقيقة حقيقة أخرى، وهي أنه لم يعرف الإلحاد بإنكار الخالق عز وجل بين أجناس البشر قاطبة إلا في القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر الميلاديين، وبخاصة عندما ظهر المذهب الشيوعي الماركسي اللينيني المدمر، والذي نكبت به أوروبا وأنحاء كثيرة من العالم ؛ فإنه وإن كان هناك كفر بالله تعالى، وشرك به بين الأمم والشعوب البشرية، غير أن الشعور الفطري قائم في كل نفس بالاعتراف بوجود سلطان غيبي هو سلطان الله تعالى، والناس يتوسلون إليه بشتى الوسائل استجلاباً للخير منه، ودفعاً للشر بواسطته. إن كل الآلهة التي أوجدها الإنسان باطلاً، وقدم لها مختلف العبادات، وتقرب إليها بشتى القُرب، الأصل فيها الشعور الفطري بوجود الله، الخالق، المدبر للخلق، والكون معاً.

عوامل الإلحاد في العالم:

إن العوامل التي ساعدت على انتشار الإلحاد في العالم، ومكنت للمذهب الشيوعي الإلحادي المدمر في أوروبا وغيرها قد تكون كثيرة، غير أن أهمها عندي وفي نظري خمسة لا غير: وهي:

1 ـ ظلم الكنيسة النصرانية، وتحالفها مع الملوك النصارى على استعباد الشعوب النصرانية، واستذلالهم، واستغلالهم باسم السلطة الروحية الدينية.

2 ـ فساد الديانة النصرانية، وبطلانها، ومنافاتها للعقول، وتصادمها مع حاجات الإنسان الفطرية، الأمر الذي يسهل على الناس من أتباعها التنكر لها، والكفر بها بمجرد وجود من استطاع أن يفلت من زمامها، وينتقدها، ويبين خطأها.

3 ـ طفرة العلوم الكونية، والصناعية والآلية، طفرة أدهشت العقول وحيرتها، الأمر الذي حمل الناس على تصديق كل نظرية تأتي باسم العلم ونظرياته، وإن كانت النظرية فرية ظاهرة معلوم كذبها، ومعروف كاذبها ؛ وذلك لأن المرء إذا ضعف أمام أية قوة مادية أو روحية يفقد كل قواه العقلية والبدنية، ويصبح قابلاً لكل ما تمليه عليه، مستجيباً لكل ما تدعوه إليه، مصدقاً لكل ما تقوله وتخبر به.

4 ـ مَيل الإنسان بطبعه إلى الشهوات والملاذ، ونفوره من القيود، والأنظمة التى تحد من ميوله، وتوجهَ غرائزه، لا سيما إذا وجد مُشجعاً على ذلك، مؤيداً له فى نزعته التحررية الإباحية، التحللية من كل القيود الأخلاقية، والالتزامات الدينية الشرعية.

5 ـ غيبة الحكم الإسلامى، وخفوت نور الإسلام، وتقلص ظل سلطانه الروحى، وانحسار مَدِّه الخيرى الذى كان يعطى البشرية فى شتى أنحاء العالم طاقات كبيرة من القيم الروحية، والأخلاق البشرية الفاضلة الكريمة؛ إذ الفترة التى ظهر فيها المذهب المادى الشيوعى كان الإسلام قد ران على عقائده رين الخرافات والضلالات، وحل بدياره الدمار، وبأسواق علومه ومعارفه الكساد والبوار، نتيجة لكيد أعدائه له، وغفلة بنيه عنه، فوجد لذلك المذهب الإلحادى الجو خالياً للتضليل، والمغالطة، والفساد، فحكم على الأديان كلها بالبطلان، ونسب كل ضَعف فى الناس إليها، وكفر بها وحاربها، ووجه نقده إليها بلا هوادة.

أما والله لو وجد الإسلام حاضراً ما غاب، فوجد اختراعاته، وتفوقه فى كل مجالات الحياة العلمية، من كونيه، وتقَنية، وتشريعية، وروحية، ووجد عدله فى شعوبه، ورحمتهم فى الناس أجمعين، ووجد سعادته تغمر أهله، وتتعداهم إلى خصومهم وأعدائهم، لما أمكن المذهب الإلحادى أن يقول، فضلاً عن أن يجول أو يصول، ولكن الأمر كما قال القائل:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها   مصائب قوم عند قوم فوائد

هذه خمسة عوامل، كل واحد منها ساعد على نشر المذهب الإلحادى المدمر الذى يجتاح العالم اليوم، وقد يحول البشرية إلى حيوانية من أحط ما تكون الحيَوانية إن لم يعارض بسرعة، ويوقف عند حده.

وإنى لا أرى أن مذهباً فى العالم، أو قوة ستعارضه، وتوقفه عند حده فضلاً عن أن تبدده، وتقضى عليه، اللهم إلا أن يكون الإسلام، والإسلام وحده، إذا ما رزق دولة عظيمة، تؤمن به فى صدق، وتطبقه بحزم وعزم وتعطيه الحكم والقيادة، فإن هذه الدولة سوف تحل عقدة الإلحاد المستعصية وترى الناس زيف النظريات الإلحادية، وإدعاءاتها الباطلة ضد دين الله الحق.

أوروبا هى الضحية الأولى:

وبما أنّ أوروبا هى التى جرَّت هذه المحنة على العالم الإنسانى، فإنها ستكون قطعاً هى الضحية الأولى للإلحاد الشيوعى، وقد كانت فعلاً ـ وحتى لَا نكون قد تجنينا عليها فى هذا فإنَّا نقول: إنه بعد أن ظهر الإسلام، وعرفت أوروبا فى الجملة صلاحيته لهداية البشر، وإعدادهم للحياة الفاضلة، وسعادة الدُّنيا والآخرة، بَدَلَ أن تعتنقه ديناً، وتحتضنه مبادئ خيرٍ، وسعادة،

وإسعاد، قاومتهُ ووقفت فى طريق تقدُّمه وانتشاره، ومن العجيب أنها حاربته باسم الدِّين المسيحىِّ والنصرانيَّة كأنها لم تدر أنَّ الإسلام هو دينُ اللّه الحقّ الذى أرسل به نبيَّه محمداً ﷺ إلى البشرية كافَّةً. وأما المسيحيَّة فلم تكن سوى دين إقليمىٍّ محلىٍّ فقط ؛ لأن عيسى عليه السلام لم يكن رسولاً إلى غير بنى إسرائيل أبداً. فقد قال هو بنفسه: «لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة»(1). وقال عنه القرآن الكريم: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (الصف: 6).

أما محمدٌ ﷺ فهو رسول اللّه إلى الناس كلهم أجمعين بدليل قوله هو ﷺ: «وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة»(2). وقول الربّ تعالى له: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: 158).

وقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ (سبأ: 28).

وقوله: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: 1).

والأغرب من هذا أن اليهود الذين حاربوا السَّيدَ المسيح وألجأوا حوارييه إلى رؤوس الجبال، والذهاب فى كلِّ منأى بعيد فراراً بدينهم، هم الذين وضعوا الديانة النصرانية الباطلة، التى حاربت أوروبا الإسلام من أجلها. إن اليهود يبدو أنهم لما رأوا مبادئ السيد المسيح تنتشر فى شرق أوروبا طاردوها، فتمسح من تمسح منهم خديعة وغشّاً حتى تمكن من العبث بالدين المسيحى وتحويله إلى دين وثنى يبرأ منه المسيح الذى قال فى مهده:

﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ (مريم: 30). وقال وهو نبى ورسول: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (المائدة: 72).

وليس أدل على ذلك من أن الإنجيل الواحد قد حُوِّل إلى عدة أناجيل(3).

أقول: إنه بعد أن تجلى لأوروبا صلاحية الإسلام، وأنه رحمة اللّه العامة للناس أجمعين أبيضهم وأسودهم، ولم يكن دين العرب وحدهم، ولا دين الآسيويين دون الأفارقة، أو الأوروبيين ؛ بل هو دين البشرية كلها حيث كانت ووجدت.

(1) إنجيل «متى» الإصحاح (15) فقرة (24).

(2) رواه البخارى ومسلم مطولاً، اللؤلؤ والمرجان (1/ 104).

(3) بلغت الأناجيل بعد تحريفها خمساً وثلاثين إنجيلاً. ثم اختير منها خمسة أناجيل، وهى المتداولة الآن عند فرق النصارى فى أنحاء العالم.

أقول بعد أن ظهرت لأوروبا صلاحية الإسلام لهداية الناس أجمعين، بدل أن تقبل عليه، وتحتضنه وتسعد به، وتسعد الناس به أخذت تحاربه، وتحارب المؤمنين به، والمتبعين لمنهجه، فشنت حروباً صليبية لا هوادة فيها، وأخرى استعمارية لا رحمة فيها، وقضت بها على الخلافة الإسلامية بعد أن استعملت أسلوب اليهود فى المكر والدس والخديعة، لإفساد العقيدة الإسلامية، فتعاونت سراً وعلانية مع الزنادقة والباطنية، والمتصوفة والطريقيين، ومع سائر الفرق الإسلامية المنحرفة، الضالة، ممن يحسبون على الإسلام وهم أشد أعدائه فتكاً به، وإفساداً له، وقضاءً عليه.

وأخيراً:

وبعد أن قررت أوروبا التخلى عن مستعمراتها الإسلامية لعدم الجدوى لها فى بقائها فيها، صنعت على عينها وبيدها رجالاً من مستعمراتها ملء إهاب أحدهم عداوة للإسلام، وحنقاً عليه، وتقززاً منه، واستخفافاً به، وبمبادئه وشرائعه، وسلمتهم السلطة المحلية، وخرجت من الباب لتعود من النافذة، وتجلس على عرش قلوب أولئك الصنائع لتسخرهم عملاء لها، يواصلون نيابة عنها حربهم للإسلام وأهله، وكذلك كانوا وفعلوا حتى لم يبق من الإسلام إلا الاسم، ومن كتابه إلا الرسم.

وبناء على الحكمة القرآنية القائلة: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر: 43). فإن أوروبا ستذوق فى يوم من الأيام أقسى محنة، وستتجرع أعظم غصة، نتيجة جريمتها على الإسلام دين الله الذى هو دينها، ولا دين لها على الحق سواه، وما ظلمها الله فيما سيصيبها به، ولكن كانت هى الظالمة.

* * *

شرك الربوبية
ومظاهره فى الأمة الإسلامية

قد يبدو غريباً جداً ـ بعد أن قدمنا أن مشركى العرب أيام البعثة المحمدية لم يكونوا يشركون فى ربوبية اللّه تعالى أحداً من خلقه ـ اعترافنا بوجود مظاهر لشرك الربوبية فى الأمة الإسلامية اليوم، غير أن هذا الاستغراب سيزول بمجرد وقوف المرء على مظاهر الشرك واضحة جلية فى شتى مجالات حياة كثير من المسلمين.

وهنا بيان مقتضب لتلك المظاهر الشركية فى بعض أفراد الأمة الإسلامية نذكرها تحذيراً منها، وتعليماً بأن عقيدة المؤمنين الحقة خلو من كل مظاهر الشرك، وآثاره، لابتنائها على هدى الكتاب والسنة، كتاب اللّه وسنة رسول اللّه ﷺ.

1 ـ اعتقاد كثير من عوام المسلمين وأشباههم أن هناك فى الكون أقطاباً، وأبدالاً من الأولياء والصالحين لهم قدر من التصرف معين فى حياة الناس ؛ فهم يولون ويعزلون، ويعطون ويمنعون، ويضرون وينفعون، كما شاع بين عوام المسلمين أن لهؤلاء الأقطاب والأبدال ديواناً يطلق عليه ديوان الصالحين، منه تصدر القرارات والمراسيم بربح فلان ونجاحه، وخيبة فلان وخسرانه.

ومن هنا تعلقت قلوب كثير من الناس بالصالحين، وهتفت بهم الألسنة، واستغيث بهم، ودعوا عند الشدائد، ونودوا للخلاص من المحن، وهو مظهر واضح للشرك فى الربوبية، لما فيه من اعتقاد التصرف والتدبير فى الكون لغير اللّه تعالى، أو له ولغيره معه سبحانه وتعالى.

2 ـ اعتقاد كثير من المنتسبين إلى العلم أن لأرواح الأولياء والصالحين تصرفاً بعد موتهم، وشاع هذا الاعتقاد الكاذب الباطل، ورسخ فى نفوس كثير من المسلمين حتى أصبحت الأضرحة والمشاهد والقبور ملاذاً لكل خائف، ومستشفى لكل مريض. فمن أصابه كرب، أو نزل به ضيم، أو حلت به نكبة، فزع إلى تلك الأضرحة، والمشاهد، والقبور، وأناخ بساحتها، وتعلق بأهداب أصحابها، راجياً منها تفريج كربه، وقضاء حاجته !

فكم من مريض نقل إلى تلك الأضرحة، وذهب به إليها، وكم من ذى عاهة، أو صاحب حاجة قد أمّها، وقصدها، ونزل بساحتها، وكله رجاء وطمع فى أصحابها، حتى شاع بين العوام قول: «إذا تعسرت الأمور، عليكم بأصحاب القبور» فيأتونهم للاستعانة بهم، والدعاء عندهم. ومثل هذا لا يشك عاقل من المؤمنين فى أنه شرك ظاهر ؛ لما فيه من اعتقاد أن لأرواح الأولياء والصالحين تصرفاً بالعطاء والمنع، والضر والنفع.

وهذا من خصائص الربوبية ؛ إذ هو من التدبير للخلق الذى اختص به الرب تبارك وتعالى.

3 ـ الرهبة من الجن والخوف منهم، والاستغاثة بهم، وتقديم القرابين لهم، كالتى تذبح على حافات الآبار عند حفرها، وعلى أعتاب المنازل عند إتمام بنائها، وإرادة السكن بها، وكالتى تذبح عند انتشار الأوبئة، والأمراض المعدية. كل هذا موجود بين جهال المسلمين وهو شرك ظاهر فى ربوبية اللّه تعالى ؛ إذ الحامل عليه اعتقاد أن الجن لهم تصرفات خارجة عن إرادة اللّه تعالى وتدبيره.

وهذا مما ألقاه الشيطان فى قلوب أوليائه من الإنس فعملوا به، وأشاعوه، ونشروه حتى أصبح عقيدة فى نفوس الجهال من المسلمين.

وهو إشراك لشياطين الجن فى ربوبية اللّه تعالى، وإيمان بهم والعياذ باللّه تعالى.

4 ـ تقديس المشايخ من رجال التصوف والطرقيين، والمشعوذين، وطاعتهم فى غير طاعة اللّه تعالى وطاعة رسوله، بل فيما هو مكروه لله ورسولهﷺ ، وقبول ما يشرعون لهم من البدع، وما يسنون لهم من سنن الباطل، واتباعهم فى ترك سنن الهدى، ومعاداتها، ومعاداة أهلها، والداعين إليها، والاستجابة المطلقة لهم بحيث يمكنونهم من نفوسهم فيتسلطوا عليها، ومن أرواحهم فيهيمنوا عليها، فاعتقدوا فيهم أنهم يعلمون سرهم ونجوامم وأنهم يكاشفونهم فى كل أحوالهم، ويطلعون منهم على كل مخبآت نفوسهم، فذلوا لهم، وهانوا، وضعفوا أمامهم، واستكانوا لهم حتى مكنوهم من أنفسهم، وأموالهم، وأعراضهم.

فهل هذا الخضوع، والذل، والطاعة المطلقة، والتسليم التام لهم لا يُعد شركاً فى ربوبية اللّه تعالى، وهل أولئك الرجال الذين استعبدوهم لا يعدون أرباباً وآلهة لهم ؟!

5 ـ الخنوع للحكام غير المسلمين، والخضوع التام لهم، وطاعتهم بدون إكراه منهم لهم، حيث حكموهم بالباطل، وساسوهم بقوانين الكفر والكافرين، فأحلوا لهم الحرام، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم فى كل ذلك، ولم ينكروا عليهم، ولم يرفضوا لهم.

إن الاتصاف بهذا الذى ذكرنا، والقيام عليه، والرضا به، والاقتناع بصحته شرك ظاهر فى ربوبية اللّه تعالى؛ لأن الطاعة فى معصية اللّه تعالى بدون إكراه عليها كفر بصاحبها، ويشهد لهذا ويصححه حديث عدى بن حاتم الطائى الذى كان قد تنصر فى الجاهلية، ثم أسلم، وسمع الرسولﷺ يقرأ قول اللّه تعالى فى شأن أهل الكتاب: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ (التوبة:31). فَأَنْكَرَ عَدىٌّ أَنْ يَكُونوا عَبَدُوهُمْ، فَقَالَ لَهُ الرسولﷺ : «**أليسوا يحلون لكم الحرام**

فتحلونه ؟ ويحرمون عليكم الحلال فتحرمونه ؟ فقال: بلى. قال النبىﷺ : فتلك عبادتهم» (رواه أحمد والترمذى وحسنه).

وأخيراً: فتلك بعض مظاهر شرك الربوبية فى الأمة الإسلامية اليوم، وإن تساءلنا عن أسبابها فإنا لا نجدُ بُداً من القول بأنها كانت نتيجةَ جَهْل الأمة بكتاب ربها وسنة نبيها، وذلك لبعدها عن دراستهما، والعمل بهما زمناً غير قصير، مع ما دسه عليها خصومُ إسلامها، الحانقين عليها والنَّاقمين منها، مما أفسد عقيدتها، وبَعُدَ بها كل البعد عن مركز القوة وهو العلم والإيمان.

توحيد الألوهية

إن توحيد الألوهية ـ العبادة ـ جزء هام من عقيدة المؤمن ؛ إذ هو ثمرة توحيد الربوبية، والأسماء والصفات، وجَنَاهُ الطَّيِّبُ، وبدونه يفقد توحيد الرُّبوبية، والأسماء والصفات معناه، وتنعدم فائدته.

إن توحيد الربوبية يدور على المعرفة بالله وربوبيته ونفى الشريك له فى ذلك، كما أن توحيد الأسماء والصفات يدور على إثبات أسماء الله تعالى وصفاته، ونفى الشريك فى الأسماء، وعدم التمثيل، والتأويل، والتعطيل فى الصفات.

وأما توحيد الألوهية: فهو إفراد الله تعالى بالعبادة المستلزم لعبادة الله تعالى بكل ما شرع أن يُعبدَ به من أعمال القلوب والجوارح، وأن لا يشرك معه غيره فى شىء منها، مع عدم الاعتراف بعبادة غيره تعالى. وهو أيضاً ـ توحيدُ الألوهيَّة ـ تعلق القلب بالرب تعالى خوفاً ورجاءً، ورهبة وطمعاً، كما هو إسلام الوجه لله تعالى، ووقف الحياة كلها عليه، فلا شىء للعبد هو لغير الله تعالى، بدليل قول الله تعالى من سورة الأنعام: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ (الآيتان: 162، 163).

بهذا أُمر رسول اللهﷺ أن يقول ويجاهر به، وبمثله أمر إبراهيم عليه السلام، إذ قال: ﴿ **يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ (الأنعام:78، 79).

إن لهذا التوحيد ـ توحيد الألوهيَّة ـ شأناً وخطراً، وينبع عن ذلك أنَّ كافَّةَ الرُّسل الذين بعث الله تعالى بهم إلى الأمم والشعوب كان كل واحد منهم يبدأ دعوته حينما يبدؤها بقوله: ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ سورة الأعراف الآيات (59، 65، 73، 85) وسورة هود الآيات (50، 61، 84).

وهو مضمون كلمة «لا إله إلا الله» التى جاء بها خاتم النبيين والرُّسل محمد ﷺ، ودعا إلى قولها واعتقادها، ولم يطالب بغيرها طيلَة عشر من السنين، ومن أجلها عُودىَ، وأوذىَ، وحُورب، كما عودى، وأوذى، وحورب، كلٌّ من دعا إليها من جميع الرسل وأتباعهم، وذلك لأنَّ قولها واعتقادها يستلزم الكفر الكامل بكلٍّ ما عبد الناس من آلهة دون الله سبحانه وتعالى، وعرفوها بعد فَقدهم لهداية الله تعالى بموت الأنبياء، وانقراض أهل العلم العارفين بالله تعالى وشرائعه فيهم، يُضَافُ إلى ذَلك أنَّ كلمة التَّوحيد: «لا إله إلا الله» تقتضى بل وتوجب المساواةَ بين الناس فى الحقوق والواجبات، فلم يبق بين النَاس من يتميز عنهم ميزةً يستعلى بها عليهم فيترفعُ ويتكَبرُ، أو يستعبد الناس أو يتحكم فيهم، أو يحكمهم بغير شرع ربهم، كما جاء مضمون ذلك فى كتاب رسول الله، إلى هرَقْلَ ملك الروم.

ونصه بعد البسملة والديباجة: «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: أن لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله» (أخرجه البخارى: 1/ 97، 4/ 54ـ57).

ومن هنا كانت الخصومات تبلغ أشدها بين الرُّسل وأممهم، لما تدل عليه عبادةُ الله تعالى وحده من الكفر بكلّ معبود سوى الله تعالى، وترك عبادته، والبراءة منه. كما قال تعالى فى كتابه من سورة المجادلة: ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ** ﴾ (الآية: 22).

وكما أخبر تعالى عن خليله إبراهيم والمؤمنين معه وهو يدعونا إلى الاقتداء بهم فى الوقوف ضد الشرك والمشركين –حيث يقول تعالى: ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ** ﴾ (الممتحنة:4).

إنَّ مدلولَ كلمة «لا إله إلا الله»: الإيمان بالله وحده بأن يُعبدَ ولا يُشركَ به شيءٌ من خلقه. والكفرُ بكل طاغوت صارف عن عبادة الله تعالى، وطاعته وطاعة رسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ (النحل: 36).

والطاغوت هو كل ما عبد من دون الله، أو صرف عن عبادة الله تعالى من معبود رضى لنفسه بأن يُعبد مع الله تعالى، أو متبوع، أو مطاع فى غير طاعة الله ورسوله ﷺ .

هذا ولكى نوفى توحيد الألوهية ما يستحق من البيان والتوضيح لخطورة شأنه، فإنه لابد من شيء من التفصيل والتطويل. فنقول إن توحيد الألوهية أو العبادة، له طرفان وواسطة:

فالطرف الأول: مخلوق ضعيف محتاج لا يبرح دهره باحثاً عمّا يقوى ضعفه، ويجلب له ما ينفعه، ويدفع عنه ما يضرُّه، وهذا المخلوق الضعيف المحتاج هو الإنسان.

والطرف الثانى: هو ربٌّ قوىٌّ غنىٌّ، سميع عليم، عزيز حكيم، وهو الله المعبود بحق سبحانه وتعالى.

والواسطة: هى أقوال وأعمالٌ واعتقادات يحبها الله تعالى ويرضاها، وهى العبادة التى يقوم بها العبد طاعة لله تعالى وتقرباً إليه. وبناءً على أنَّ توحيد العبادة هو إفراد لله تعالى بالعبادة التى هى جميع ما أحب اللّه تعالى أن يُعبد به من أعمال القلوب والجوارح، كما سبق بيانه وعلى ضوء هذا التعريف يتقرَّر ما يلى:

(1) الإنسان بحكم الضعف المتأصل فيه، وافتقاره اللازم له، لا يخرج عن وصف العبودية بحالٍ من الأحوال، ولذا فإنه لم يُرَ فى جميع أطواره التاريخية، وعصوره البشرية إلاَّ عابداً لا ينفكُّ عن العبادة، إما لله تعالى متى عرفه، وآمن به رباً وإلهاً، أو لغيره من شتى الكائنات التى يتصور فيها القدرة الكافية على جلب الخير له، ودفع الشر عنه، عندما يجهل ربه، ولا يؤمنُ به إلهاً ومعبوداً، لعامل اقتضى ذلك منه.

(2) لا يصح عقلاً ولا شرعاً أن يُعبد غير اللّه تعالى، ولا تنبغى العبادة إلا له سبحانه وتعالى، وذلك لأنه لا يوجد فى الكون قوىٌّ غنىٌّ، سميع عليم، عزيز حكيم، قوته وغناه، وسمعه وعلمه، وعزته وحكمته ذاتية له ليست مستمدة له من ذات أخرى إلا اللّه سبحانه وتعالى، ونوضح هذا المعنى فنقول: إن الإنسان وهو سيد هذه المخلوقات، وأشرفها وأفضلها على الإطلاق جميع كمالاته الخَلقية والخُلقية، أو الجسمانية والروحية ليست ذاتية له، بل هى موهوبة له من خالقه ذى الجلال والكمال المطلق لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ودليل كون الإنسان كل كمالاته موهوبة له، وليست ذاتية له، أنهُ يخلق يوم يخلق فاقداً لها، ثم توهب له، ولبعض أفراده دون بعض، ومن وهب منهم ذلك قد يُسلبه أحياناً، فقد يُرى الإنسان عاقلاً، ثم يصير أحمق، وقد يكون قادراً ثم يعجز، ويكون غنياً، ثم يفتقر. فدل ذلك على أنَ كمال الإنسان ليس ذاتياً له، وإنما هو موهوب له ؛ فهو لذلك لا يبرح عبداً ضعيفاً مفتقراً إلى واهبه كماله، وَهو اللّه سبحانه وتعالى. أما الرب تبارك وتعالى فإن كماله ذاتىٌّ له. وبهذا يتقرر أن العبادة لا تصح إلا لله، ولا تنبغى لأحد سواه.

(3) إن العبادة لا تكون قُربة لله تعالى ووسيلة إليه ينتفع بها العبد فاعلها إلا إذا توفر لها: العلم بها، ومعرفة كيفية أدائها، وإفراد اللّه تعالى بها فلذا لا تتصور فى الذهن عبادة نافعة إلا من ذى علم وإيمان. فالعلم يحصل للمرء بالإيمان بكتاب اللّه تعالى. وبقراءته ومعرفة ما جاء فيه ومعرفة كيفية أداء العبادة يتم بالإيمان بالرسول ﷺ ، وبمعرفة سنته، واتباعه فيها، وإفراد اللّه تعالى بالعبادة يثبت للعبد بمعرفة الشرك وتجنبه، ولهذا يتحتم أن نختم هذا البحث المتعلق بتوحيد الألوهية بفصل ضاف نبين فيه الشرك فى

العبادة، ومظاهره اليوم فى الأمة الإسلامية ؛ ليكون القارئ المؤمن على بصيرة فى عقيدته، وتلك هى الغاية التى توخيناها فى وضع هذه الرسالة «عقيدة المؤمن»، والله ولى الأمر والتوفيق.

الشرك فى الألوهية
ومظاهره فى الأمة الإسلامية

تعريف:

الشرك لغة: الاسم من شركه فى كذا يشركه شركاً وشركة، كأشركه فكذا يشركه فيه إذا جعل له نصيباً قليلاً أو كثيراً فى ذات، أو معنى، ومثله شاركه فىَ كذا يشاركه فيه: كان شريكاً له فيه بقدر كبير أو صغير فى ذات، أو وصف، وهو ـ الشرك ـ شرعاً: ضد التوحيد كالكفر ضد الإيمان.

والشرك فى ربوبية الله تعالى أو أسمائه وصفاته كفر، وفى عبادته تعالى إن كان الفاعل له عالماً به مصراً عليه كفر كذلك ؛ إذ الشرك فى ربوبية الله تعالى وأسمائه وصفاته تكذيب لله تعالى، وكذب عليه عز وجل، وفى عباداته تعالى تأليه لغيره سبحانه وتعالى، وتأليه غير الله تعالى كفر، وتكذيب لله تعالى فى قوله: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ (آل عمران: 18).

وفى قوله: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ (محمد: 19).

وتكذيب الله تعالى كفر بلا شك.

ويختلف الشرك مع الكفر فى أن من الشرك ما لا يكون كفراً، وذلك كالشرك الأصغر، والشرك الخفى، لخبر الرسول ﷺ فى ذلك وسماعه من بعض أصحابه، ولم يعتبر فاعله كافراً، ولم يحكم بردته، من ذلك قوله ﷺ : «إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: **وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال: الرياء**»[1] وقوله لمن قال له: ما شاء الله، وشئت: «**أجعلتنى لله نداً ؟ قل: ما شاء الله وحده**»[2]، والندُّ: الشريك. وقوله لأصحابه لما قالوا: قُومُوْا بنَا نَسْتَغيثُ برسول الله ﷺ منْ هذا المنَافق: «**إنه لا يستغاث بى وإنما يستغاث بالله**»[3] وقوله ﷺ: «**من حَلَف بغير الله فقد أشَرك**»[4]. وَقَوله ﷺ : «يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب

(1) رواه أحمد بإسناد جيد، وتمام الحديث: «يقول الله تعالى إذا جزى الناس بأعمالهم: **اذهبوا إلى الذين كنتم تراقبون فى الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء؟**» المسند (5/ 428/ 429).

(2) رواه أحمد بلفظ: «**أجعلتنى والله عدلاً**..» (1/ 214، 224، 283، 347)، وانظر الفتح الربانى (1/ 38)، وروى ما يدل على معناه فى الدارمى وابن ماجه وكذا أحمد (5/ 72، 393)، والفتح الربانى (1/ 27، 28).

(3) رواه أحمد (5/ 317)، والطبرانى بسند لا بأس به، وروى مسلم هذا اللفظ «**من عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه**» وهذا الحديث قدسى (8/ 223).

(4) رواه الترمذى (نذور / 9) وحسنه، والحاكم.

النمل» فقيل له: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول اللّه ؟ قال: «**قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه**».(١)

ولم يحكم ﷺ فى كل هذا بردة فاعله، ولا بتكفيره، ومن أجل هذا قيدنا الكفر فى شرك العبادة بكون فاعله عالماً به أنه شرك، وأصر عليه عناداً ومكابرة، وإيثاراً للمنافع الدنيوية من مال، أو جاه، أو سلطان. ولكى يتضح الموضوع أكثر يحسن أن نذكر هنا جملاً من الكلام على ذات اللّه وصفاته، وأفعاله، وعباداته مبينين كيف يكون التوحيد، وكيف يكون الشرك والكفر فيها.

(أ) الذات المقدسة:

إن الكلام على ذات الرب تبارك وتعالى معناه تقرير حرمة التفكر فيها، ومحاولة إدراك كنهها، ومعرفة حقيقتها، لما ثبت شرعاً من النهى عن ذلك، ولاستحالة إدراك ذات اللّه تعالى عقلاً ؛ لأن اللّه تبارك وتعالى ليس كمثله شىء، ولم يكن له كفواً أحد، ولا تدركه الأبصار. ولا تكتنه كنهه العقول. إن مدى ما تصل إليه العقول، وتدركه من الأشياء هو ما كان من جنس المادة المحيطة بها، والرب تبارك وتعالى ليس منها ؛ لأن المادة شىء معلوم التكوين، واللّه ليس كمثله شىء، والمادة المعروفة لدى الإنسان، وهو الخالق لها سبحانه وتعالى، والخالق لا يكون جزءاً من مخلوقه، كما لا يكون شبيهاً له بَحال من الأحوال. ولهذا كانت عقيدة المؤمن فى ذات اللّه تعالى أنها ذات مقدسة لا تشبه الذوات، وأنها موصوفة بصفات عليا لا تشبه الصفات، وأن اللّه تعالى سمى نفسه بأسماء حسنى، ووصف نفسه بصفات عليا، وأمرنا أن نناديه بأسمائه، وندعوه، ونتوسل إليه بها وبصفاته العليا فقال تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾ (الأعراف:180).

فنحن نناديه، وندعوه بها، ونتوسل إليه بصفاته العليا، فيسمعنا، ويستجيب لنا.

هذه عقيدة المؤمن فى ذات اللّه تعالى فمن شبَّه ذات اللّه تعالى بذات المخلوقين، أو ادعى إدراك كنهها، ومعرفة حقيقتها، أو تكلم فيها بما لا علم له من كتاب اللّه، وسنة رسوله ﷺ ؛ فقد كفر وأشرك.

(ب) صفات الله تعالى وأسماؤه:

إن اللّه تبارك وتعالى وصف نفسه فى كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ بصفات عليا، وتعبد المؤمنين بالإيمان بها، وبوصفه بها توسلاً إليه وتقرباً، وسمى نفسه تعالى بأسماء حسنى، فوجب الإيمان بذلك وقبوله، وإطلاقه عليه تعالى على ما هو مراده منه، فمن نفى عنه ما وصف به نفسه، وسماها به من أسماء فقد كفر، ومن شبَّه تلك الأسماء والصفات بأسماء وصفات المحدثين فقد كفر وأشرك، إذ

(١) رواه أحمد (4/ 403) وكذلك الطبرانى.

هو يتردد فى ذلك بين تكذيب اللّه تعالى والكذب عليه، وكليهما كفر شنيع وظلم عظيم!

ومن أوَّلَ تلك الصفات الإلهية العليا رائماً(1) تنزيهه تعالى، فقد أخطأ، وجهل، وتكلف ما لم يُكلف به، وفعل ما لم يؤمر به. ذلكَ كتأويل يد اللّه بقدرته فراراً من وصف اللّه تعالى بلفظ اليد، وكتأويل مجيئه تعالى لفصل القضاء بمجيء أمره، أو ملك من ملائكته فراراً من وصف اللّه تعالى بالتحول والانتقال الذى تبادر إلى أذهان المؤولين. وكتأويل استوائه تعالى على العرش بالاستيلاء فراراً من وصف اللّه تعالى بالاستواء على عرشه. وكتأويل صفة العلو بالقهر فراراً من وصف الجهة والتحيز، إلى غير ذلك من التأويل الذى عُرف به أكثر علماء الخلف، ولم يعرف به أحد من علماء السلف.

وبيـان ذلـك:

أولاً: أن المؤول لم يرض لله تعالى ما رضيه له أعرف الناس به وهو رسوله ﷺ .

ثانياً: أن هذا التأويل لو أراده تعالى لنفسه لأمر به فى كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ ولكان حينئذ التأويل لصفات اللّه تعالى واجباً دينياً يحرم إهماله، ويأثم تاركه. غير أنه لما لم يأذن اللّه تعالى به كان فعله خطأ وتكلفاً مذموماً محرماً، لما فيه من معنى الاستدراك على اللّه تعالى وعلى رسوله ﷺ .

ثالثاً: أن المؤول لصفات اللّه تعالى فراراً من التشبيه، وخوفاً منه قد جهل حقيقة عظيمة هى استحالة وجود أى شبه بين صفات اللّه تعالى وصفات عباده؛ إذ لا شبه بين صفات الخالق وصفات المخلوق أبداً، لما أخبر تعالى من أنه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير، وأنه أحد، ولا كفؤ له، ولهذا لو قال أحد: يد اللّه كيد زيد أو عمرو، ومجىء الرب تعالى كمجىء خالد أو بكر، واستواء اللّه على العرش كاستواء الملك فلان أو فلان لكان مشبهاً للخالق بالمخلوق، وهو فى ذلك كاذب؛ إذ الواقع يختلف عما قال تماماً، ومكذب لأنه كذب اللّه تعالى فى قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (الشورى:11).

ومشرك كافر، لتشريك بعض عباد اللّه فى بعض صفات اللّه تعالى .

رابعاً: أن هذا المؤوِّل لصفات اللّه تعالى فراراً من التشبيه، وخوفاً منه قد خفى عليه الفرق العظيم بين صفات الخالق جل وعلا، وبين صفات المخلوقين العاجزين الضعفاء، إنه لو علم أن الفرق بين صفات الخالق وبين صفات المخلوق، كالفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق، لما توهم تشبيهاً، ولما لجأ إلى التأويل، فلهذا لنا أن نقول: إن المؤول لصفات اللّه تعالى خوفاً من الوقوع فى التشبيه، قد فهم أنه يوجد شبه ما بين صفات الخالق عز وجل وصفات المخلوق فلهذا هرب منه

(1) رائماً: أى طالباً.

فأوّل صفات الخالق حتى لا تشبه صفات المخلوق، أما غير المؤول فإنه لم يسمح لخاطره أن يقدر أى شبه بين صفات الخالق وصفات المخلوق، لاستحالة وجود أى شبه بها واقعاً فأطلق صفات الخالق عليه، كما أطلقها على نفسه، وأطلق صفات المخلوق عليه، كما أطلقت عليه شرعاً، وعادة، وعرفاً، وبذلك سلم من الخطأ، والتكلف، والجهل، وبالتالى من الشرك والكفر.

(جـ) عباداته تعالى:

قبل بيان عبادات اللّه تعالى، وكيف يُوحد اللّه تعالى فيها نذكر أن اللّه تعالى لم يخلق الثقلين الإنس والجن فى هذا العالم الأرضى إلا لعبادته بذكره، وشكره، وحسن عبادته، دل على هذا قوله عز وجل فى كتابه: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾ (الذاريات: 56 ـ 58).

ولبيان أنواع العبادات، وكيف يُعبد بها أنزل الكتب، وبعث الرسل فكانت بذلك عبادات اللّه توقيفية لا تعلم إلا من طريق الوحى: الكتاب والسنة، وكان من عبد اللّه تعالى بغير ما شرع لعباده أن يعبدوه به غير عابد لله وإنما هو عابد لهواه، أو للشيطان الذى أغواه، ومن عبد اللّه بما شرع لعباده أن يعبدوه به لكنه أشرك فيه غيره من مخلوقاته ؛ فقد أشرك وكفر، والسؤال الآن هو: ما هى العبادات التى شرعها اللّه تعالى لعباده ليعبدوه بها، ولا يشركوا معه غيره فيها ؟

والجواب: أنها موجودة فى الكتاب والسنة، مودعة فيهما، فمنهما تُطلب وبهما تعرف، وها نحن نذكر جملة كافية من أنواع العبادات مبينين وجه كل من التوحيد والشرك فيها توضيحاً لعقيدة المؤمن، واستكمالاً للبحث فيها مبتدئين بالعبادات التى هى من أعمال القلوب منتهين بالعبادات التى هى من أعمال الجوارح.

(أ) أعمال القلوب:

إن المراد من أعمال القلوب هو العبادات التى يقوم بها قلب العبد، وذلك كالإيمان، والمحبة والخوف والخشية، والرجاء، والرغبة، والإنابة، والتوكل، وهذا بيانها مفصلاً:

(١) **الإيمان:** وهو تصديق القلب بوجود اللّه تعالى، وربوبيته لكل شىء، وألوهيته للأولين والآخرين مع التصديق بكل ما أمر اللّه تعالى بالإيمان به واعتقاده، من الملائكة، والكتب، والرسل، والمعاد، والجزاء، والنعيم، والشقاء، والقدر والقضاء، لأمر اللّه تعالى بذلك فى قوله: ﴿ **آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا** ﴾ (النساء: 136).

وبناء على هذا فإن عبداً يعترف بربوبية لغير اللّه تعالى، أو بألوهية لسواه عز وجل فقد كفر وأشرك.

(٢) **المحبة**: وهى حبُّ اللّه تعالى وحب كل من يحب من عباده، وما يحب من عقائد عباده، وأقوالهم وأعمالهم، وذلك لقول اللّه تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ (البقرة: 165).

وقوله: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (آل عمران: 31).

وقول الرسول ﷺ: «**اللهم ارزقنى حبك، وحب من ينفعنى حبه عندك، اللهم ما رزقتنى مما أحب فاجعله قوة فيما تحب، وما زويت عنى مما أحب فاجعله فراغاً لى فيما تحب**»[1]، وعليه فمن أحب اللّه تعالى، وأحب من يحب من عباده، وما يحب من اعتقاداتهم، وأقوالهم وأفعالهم، ولم يشرك فى هذا الحب أحداً فقد وحد اللّه تعالى فى هذه العبادة، ومن أحب غير اللّه تعالى حباً لم يأذن فيه اللّه تعالى، ولم يشرعه لعباده بل نهى عنه، أو حرمه كحب ما يُعبد من دون اللّه تعالى، وحُبِّ الرؤساء، وحب الدنيا حباً يجعل المحب على طاعة المحبوب فى معصية اللّه تعالى، ومعصية رسوله ﷺ، وعلى تعظيمه، وإجلاله، وإكباره، والذلة له والخضوع، والخنوع، فمن أحب بهذا الحب غير اللّه تعالى فقد أشرك فى عبادة اللّه تعالى التى هى حب اللّه والحب لأجل اللّه تعالى.

(٣) **الخشية والخوف**[2]:

إن خشية اللّه تعالى، والخوف منه عز وجل مما تعبد اللّه به عباده المؤمنين، فقد أمر بخشيته، ونهى عن خشية غيره فى قوله تعالى: ﴿ **فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ** ﴾ (المائدة: 44).

كما أمر بالخوف منه ونهى عن خوف غيره فى قوله: ﴿ **فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (آل عمران: 175).

وأخبر عن جزاء من يخشونه بالغيب فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** ﴾ (الملك: 12).

فالخشية والخوف كلاهما عبادة قلبية يجب أن يُفرد بهما اللّه عز وجل، وتختص به، فمن خاف غير اللّه تعالى، أو خشيه معظماً له، مستكيناً، يذل له ويطيعه فى معصية اللّه تعالى، وهو غير مكره له على تلك الطاعة فقد أشرك باللّه فى هذه العبادة.

(1) رواه الترمذى بسند حسن، فى كتاب الدعوات (73).

(2) الفرق بين الخشية والخوف أن الخشية تكون مع تعظيم المخشى منه، والخوف يكون بدون تعظيم المخوف منه.

(٤) الرجاء والرغبة:

الرجاء هو الأمل في الخير، وترقُّب حصوله، وانتظاره ممن يملكه ويقدر على تحقيقه لمن أمله فيه ورجاءه منه، والرغبة: حب الخير وإرادته، والطمع في تحصيله ممن يملكه، ويقدر على إعطائه وهبته، فهي مثل الرجاء، وكلاهما مما تعبد الله تعالى به المؤمنين حيث قال تعالى في كتابه العزيز من سورة الكهف: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ (الآية: 110).

وقال تعالى: ﴿ **لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ** ﴾ (الأحزاب: 21).

وقال: ﴿ **وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ** ﴾ (الأنبياء: 90).

وأمر رسوله ﷺ بالرغبة إليه تعالى في قوله: ﴿ **فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ** ﴾ (الشرح:7،8).

ولما كان الخير كله بيد الله، وليس بيد أحد سواه، وكان الله وحده القادر على إعطائه من يشاء من عباده، وذلك لقوله تعالى: ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (آل عمران: 26).

كان رجاء الخير ورغبته من غير الله تعالى ضلالاً وباطلاً، وكان فاعله مشركاً في هذه العبادة القلبية غيرَ ربه عز وجل.

(٥) الإنابة:

الإنابة وهي الإقبال على الله تعالى، والتوبة إليه. والإنابة عبادةٌ أمر الله تعالى بها في قوله: ﴿ **وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ** ﴾ (الزمر: 54).

وأخبر أنه يهدي إليه من ينيب، وأمر باتباع سبيل من أناب إليه، جاء ذلك كله في كتابه القرآن الكريم.

ولما لم يكن في الخلق كله من يعطي، أو يمنع، أو يضر، أو ينفع إلا بإذن الله، ولا من يُسعد أو يُشقي إلا الله سبحانه وتعالى كان من غير المعقول ولا المقبول أن ينيب المرء إلى غير الله تعالى رغبة أو رهبة، خوفاً أو طمعاً، وكانت الإنابة إلى غير الله عز وجل باطلاً وشركاً، وكان من أناب إلى غير الله تعالى تائباً إليه ـ أي إلى ذلك الغيرَ ـ راجياً الخير منه، خائفاً من سخطه أو عقابه فقد أشرك.

٦ - التوكل:

التوكل وهو الاستسلام لله تعالى، وتفويض الأمر إليه، اعتماداً ووثوقاً به، أمر الله تعالى به في غير آية من كتابه، وجعله آية الإيمان وعلامته، فقال تعالى: ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً** ﴾ (الأحزاب: 48).

وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: 23).

وواعد بالكفاية للمتوكلين عليه فى قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق:3).

وخص التوكل به فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (إبراهيم:12).

فالتوكل إذاً عبادة قلبية وهو سكون القلب إلى كفاية اللّه تعالى، وتفويض الأمور إلى اللّه تعالى لكفايته، والاعتماد عليه تعالى لعلمه وقدرته.

ولما كان لا كافى إلا اللّه، ولا قادر على كل شىء سواه، ولا عالم بكل شىء غيره كان التوكل على غير اللّه تعالى باطلاً وشركاً، وكان المتوكل على غير اللّه تعالى سكوناً، ووثوقاً، واعتماداً مشركاً.

(ب) أعمال الجوارح:

إن ما تقوم به الجوارح من العبادات والطاعات كثير جداً، فلذا نكتفى بذكر طرف منه فقط، تذكيراً وتعليماً، وبخاصة ما وقع فيه الشرك بين المسلمين، ومن ذلك:

١ - الدعاء:

الدعاء هو سؤال الرغائب، وطلب الحاجات فى جلب نفع، أو دفع ضرٍّ ممن يملك ويقدر. والدعاء من أعظم مظاهر العبادة، وأوضح صورة من صورها حتى قيل فيه: «**الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ**» «**والدعَاءُ هُو العِبَادَة**»(1)، ومن هنا كانت العبادة بدونه ليست شيئاً، أو لا تستقيم ولا تتم إلا به، وهو كذلك؛ إذ فى الدعاء الذل للمدعُو، والافتقار إليه، والاستكانة له، وتعظيمه، واستشعاره غناءه، وإحاطة علمه بالداعى، وقدرته على إعطائه ما سأله فيه مع تمجيده، والتوسل إليه بأسمائه وصفاته، إلى غير ذلك من مظاهر العبودية التى لا توجد واضحة بهذه الصورة إلا فى الدعاء، وحال السجود، ولذا كان الدعاء فى السجود مُستجاباً، لاجتماع مظهرين عظيمين من مظاهر العبادة فيه.

ولما كان تحقيق الرغائب، وقضاء الحاجات أمراً يتوقف حصوله على أن يكون المدعو لذلك، المسؤول فيه مالكاً لجميع الرغائب وكل الحاجات، قادراً على تحقيق الرغبة وقضاء الحاجة، عالماً بحال السائل الداعى الراغب، يسمع كلامه، ويرى مكانه، ولما لم تكن هذه الصفات لتتوفر لأحد سوى اللّه عز وجل بطل أن يُدْعَى غير اللّه تعالى عقلاً وشرعاً، قال تعالى من سورة الجن: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (الآية:18).

(1) حديث حسن رواه الترمذى فى تفسير سورة البقرة (2969)، وأبو داود فى (1/ 341)، وهو صحيح، وكذا لفظ: «**الدعاء مخ العبادة**» رواه الترمذى، وسنده ضعيف.

وبهذا كان دعاء غير اللّه، وسواء كان المدعو نبياً أو ولياً ـ شركاً محرماً، وكان من يدعو غير اللّه تعالى من عباده مشركاً كافراً ظالماً جاهلاً، أو معانداً مكابراً.

٢ ـ الاستغاثة:

الاستغاثة هى طلب الغوث والغياث، وهو ما يغاث به المضطر، ويعان به من طعام، أو شراب، أو نصر وتأييد، أو خلاص من شدة وإنقاذ من محنة.

وهى أى الاستغاثة من جنس الدعاء، فمن لا يُدعى لفقره وعدم قدرته وجهله بحال الداعى، وعدم سماع دعائه، وعدم معرفة مكانه وحاله، لا يستغاث به كذلك.

ومن هنا كان من استغاث بمن لا يقدر على إغاثته ممن لا يسمع كلامه، ولا يرى مكانه، ولا يعرف حاله من حى غائب بعيد، لا يرى المستغيثَ، ولا يسمع استغاثته، أو ميت انقطع عمله من الدنيا، سواء كان نبياً من الأنبياء أو صالحاً من الصالحين، فقد أشرك بعبادة الاستغاثة غير ربه تعالى، وكان بذلك مشركاً كافراً، وليعلم المؤمن هنا أن سؤال الحى من الناس واستغاثته ـ أى طلب الغوث منه ـ إذا كان قادراً على العطاء والغوث، وكان قريباً من الداعى المستغيث يسمع كلامه ويرى مكانه، قد أذن اللّه فيه، وأباحه لعباده، ولم يجعله عبادة تخصه، يحرم إشراك غيره فيها. وهذا معلوم من الدين بالضرورة.

٣ ـ الاستعانة:

الاستعانة هى طلب العون والمعونة على قضاء حاجة، أو خروج من محنة، وهى من نوع الدعاء والاستغاثة، فلا تطلب من عاجز لا يقدر على الإعانة، ولا من ميت لا يسمع المستعين به، ولا يرى مكانه، ولا يعرف عن حاجته وحاله ولا من غائب بعيد حال البعد دون سماع الدعاء، ورؤية الداعى وإعانته على ما هو فى حاجة إلى المعونة فيه، وقد أرشد اللّه تعالى عباده المؤمنين إلى الاستعانة به دون من سواه فى قوله: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ (الفاتحة: 5).

وأوصى رسول اللّه ﷺ عبد اللّه بن عباس رضي الله عنهما أن يستعين باللّه دون سواه فى قوله: «**إذا سألت فاسأل اللّه، وإذا استعنت فاستعن باللّه**»[1].

ومن هنا كان طلب المعونة ممن لا يقدر عليها من الأحياء لعجزهم، أو غيبتهم كطلبها من الأموات لموتهم، وانقطاعهم عن الحياة، كان ضلالاً وباطلاً، وكان فاعله مشركاً باللّه تعالى فى هذه العبادة من عبادات اللّه التى لا تنبغى لأحد سواه.

---

(1) رواه الترمذى وصححه فى كتاب القيامة (59).

٤ - النــذر:

وهو التزام العبد ما لم يلزمه من الطاعات، وبعبارة أوضح هو التعهد بالقيام بشيء من العبادات تقرباً إلى الله تعالى، أو بشرط أن يقضي الله تعالى له حاجة تعسرت عليه يريد قضاءها، كأن يقول في تعهده: اللهم إن شفيتَ مريضي، أو رددتَ عليَّ غائبي؛ أو قضيتَ حاجتي في كذا ..، لك عليَّ أن أتصدق بكذا ... أو أصوم أو أصلي كذا وكذا، .. والنذر مما تعبد الله تعالى به عباده المؤمنين، قال تعالى مثنياً عليهم بالوفاء به: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ (الإنسان:7).

وقال مرغباً فيه: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ (البقرة:270).

وخير النذر ما كان بغير شرط، لكراهة النَّبي ﷺ النذْرُ المَشْرُوط في قوله: «**النذر لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من مال البخيل**»[1]. وبناء على هذا فإن من نذر لغير الله تعالى وسواء نذر لحي أو ميت فقد أشرك[2]، لأن النذر عبادة ظاهرة؛ إذ هو توجه القلب إلى المنذور له رغبة فيما عنده من الخير وهو استشعار قدرته وغناه؛ وإظهار الناذر عجزه وضعفه وافتقاره إلى من نذر إليه.

وهذا وايم الله لا يليق إلا بالله تعالى، ويا ويل أولئك الذين ينذرون إلى الأولياء والصالحين من أموات المسلمين وأحيائهم فقد وقعوا في هَلَكة وهم لا يشعرون، وأشركوا بعبادة ربهم غيرَه وهم لا يعلمون.

٥-ذبــح القــربــان:

ذبح القربان وهو ما يُتقرب به إلى الله تعالى من الذبائح كالهدى في الحج وضحايا يوم عيد الأضحى، وشاة العقيقة يوم سابع المولود، وذبائح وليمة العرس، وما يذبح صدقة على الفقراء والمساكين، كل هذا قد شرعه الله تعالى في كتابه، وعلى لسان رسوله محمد ﷺ، فكان هذا الذبح تقرباً وعبادة لا تنبغي إلا لله تعالى، ومن ذبح لغير الله تعالى معظماً له، خائفاً منه راجياً ما عنده فقد عبده بهذه العبادة وأشركه في عبادة ربه عز وجل.

وهنا يحسن التنبيه والتنديد معاً بما يفعله أهلُ الجهالات من المسلمين اليوم من ذبائح على الأضرحة والقبور في أيام الموالد والمواسم تعظيماً لمن يذبحون لهم، وتقديساً، ورغبة في شفاعتهم، وطمعاً فيهم، وتوسلاً بجاههم .

ومثل هذه الذبائح على القبور والمشاهد، ذبائح الزار، والنُّشْرة، وعلى حافات الآبار.

---

(1) متفق عليه بمعناه اللؤلؤ والمرجان (2/ 168).

(2) لا يدخل في هذا النذر المحرم وعد المؤمن لأخيه إن رزقه الله كذا فإنه يعطيه كذا أو يقرضه كذا.

وعتبات المنازل خوفاً من الجن. إن هذه الذبائح كلها شرك وكفر، والعياذ بالله تعالى من ذلك .

٦ ـ الركوع والسجود:

إن عبادة الركوع والسجود ظاهرة يزاولها المسلمون كل يوم في حياتهم، إذ هما ركنا الصلاة اللذان لا تصح الصلاة بدونهما، وقد تعبد الله تعالى بهما سائر عباده المؤمنين، فقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (الحج: 77).

وأمر مريم ابنة عمران به في إخباره عنها بقوله: ﴿ **يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ** ﴾ (آل عمران: 43).

وأمر رسوله بالسجود طلباً للقرب منه فقال: ﴿ **وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** ﴾ (العلق: 19).

ومن هنا كان الركوع وهو الانحناء، والسجود وهو وضع الوجه على الأرض عبادة لا تنبغي لأحد مهما كان شأنه إلا لله تعالى، ومن ركع لأحد أو سجد له معظماً إياه، أو طامعاً فيه، أو خائفاً منه، وليس بمكره على ذلك فقد أشرك بربه، وعبد مع الله غيره، وكان فعله شركاً أكبر، لا يغفره الله إلا أن يتوب منه قبل موته، لقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً** ﴾ (النساء: 116) .

٧ ـ الطواف بالبيت العتيق وتقبيل الحجر الأسود:

إن الطواف عبادة شرعها الله تعالى لعباده، وأمرهم بها في قوله: ﴿ **وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ** ﴾ (الحج: 29).

وعليه فمن طاف ببيت غير بيت الله من قبر ؛ أو ضريح أو مشهد أو غير ذلك معظماً لما يطوف متقرباً إليه أو به إلى غيره حتى ولو كان إلى الله تعالى، فقد ابتدع وأشرك، وطوافه ذلك شرك أكبر، وبدعة ضلالة من أشنع البدع وأقبحها، لما فيها من التشريع، وهو حق الله تعالى وحده دون سواه، وإن تقبيل الركن اليماني من البيت العتيق عبادة شرعها الله تعالى على لسان نبيه ﷺ، ولم يشرع لهذه الأمة تقبيل حجر آخر، ولا ركن ولا جدار، ولا قبر ولا ضريح، ولا تابوت، وعليه فمن قبَّل عتبة، أو جداراً، أو باباً، أو حلقة في باب، أو قبراً أو مشهداً قائماً من المشاهد فقد ابتدع، وإن فعل ذلك تعظيماً لما قبَّله وتقديساً راجياً منه النفع، دافعاً به الضُّر فقد أشرك.

٨ ـ سائر أنواع العبادات:

إن كل ما شَرَع الله لعباده من الطاعات والقربات ليعبدوه بها تقرباً إليه تعالى وتزلفاً، من

صلاة، وصيام، وحج، واعتمار ،وصدقات، وزكوات، واعتكاف، وجهاد، ورباط، وفعل خير من بر وصلة، وذكر، ودعاء، وأمر بمعروف، ونهى عن منكر، وتعليم علم وتعلمه .. كل هذه العبادات وغيرها مما شرعه الله تعالى فى كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ فعله لغير الله تعالى، وابتغاء مرضاة به غير مرضاة الله شرك فى عبادة الله تعالى يتنافى مع عقيدة المؤمن القائمة على أساس التوحيد الدالة عليه كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله.

٩ ـ ترك طاعة الله للرغبة أو الرهبة:

لقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله لقوله من سورة القتال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ**﴾ (محمد:33).

فطاعة الله، وطاعة رسوله فى الأمر والنهى عبادة تعبد الله تعالى بها المؤمنين من عباده، فمن ترك طاعتهما غير مكره من أجل أحد من خلق الله كائناً من كان رغبة فيما عنده، أو رهبة مما لديه فقد أشرك، وتركه لطاعة الله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ وهو غير مكره رغبة أو رهبة فيمن أطاعه شرك ؛ إذ الطاعة فى المعروف فقط، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

١٠ ـ تعظيم الله تعالى بالحلف به عز وجل:

إن تعظيم الله عز وجل بتكبيره، والحلف به وإجلاله تبارك وتعالى عبادة تعبد الله بها المؤمنين من عباده، فلذا لا يجوز الحلف بغيره تعالى، ومن حلف بغير الله تعالى، فقد أشرك، لما صح عن النبى ﷺ من النهى عن الحلف بغير الله تعالى، وجعل ذلك من الشرك، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، ومن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**»[1]، وقال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» وفى لفظ «**فقد كفر**»[2]، وقال: «**من حلف فقال فى حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله**» .[3]

هذا ولما كان الكثير من الشرك الذى وقع فيه بعض المسلمين اليوم إنما وقع باسم التوسل والاستشفاع والتبرك، وتحت شعارها فإننا نختم هذا الجزء من هذا البحث فى عقيدة المؤمن ببيان كل من الوسيلة والتوسل، والشفاعة والتشفع، والبركة والتبرك تبياناً للحق وهداية إليه.

(1) متفق عليه (2/ 170)، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان.
(2) رواه الترمذى، وقال: هذا حديث حسن، رواه أحمد والحاكم.
(3) متفق عليه (2/ 170) اللؤلؤ والمرجان، ومسلم (5/ 81).

الوسيلة

تعريف:

ما هى الوسيلة:

الوسيلة: لغة اسمٌ فعله وسل إليه بكذا يسل وسيلة فهو واسل، تقرب ورغب، ومثله توسل إليه بكذا توسلاً وتوسيلاً، إذا عمل عملاً تقرب به إليه، فالمتوسل والواسل بمعنى واحد، قال أبو طالب فى لاميته:

أرى النَّاس لا يْدرونَ ما قدرُ أمْرِهم   بَلَى كُل ذِى دينِ إلى اللهِ واسلُ

وتجمع الوسيلة على وسائل، كما فى قول لبيد:

ولَما رأيتُ القَومَ لا وُد فيهمو   وقَدْ قَطَعوا كلَّ العُرَى والوسَائل

ويطلق لفظ الوسيلة على المنزلة عند الملك، وعلى الدرجة والقربة، وأطلقت كذلك على أعلى درجة فى الجنة، وهى التى قال رسول الله ﷺ : «**ثم سلوا الله لى الوسيلة ؛ فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة ؛ حلت له الشفاعة**».[1]

وأما الوسيلة في الشرع فهى العمل يقدمه المؤمن بين يدى رغبته ليتوسل به إليها[2] فيفوز بمرغوبه، ويحصل على مطلوبه.

والوسيلة التى هى التقرب إلى اللّه تعالى بعمل صالح طلباً للقرب منه تعالى والحظوة لديه والدرجة عنده سبحانه وتعالى، أو لقضاء حاجة بحصول نفع، أو دفع ضر، هذه الوسيلة الشرعية مبناها ثلاثة أمور:

الأول: المتوسَّل إليه وهو اللّه ذو الفضل والإنعام.

والثانى: الواسل أو المتوسِّل وهو العبد الضعيف، المحتاج، الطالب القرب من الرب تعالى، أو الراغب فى قضاء حاجة له من جلب خير، أو دفع شر.

والثالث: المتوسَّل به وهو العمل الصالح المتقرَّب به إلى اللّه تعالى وهو الوسيلة، ولكى تكون الوسيلة مجدية نافعة يحصل بها القرب، أو تُقضى بها الحاجة ؛ لابد من مراعاة ما يلى كشروط أساسية لابد من توفرها للواسل الذى يريد أن ينتفع بوسيلته: ـ

(1) رواه مسلم (1/ 4)، تصوير المكتب التجارى بيروت.
(2) الضمير فى إليها عائد إلى الرغبة.

(1) أن يكون العبد الواسل إلى الله تعالى المتوسل إليه مؤمناً صالحاً.

(2) أن يكون العمل المتوسَّل به مما شرع الله تعالى لعباده أن يتقربوا به إليه سبحانه.

(3) أن يكون العمل المشروع قربة موافقاً في أدائه لما كان الرسول ﷺ يؤديه، فلا يُزاد فيه، ولا ينقص منه، ولا يفعل في غير زمانه الذي شُرع له، ولا في غير مكانه الذي عين له وحُدد.

فلهذا لا يكون عمل غير المؤمن قربة ولا وسيلة أبداً، كما لا تكون البدعة قربة إلى الله تعالى، ولا وسيلة إليه بحال من الأحوال. والوسيلة بهذا المعنى مشروعة مندوب إليها في كل زمان ومكان. قال تعالى في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الآية: 35).

وقال عز وجل في سورة الإسراء: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ (الآية:57).

ففي الآية الأولى أمر وترغيب للمؤمنين في طلب القرب من الله تعالى بفعل الطاعات الزائدة عن الفرائض والواجبات؛ لأن تقوى الله تعالى تتحقق بفعل المأمور، وترك المنهي، وبها تتحقق النجاة من العذاب إن شاء الله تعالى، وطلب الوسيلة وهي القرب من الله تعالى والحظوة لديه سبحانه وتعالى يكون بفعل نوافل العبادات من صلاة، وصيام، وصدقة، وحج، وعمرة، وجهاد، وبغيرها من سائر النوافل، والقرب، والطاعات. وفي الآية الثانية اخبار عن نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم النفر من الجن وعبدوا ربهم وتقربوا إليه بصالح الأعمال، والنفر من العرب لم يشعروا بإسلام أولئك النفر من الجن وبقوا يعبدونهم، فأخبر تعالى عن حالهم في هذه الآية الكريمة منبهاً إلى خطئهم، وضلالهم محذراً منه.

الوسيلة جائزة وممنوعة:

والوسيلة منها ما هو جائز، ومنها ما هو ممنوع، فالجائز منها هو كل وسيلة أذن فيها الشارع ندباً أو إباحة، والممنوع منها ما لم يأذن فيه الشارع كراهة أو تحريماً، ولا فرق في ذلك بين التوسل إلى الأمور الدنيوية، أو الأمور الأخروية، فلابد من إذن من الشارع في جواز الوسيلة، وإلا حرمت، ومن أمثلة ذلك في الأمور الدنيوية:

(1) شخص يريد أن يحصل على ثروة مالية فبحث عن وسيلة تحقق له مراده فرأى قتل أخيه الغني الذي لا وارث له إلا هو، فهل هذه الوسيلة يجوز استعمالها، للحصول على المال المطلوب؟ والجواب قطعاً: لا، لأنها وسيلة محرمة.

(2) رجل خطب امرأة فى نفسها فأبت الزواج منه فرأى أن الوسيلة أن يذهب إلى ساحر، أو دجال يكتب له حرزاً ليحببه إليها حتى تتزوجه. فهل هذه الوسيلة جائزة ؟ والجواب، لا. بل هى محرمة شرعاً.

(3) امرؤ سُرق له مال ولم يعرف سارقه، فقيل له: إن فلاناً عَرَّافاً اذهب إليه فسيكشف لك عن السارق بواسطة رئيه من الجن، فهل يجوز أن يذهب إليه ليكشف له عن السرقة بواسطة الجن ؟ والجواب، لا، لأن هذه الوسيلة محرمة .

(4) رجل مرض له أخوه فعالجه فلم يبرأ، فقيل له: اذهب إلى الضريح الفلانى، واستشفع بصاحبه، وناده واستغث به فإن أخاك يبرأ من مرضه. فهل يجوز أن يذهب بمريضه إلى هذا الضريح، ويستشفع به ويستغيث ؟ والجواب لا ؛ لأن هذا العمل شرك بالله.

(5) مريض وُصف له شرب كأس من الخمر سبع ليال أو أكثر أو أقل ليبرأ من مرضه، فهل يجوز استعمال هذه الوسيلة لشفائه ؟ والجواب: لا.

(6) حكومة مسلمة قيل لها: إن هناك كلاباً بوليسية تكشف عن الجرائم بصورة عجيبة، فهل يجوز أن تستعمل هذه الكلاب فى كشف الجرائم ؟ والجواب: لا، لأن هذه الوسيلة محرمة ؛ إذ البينة لا تثبت إلا بشهادة عدلين من المسلمين، أو بالاعتراف من الجانى، فكيف تقبل شهادة كلب؟!

(7) امرأة أرادت أن تتزوج، فقيل لها: اذهبى إلى فلانة الشوافة فاستخبريها فى شأن زواجك بفلان، فإن أذنت لك فتزوجيه وإلا فلا ؛ لأنها تعرف بواسطة رئى لها من الجن، فهل يجوز لها أن تذهب إلى فلانة كوسيلة للكشف عن غيب ؟ والجواب: لا ؛ إذ الوسيلة هذه محرمة شرعاً، وهكذا ما أذن فيه الشارع فقط، فتجوز وسيلة التجارة، والفلاحة، والصناعة، والحمالة للحصول على المال، ولكن لا يجوز الربا، والغش، والسرقة، والتلصص لجلب المال.

يجوز التداوى من الأمراض بالأدوية، ولا يجوز التداوى بالسموم، والنجاسات، والمحرمات، يجوز البحث عن المجرمين، والسارقين، واستعمال الوسائل الجائزة لاكتشاف السرقات، ولكن لا يجوز استعمال الكلاب البوليسية، ولا استخدام الكهانة، ولا العرافة، ولا التنجيم بواسطة الكهان والعرافين، والمنجمين.

وفى الأمور الإلهية:

إن المراد من التوسل فى الأمور الإلهية هو التوسل إلى الله تعالى فى أحد أمرين:

أولهما- وهو أشرفهما -: وهو القرب من الله تعالى، والحظوة لديه، والمنزلة العالية عنده.

وثانيهما: قضاء الحاجات بجلب نفع، أو دفع ضر، وبعبارة أوضح: هو التوسل إلى اللّه تعالى للحصول على مرغوب فى الدنيا أو الآخرة، والنجاة من مرهوب فى الدنيا أو الآخرة .

والتوسل إليه تعالى لا يكون إلا بما شرعه عبادة وقربة يعبده بها عباده المؤمنون، ويتقربون به إليه، فكل توسل إليه تعالى بغير ما شرعه من العبادات والقربات هو توسل باطل ضار غير نافع، ومن هنا تعين أن نذكر جملة صالحة من أنواع الوسائل الشرعية، المباحة، النافعة للواسلين، كما نقفى عليها[1] بذكر جملة أخرى من الوسائل المحرمة الباطلة تعليماً وتحذيراً. وبذلك نكون قد وفينا هذا الجزء من العقيدة، بحثاً وتحقيقاً. وقبل الشروع ننبه إلى أن الطاعات التى شرعها اللّه تعالى لعباده قرباً يتقربون بها إليه، ووسائل يتوسلون بها كثيرة، وهى: كل الإيمان والعمل الصالح وأعظمها وسيلة الإيمان باللّه ورسله، ثم أداء الفرائض التى افترضها اللّه تعالى على عباده، ودون ذلك نوافل العبَادات، وترك المحرمات والمكروهات، وذلك لقوله تعالى فى الحديث القدسى الذى أخرجه البخارى: «**وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ...**» الحديث[2].

الوسائل المشروعة:

(١) الإيمان:

من الوسائل المشروعة الإيمان باللّه تعالى، وبكل ما أمر اللّه بالإيمان به من الملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقضاء والقدر.

والإيمان من أفضل الأعمال، وأشرف الوسائل التى يُتوسل بها إلى اللّه تعالى للحصول على مرغوب، أو النجاة من مرهوب، فقد رضيه اللّه تعالى وسيلة إليه، وأثنى على المتوسلين به فى قوله: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ (آل عمران: 16).

وفى قوله من آل عمران أيضاً: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ**﴾ (الآية: 193).

وفى الحديث أن رجلاً توسل فى دعائه بالإيمان فقال: اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت اللّه لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، والرسولُ ﷺ يَسْمعُ فَقَالَ: «**والذى نفسى بيده لقد سأل اللّه باسمه الأعظم ! الذى إذا دعى به**

---

(1) نقفي عليها: أى نتبعها.

(2) متن البخارى (8/ 131) - كتاب الرقاق باب التواضع. مطبعة محمد على صبيح وأولاده.

أجاب، وإذا سئل به أعطى»(1)، ومن هنا كان لأى مؤمن أو مؤمنة أن يتوسل إلى الله تعالى بإيمانه فى أى حاجة من حوائج الدنيا والآخرة أرادها فيقول: اللهم إنى أسألك بإيمانى بك، وبرسولك، أو بأنى أشهد أنك أنت الله الذى لا إله إلا أنت، وأن محمداً عبدك ورسولك، أن تغفر لى، وترحمنى، أو تقضى حاجتى فى كذا ... ويسمى حاجته.

٢ ـ الصـــلاة:

إن الصلاة -فرْضَها ونفْلَها- من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله تعالى: لقوله ﷺفى رواية الصحيح وقد سُئل عن أحب الأعمال إلى الله تعالى، فقال: «**الصلاة على وقتها**» فأى مؤمن أو مؤمنة يرغب فى المنزلة عند الله تعالى والحظوة لديه عز وجل فليحافظ على الصلوات الخمس وليؤدها فى أوقاتها يظفر بمرغوبه بإذن الله تعالى، وأى مؤمن أو مؤمنة تعرض له حاجة، ويرغب فى قضائها، والحصول عليها فليتوضأ وليصل ركعتين ويسأل الله تعالى حاجته، فإنها تقضى بإذن الله كما أمر الرسول ﷺالرجل الضرير بأن يتوضأ ويصلى ركعتين، ويسأل الله تعالى، ففعل ودعا له الرسول ﷺفرد الله عليه بصره(2).

٣ ـ الصيـــام:

إن طالبَ القرب من الله تعالى، والراغب فى الحظوة لدى مولاه، والمتوسل إليه بالإيمان وصالح الأعمال يرشد إلى الصيام ؛ فإنه خير وسيلة إلى ذلك ؛ فقد روى النسائى فى سننه: «أن أبا أمامة أتى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله دلنى على عمل أدخل به الجنة ؟ قال: «**عليك بالصوم فإنه لا مثل له**». وروى البخارى ومسلم واللفظ له: أنَّ رسول الله ﷺقال: «**ما من عبد يصوم يوماً فى سَبيل الله تعالى ؛ إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النارَ سبعين خريفاً**»(3). وصح أيضاً: «**أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**»(4).

---

(1) رواه الترمذى وحسنه، وأبو داود وإسناده صحيح، ورواه أحمد فى المسند وابن ماجه، وابن حبان والحاكم: جامع الأصول فى أحاديث الرسول – مطبعة الملاح– تعليق عبد القادر الأرنؤوطى – (4/ 170).

(2) رواه الترمذى (9/ 117–118)، وأحمد (4/ 138)، وابن ماجه (إمامة / 189).

(3) اللؤلؤ والمرجان (2/ 20)، والبخارى (4/ 31، 32)، ومسلم (3/ 159).

(4) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (2/ 19)، ولفظ البخارى (**والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك**) (3/ 30، 32)، ومسلم (3/ 157، 158)، والخلوف: بضم الخاء المعجمة، واللام: تغير رائحة الفم لخلو المعدة من الطعام.

هذا ورد فى التوسل بالصيام للحصول على القُرْب من الله تعالى. وأما التوسل به لقضاء الحاجات، واستجابة الدعوات: فقد روى الترمذى بسند حسن وأحمد كذلك عن أبى هريرة: أن النبى ﷺ، قال: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، والمظلوم**» وورد بسند ضعيف «**للصائم دعوة لا ترد**»، ويشهد له الحديث السابق عليه.

٤- الصدقة :

إن الصدقة بطيب المال وطيب النفس، لنعم الوسيلة لطلب القرب من الله تعالى، والزلفى إليه، ولنعم الوسيلة للحصول على المرغوب الدنيوى، والأخروى، وللنجاة من المرهوب فى الدنيا والآخرة. وها هى ذى أحاديث الرسول ﷺ تشهد بذلك وتؤكده. قال ﷺ فى الصحيح: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**» وقال: «**الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار**». وقال: «**صنائع المعروف تقى مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد فى العمر**».

٥ ـ الحج :

إن الحج إلى بيت الله تعالى لمن أعظم القرب، وأشرف الوسائل، ويكفى فى التدليل على ذلك أن نعلم أن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وأن من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، كما صح ذلك عن النبى ﷺ فى رواية الشيخين.

٦ ـ الاعتمار:

الاعتمار: هو زيارة بيت الله تعالى للطواف به، والسعى بين الصفا والمروة وسيلة للقرب من الله تعالى واستجابة الدعاء، وتكفير الذنوب لقول الرَّسول ﷺ فى الصحيح: «**تابعوا بين الحج والعمرة ؛ فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة**».

٧ ـ الجهاد والرباط :

إن الجهاد فى سبيل الله والرباط، لمن أعظم الوسائل وأشرفها، وأجل الأعمال وأفضلها، ولنعم الوسيلة هما للفوز بالقرب من الله تعالى وللحظوة لديه سبحانه وتعالى. يقول الرسول ﷺ فى رواية الصحيحين: «**إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**»(1). ويقول: «**مقام الرجل فى الصف فى سبيل الله أفضل من عبادة الرجل ستين سنة**»(2). ويقول «**الغازى فى سبيل الله، والحاج إلى بيت الله والمعتمر،**

(1) البخارى (9/ 153)، ومسلم (66/ 37).

(2) رواه الدارمى (الجهاد/ 7)، وأحمد (2/ 446)، والحاكم وقال صحيح على شرط البخارى (2/ 68).

وفد الله دعاهم فأجابوه (إن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم)»[1] ويقول: «**رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها**»[2]. ويقول: «**حرمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت فى سبيل الله**»[3].

٨ ـ تلاوة القرآن الكريم:

إن تلاوة القرآن الكريم لمن أشرف الوسائل، وخير ما يطلب به القرب من الله تعالى ؛ إذ قراءة الحرف منه بعشر حسنات، لحديث الترمذى عن ابن مسعود، كما أن مجالس قراءته، ومدارسته تنزل عليها السكينة، وتحفها الملائكة، وتغشاها الرحمة، لحديث الصحيح، وتعلمه وتعليمه للناس يكسبه خيرية يفوق بها سواه من سائر المؤمنين لقول الرسول ﷺ فى الصحيح: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[4] كما يجعله فى معيَّة الكرام البررة من عباد الله، ولحديث مسلم: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة**»[5]، كما يقال له إذا دخل الجنة «**اقرأ وارق، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**» كما روى ذلك الترمذى بسند صحيح[6].

٩ - الذكر والتسبيح:

إن ذكر الله تعالى وتسبيحه بالكلمات الواردة عن النبى ﷺ مثل كلمات: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير»، ومثل قول: «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» ،ومثل قول: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم» لمن أعظم القرب، وأفضل الوسائل لقول الرسول ﷺ كما فى الصحيحين: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم**»[7] ولقوله ﷺ، للرجل الذى قال له «إن شرائع الإسلام قد كثرت، فأخبرنى بشىء أتشبث به قال «**لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله تعالى**»[8]، وقوله ﷺ: «**ما عمل**

---

(1) رواه النسائى (6/ 14، 15)، وغيره ولم يعل بأية علة قادحة فيه، ورواه ابن ماجه، والزيادة التى بين القوسين له (مناسك / 5).
(2) رواه البخارى (4/ 43).
(3) رواه أحمد (4/ 135)، وأصله فى الصحيحين (2/ 257) من اللؤلؤ والمرجان، وأخرج النسائى الجزء الأخير منه (6/ 13).
(4) البخارى (6/ 236). (5) مسلم (2/ 195).
(6) الترمذى (42/ 11، 13)، وأحمد (3/ 40). (7) اللؤلؤ والمرجان (3/ 219).
(8) رواه الحاكم وصححه ورواه الترمذى (الدعوات / 41)، وأحمد (4/ 188/ 190).

ابن آدم عملاً أنجى من العذاب من ذكر الله تعالى»[1] وقوله «مثل الذى يذكر ربه، والذى لا يذكر الله مثل الحى والميت»[2].

١٠ ـ الصلاة على النبى ﷺ :

إن الصلاة على النبى ﷺ من أعظم الوسائل وأشرفها لرفع الدرجات، وقضاء الحاجات لقول الرسول ﷺ فى الصحيح: «**من صلى علىَّ صلاة واحدة ؛ صلى الله عليه بها عشراً**».

وقوله للذى قال له: أجعل لك صلاتى كلها: «**إذاً تكفى همك، ويغفر لك ذنبك**»[3].

وقوله فى حديث أحمد والحاكم الصحيح عن عبد الرحمن بن عوف والذى جاء فيه «أن رسول الله ﷺ خرج فاتبعته حتى دخل نخلاً فسجد فأطال السجود حتى خفت عليه، أو خفت أن يكون الله قد توفاه أو قبضه، قال: فجئت أنظر، فرفع رأسه، فقال: «**ما لك يا عبد الرحمن؟**» قال: فذكرت ذلك له. فقال: «**إن جبريل عليه السلام قال لى: ألا أبشرك؟ إن الله عز وجل يقول: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه، فسجدت لله شكراً**».

١١ – الاستغفار:

إن الاستغفار وهو طلب المغفرة من الله عز وجل بلفظ: أستغفر الله، أو اللهم اغفر لى، من الوسائل المشروعة ذات الفضل العظيم، لثناء الله تعالى على أهلها بقوله: ﴿ **وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ** ﴾ (آل عمران:17)، وقوله: ﴿ **وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ (الذاريات:18)، وقوله: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ** ﴾ (آل عمران:135).

ولقول الرسول ﷺ: «**من قال: أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه ؛ غفر له وإن كان قد فر من الزحف**»[4]، ولقوله ﷺ: «**من لزم الاستغفار؛ جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب**»[5].

١٢ – الدعاء:

إن الدعاء وسؤال الله عز وجل لمن خير ما يتوسل به المتوسلون لقضاء حوائجهم، وتفريج كروبهم، وكيف لا يكون كذلك، والله تعالى يقول: ﴿ **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ (غافر:60).

---

(1) رواه الطبرانى بإسناد صحيح، وكذا ابن ماجه (أدب / 53)، وأحمد (5/ 239)، وغيرهم.

(2) رواه البخارى (8/ 107).

(3) رواه أحمد والترمذى (قيامة/ 23) وصححه.

(4) رواه أبو داود وإسناده جيد.

(5) رواه أبو داود وهو صحيح الإسناد (1/ 348)، وأحمد (1/ 148)، (1/ 348)، والترمذى (دعوات/ 117).

ويقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة:186). والرسول ﷺ يقول: «**الدعاء هو العبادة**»، ويقرأ قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر:60).

ويقول: «**ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة ؛ إلا أتاه الله تعالى إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم**»(1). وقال «**ما من مسلم ينصب وجهه لله عز وجل في مسألة ؛ إلا أعطاها إياه: إما أن يعجلها له، وإما أن يدخرها له في الآخرة**». وفي لفظ: «**إلا أعطاه الله إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها**. قالوا: إذا نكثر ! قال: **الله أكثر** »(2) وقال ﷺ: «**إن الله حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين**»(3).

١٣ ـ دعاء المؤمنين:

إن من بين الوسائل المشروعة، التي ترفع بها الدرجات، وتقضى بها الحاجات دعاءَ المؤمن لأخيه المؤمن، فقد كان أصحاب الرسول ﷺ يأتونه يطلبون منه أن يدعو الله تعالى لهم، فيدعو، فيستجيب الله تعالى له فيهم، فتقضى حاجاتهم، فكم من مرة توسلوا ﷺ بدعاء نبيهم في طلب الغيث، فيستجيب الله تعالى ويسقون، وهذا ثابت في الصحيح لا شك فيه. وقد تقدم خبر الضرير، وأنه توسل بدعاء النبي ﷺ، قال: «**ادع الله لي يا رسول الله أن يرد عليَّ بصري، فدعا له الرسول ﷺ ، فرد الله عليه بصره، وعاد كأن لم يكن قد مسه ضر**»(4)، وكما صح أنه ﷺ قال لعمر بن الخطاب وهو يريد العمرة: «**لا تنسنا يا أخي من دعائك**»، وفي لفظ: «**أشركنا يا أخي في دعائك**»(5)، وتوسل أصحاب النبي ﷺ بعد وفاته بدعاء العباس ﷺ لهم في صلاة الاستسقاء فاستجاب الله تعالى له، وسقاهم بعد قحط شديد(6).

وما زال المسلمون إلى اليوم يتوسلون بدعاء بعضهم بعضاً، فيقول المؤمن لأخيه: ادع الله لي يا فلان، لما علموا من مشروعية ذلك وجوازه، وكيف وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: «**من دعا لأخيه بظهر الغيب، قال الموكل به آمين ولك بمثله**»(7).

(1) رواه الترمذي وصححه (دعوات/ 115). (2) رواه أحمد بإسناد لا بأس به (3/ 18).

(3) أبو داود (1 / 342)، والترمذي (دعوات / 104)، وحسنه، والحاكم وصححه على شرط الشيخين (1/ 497)، وأحمد (5 / 438)، وابن ماجه (دعاء / 13).

(4) رواه الترمذي (9/ 118)، وأحمد (4/ 138)، وابن ماجه (إقامة/ 189).

(5) رواه أبو داود (1/ 334)، والترمذي (دعوات/ 109).

(6) رواه البخاري من حديث أنس (1/ 32، 33). (7) رواه مسلم (8/ 86).

١٤ ـ أسماء الله تعالى الحسنى:

إن التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا لمن خير الوسائل وأجداها، وأنفعها للعبد، فإن امرءاً مسلماً يدعو الله تعالى بأسمائه وصفاته لا يخيب فى دعائه، ولا يُحرم الاستجابة من ربه إلا أن يدعو بإثم أو قطيعة، ومما ورد به التوسل من أسماء الله تعالى وصفاته ما يلي ذكره:

1 – لفظ: «ياذا الجلال والإكرام»، لحديث الترمذى الحسن الإسناد عن معاذ، وهو قوله ﷺ –وقد سمع رجلاً يقولُ: يا ذا الجلال والإكرام–: «**قد استجيب لك فسل**».

2 ـ يا أرحم الراحمين، لما روى الحاكم عن أبى أمامة أن النبى ﷺ قال: «**إن لله ملكاً موكلاً بمن يقول يا أرحم الراحمين، فمن قالها ثلاثاً قال الملك: إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فسل**».

3 ـ اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، يا حنان يا منان، بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، لحديث أنس عند أحمد وغيره بسند صحيح: أن النبى ﷺ، مر بأبى عياش وهو يصلى ويقول: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ...إلخ، فقال: «**لقد سألت الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى**»[1]

4 ـ يا رب، يا رب، يا رب، لحديث عائشة: «**إذا قال العبد: يا رب، يا رب، يا رب، قال الله تعالى: لبيك عبدى، سل تعط**»[2].

5 ـ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، لحديث سعد بن أبى وقاص عند النسائى والترمذى وسنده لا بأس به: أن النبى ﷺ قال: «**دعوة ذى النون إذ دعاه وهو فى بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين؛ فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله تعالى له**»[3].

هذا وأسماء الله تعالى وهى تسعة وتسعون اسماً كلها يُدعى بها الرب تبارك وتعالى، ويُتوسل بها إليه، فيستجيب للداعين، ويعطى السائلين، وهو البر الرحيم، الجواد الكريم. وما ذكرناه مجرد مثال حضرنا من قرب فتناولناه، وإلا فإن أسماء الله تعالى، وصفاته كلها يدعى بها، قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ (الأعراف:180).

١٥ ـ فعل الخيرات مطلقاً:

إنه ما من خير أو برٍّ يفعله المؤمن إيماناً واحتساباً إلا كان له وسيلة إلى ربه فليسأل به

---

(1) أحمد (3/ 158).

(2) ابن أبى الدنيا، وسكت عنه المنذرى ولم يذكر له علة، الترغيب والترهيب (2 / 488).

(3) الترمذى (دعوات/ 81)، وأحمد (1/ 170).

مولاه عز وجل فإنه يعطيه ولا يخيبه أبداً. وشاهد هذا ما جاء فى البخارى ومسلم من حديث النفر الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فى جبل فسقطت صخرة على فم الغار فسدّته عليهم، فقد توسل اثنان منهم ببر فعلوه لوجه اللّه، وتوسل الثالث بترك إثم تركه خوفاً من اللّه، فاستجاب اللّه لهم، وكشف ما بهم، وخرجوا سالمين من الغار[1].

كما أن رجلاً من بنى إسرائيل أماط غصن شوك من طريق المؤمنين خشية أن يصيب أحداً منهم، فشكر اللّه تعالى له ذلك العمل القليل، فغفر له، وأدخله الجنة[2] كما أن امرأة بغيّاً من بنى إسرائيل سقت كلباً عطشان يأكل الثرى من شدة العطش سقته لوجه اللّه تعالى ؛ فشكر اللّه تعالى لها ذلك، وأدخلها الجنة، وهذا ثابت فى الصحيحين لا مجال لإنكاره»[3].

١٦ ـ ترك المحرمات:

إن من بين الوسائل النافعة المشروعة للحصول على القرب والفوز برضاء الرب، ولاستجابة الدعوات، وقضاء الحاجات ؛ تركَ المحرمات، إنه ما من مؤمن يترك كبيرة من كبائر الإثم خوفاً من اللّه تعالى وحياء منه ؛ إلا كان له ذلك وسيلة، له أن يتوسل به إلى ربه. كما فعل أحد الثلاثة الذين سدت الصخرة عليهم باب الغار حتى كادوا يهلكون ؛ فقد توسل إلى اللّه تعالى بقوله: «اللهم كانت لى بنت عم، كانت أحب الناس إلى، فأردتها عن نفسها فامتنعت منى، حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتنى، فأعطيتها مائة وعشرين ديناراً على أن تخلى بينى وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها، قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه ؛ فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلىَّ، وتركت الذهب الذى أعطيتها، اللهم إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة ...» الخ[4].

وهكذا فإنه لكل مؤمن أن يتوسل إلى اللّه تعالى عند الشدائد، وتعسر الأمور بما ترك من معاصى اللّه تعالى خوفاً من اللّه وحياء منه، وطاعة له، بعد أن يكون قد همَّ بها وأرادها ؛ فإنه يستجاب له، ويفرج كربه، أو تقضى حاجته بإذن اللّه تعالى.

* * *

(1) راجع اللؤلؤ والمرجان (3/ 136)، والبخارى (3/ 99، 100)، ومسلم (8/ 89، 90).
(2) الحديث ثابت فى الصحيحين راجع اللؤلؤ والمرجان (31/ 201)، والبخارى (1/ 157، 158)، ومسلم (8/ 34).
(3) راجع اللؤلؤ والمرجان (3/ 75)، والبخارى (4/ 211)، ومسلم (7/ 44، 45).
(4) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (3/ 236)، والبخارى (3/ 99، 110)، ومسلم (8/ 89، 90).

الوسائل المحرمة

وبعد ذكرنا لتلك الطائفة النافعة من الوسائل المشروعة، نذكر هنا جملة من الوسائل الباطلة الممنوعة، والتى شغلت الكثير من المسلمين عن الوسائل النافعة، وصرفتهم عنها فحُرموا من التوسل المشروع، بسبب انشغالهم بالممنوع، فخابوا فى سعيهم وخسروا.

نذكر هذا نُصحاً للمسلمين، وتبليغاً لرسالة الإسلام، وتعريفاً بها بين المسلمين وغير المسلمين.

ومن تلك التوسلات الباطلة الممنوعة:

١ - دعاء الأولياء والصالحين:

إن دعاء الصالحين والاستغاثة بهم والتوسل بجاههم لم يكن فى دين اللّه تعالى قربة ولا عملاً صالحاً فيتوسل به أبداً، وإنما كان شركاً فى عبادة اللّه محرماً، يُخْرِج فاعله من الدين، ويوجب له الخلود فى جهنم.

إن كل ما يفعله جهلة المسلمين اليوم من دعاء الصالحين كقول أحدهم: يا سيدى فلاناً، ومولاى فلاناً خذ بيدى، وكن لى كذا، وادع اللّه لى بكذا، أو أنا فى حماك، أنا بك وباللّه، وأنا دخيلك ..، إلى غير ذلك من كلمات الشرك والباطل هو من الضلال، والجهل، والإسلام برىء منه ؛ إذ لم يشرعه ولم يأذن فيه بل حرمه، ومنعه وتوعد عليه بمثل قول اللّه تعالى: ﴿ **إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ** ﴾ (المائدة:72).

٢ - النذور للأولياء والصالحين:

إن ما ينذره جهلة المسلمين من نذور للأولياء والصالحين من أموات المسلمين ليس وسيلة مشروعة لله للتقرب بها إلى اللّه تعالى، ولا لقضاء الحاجات واستجابة الدعوات، وإنما هو شرك مُحرم، وقع فيه من وقع من أمة الإسلام لبعدهم عن دراسة كتاب اللّه، وسنة رسول اللّه ﷺ إن قول أحدهم: يا سيدى فلاناً إن رَزقنى اللّه كذا، أجعل لك كذا. أو يا سيدى فلاناً إن تحقق لى كذا، أو تحصلت على كذا أجعل لك كذا، أو أقدم لك كذا .. كل هذا نذر لغير اللّه تعالى، وعبادة صُرفت لغيره تعالى فصاحبها آت أخطر باب من أبواب الشرك، والإسلام برىء من عمله ؛ إذ ليس من عقائد المسلمين الإقبال على غير اللّه تعالى، ودعاؤه، وعدّته بالذبح له، أو بناء قبة عليه، أو بإيقاد الشموع على ضريحه، أو وضع ستائر على تابوته، إن حصل للناذر ما نذر لأجله، بل هذا يتنافى مع كلمة التوحيد والغرض الذى يقولها المسلم من أجله، وهو نفى العبادة عن كل أحد وإثباتها لله تعالى وحده لا شريك له.

٣ ـ الذبائح على أرواح الأولياء:

إن ما عرفه جهلة المسلمين اليوم، وتعارفوا عليه من الذبائح على أضرحة الأولياء، وعلى المشاهد، والقباب فى المواسم التى تقام باسم أولئك الصالحين من الوقت إلى الوقت، من البقر والغنم، لتذبح هناك حول أضرحة الصالحين، كل هذا ضلال وباطل، وليس مما شرع الله تعالى لعباده التوسل به إليه أبداً، وإنما هو عمل من أعمال الجاهلية الأولى، وشرك فى عبادة الله تعالى، وتنديد، حَرمهما الله تعالى بقوله ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ (النساء:36). وبقوله: ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:22).

٤ ـ العكوف حول قبور الصالحين:

ليس من التوسل المشروع نقل المرضى إلى أضرحة الأولياء، ولا العكوف حول تلك الأضرحة والقبور، ولا المبيت هناك، ولا إقامة الحفلات والحضرات. كما ليس من التوسل المشروع فى شىء الاستشفاع بأصحاب تلك الأضرحة والقبور، ولا نداءاتهم، وطلب الدعاء منهم، ولا الاستغاثة بهم. وإنما هذا وما شابهه مما يقام عند الأضرحة والقبور شرك محرم، وعمل فاسد لا يأتيه إلا من سَفه نفسَه، وجَهل أكبر أصل من أصول الدين الإسلامى وهو توحيد الله تعالى بعبادته وحده دون سواه. وإن المصر عَلى هذا الباطل والمقر عليه كليهما أشرك بالله تعالى، وكفر بعد إيمانه، والعياذ بالله تعالى.

٥ ـ سؤال الله بجاه فلان:

ليس من التوسل إلى الله تعالى طلباً للقرب، ولا لقضاء الحاجات سؤال الله تعالى بجاه أحد من خلقه. كقول أحدهم: اللهم إنى أسألك بجاه نبيك فلان، أو عبدك فلان ؛ إذ هذا التوسل لم يعرفه دين الإسلام، فلم يرد فى كتابه ولا فى سنة نبيه ﷺ، والذى عرفه الإسلام، وأمر به، ودعا إليه هو سؤال الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وذلك كقول المسلم: يا الله، يا أرحم الراحمين، يا ذا الجلال والإكرام، يا حى يا قيوم. امتثالاً لقول الله تعالى، وطاعة له فى قوله: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (الأعراف:180).

أما سؤاله تعالى بجاه فلان فإنه سؤال مبتدع لم يعرفه سلف هذه الأمة، ولا صدرها الصالح. وما كان من جنس البدع والأمور المحدثة ؛ فإنه لا يكون وسيلة تعطى بها الرغائب، وتقضى بها الحاجات.

٦ ـ سؤال الله تعالى بحق فلان:

كما ليس من التوسل المشروع بل هو من الممنوع: سؤال الله تعالى بحق فلان، أو فلان ؛ إذ هذا التوسل لم يرد فى الكتاب الذى قال تعالى فيه: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأنعام:38).

ولم يرد في سنة النبي ﷺ الصحيحة التي قال أبو هريرة فيها: «علمنا رسول الله ﷺ كل شيء حتى الخراءة»[1] فهو إذاً من التوسلات المحدثة الباطلة التي نهى عنها سلف هذه الأمة، وكرهوها للمسلمين فقد نقل عن أبي حنيفة أو أحد تلامذته رحمهم الله تعالى الإنكار الشديد على من سأل الله تعالى بحق فلان، إذ لا حق لأحد على الله تعالى فيسأل به، وإنما الله ذو فضل فيُسأل من فضله كما قال تعالى: ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (النساء:32).

إنه بدل أن يسأل المسلم ربه بسؤال بدعي منهي عنه لا يعطى به فليسأله بسؤال شرعي مأذون فيه ؛ يستجاب له به، ويعطى مسألته، وهو أن يقول: «اللهم إني أسألك بإيماني بك أو بنبيك، أو بكتابك أو بمحبتي لك أو لفلان نبيك أو عبدك أن تقضي حاجتي، أو تفرج كربي، أو تخلصني من محنتي ...» أو يقول: «اللهم أسألك وأتوجه إليك بمحبتي، واتباعي لنبيك نبي الرحمة محمد ﷺ، وأن تكشف ضري، أو تقضي حاجتي، أو تعطيني كذا أو كذا»، فإن هذا من التوسل المشروع الذي يعطى به الداعي ويستجاب له إذا توسل به، وكان أهلاً للإجابة بإيمانه وإسلامه، وهو مغن للمؤمن عن التوسل بما لم يشرع في كتاب ولا سنة.

(تنبيه هام)

يحسن بنا هنا أن ننبه إلى ثلاث شبه قد تعرض للمسلم عند الكلام على التوسل والوسيلة، وهي:

1 ـ حديث الضرير، ونصه كما رواه الترمذي وأحمد وغيرهما بسند لا بأس به: أنَّ رَجُلاً ضَرِير البَصَر أتى النبيَّ ﷺ فَقَالَ: ادْعُ اللّه أنْ يُعَافيني. قَالَ: «**إن شئت دعوت لك، وإن شئت صبرت فهو خير لك**» فقال: ادعهُ. فأمره أن يتوضأ، فيحسن الوضوء، فيصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: «**اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى لي، اللهم شفعه فيّ**» قال: ففعل الرجل فبرأ»[2]. ووجه الشبهة في الحديث: أن يقول المرء: ما دام الضرير قد علمه الرسول ﷺ أن يقول: اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة .. إلخ، فلم لا أفعل أنا مثله لقضاء حوائجي ؟

والجواب: أن نقول: إن هذا التوسل مركب من عدة أمور ولا يتم إلا بها، وبعض هذه الأمور قد تعذر الحصول عليه بوفاة الرسول ﷺ، ألا وهو دعاء الرسول ﷺ لأحدنا اليوم، وشفاعته لنا عند الله تعالى في قضاء حاجتنا، وذلك لوفاته ﷺ، والتحاقه بالرفيق الأعلى. فلو قام أحدنا

(1) روى مسلم -رحمه الله- عن سلمان قال: «قيل له: علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة؟ قال: فقال: أجل..» (1/ 154).

(2) أحمد (4/ 138)، وغيره.

اليوم يقول: يا رسول اللّه ادع اللّه لي أن يقضي حاجتي، لكان قوله باطلاً وضلالاً. ولا معنى لَه، إذ الرسول ﷺ لا يسمعه ولا يراه. ولا يدعو اللّه تعالى له أبداً، ولو قال أحدنا اليوم: اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك .. إلخ لكان كاذباً في قوله ؛ لأنه لم يقدم بين يدى دعائه الرسول ﷺ يدعو له، حتى يقول لله تعالى: اللهم إنى أتوجه إليك بنبيك، اللهم شفعه فيَّ، إنما يقول هذا من قام الرسول ﷺ يدعو اللّه تعالى له كما دعا للضرير.

ومن هنا لم يبق هذا التوسُّل بتلك الكيفية جائزاً ولا نافعاً لفقد أعظم أركانه وأهم عناصره وهو دعاء الرسول ﷺ للمتوسل. وعلى فرض أن مؤمناً قام فتوسل به، وبرأ من مرضه، أو قُضيت له حاجته ؛ فإن ذلك لا يدل على جوازه ومشروعيته ؛ إذ حاجته قد قضيت بقضاء وقدر. كما قد يحصل لبعض الناس أن يدعو ميتاً، ويتشفع به فتقضى حاجته، ويقول: سيدى فلان قضى حاجتي، والحقيقة أن وسيلته شرك محرم، وما قضى له من حاجة إنما وافق فيه القدر فقط، لا أن السيد دعا له وأن اللّه تعالى قد استجاب له.

وهذا ولا بأس أن يفعل المسلم ما يمكنه فعله من هذه الوسيلة ويتوسل به إلى اللّه تعالى وهو أن يتوضأ فيُحسن الوضوء، ويصلى ركعتين، ويقول: اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بإيماني وحبى لنبيك نبى الرحمة محمد ﷺ أن تقضى حاجتي، ويسمى حاجته ؛ فإنه يرجى أن يستجيب اللّه تعالى له، ويقضى حاجته.

ومن باب التحدث بنعمة اللّه تعالى أقول: إنه صادف يوم تبييض هذه الرسالة ووصولي فيها إلى هذا الموضوع من مواضيعها: أن كنت بالدار البيضاء من المغرب وفي آخر رمضان ورغبت في عمرة فيه، وحاولت أن أحجز مقعداً بالطائرة فقيل لى إنه غير ممكن. وإذا تأخرت عن هذه الرحلة ينتهى رمضان ولم أعتمر فيه كما كنت أعتزم وآمل، فتوضأت وصليت ركعتين وقلت: اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بإيماني بنبيك نبى الرحمة محمد ﷺ، وحبى له، أن تيسر لى أمر سفرى على الطائرة الفلانية يوم كذا لأعتمر عمرة مبرورة في رمضان هذا.

وعدت إلى مكتب الشركة فواللّه ما رُمت مكانى حتى قُضيت حاجتي، وتم حجزى والحمد لله رب العالمين، ونفعنى اللّه تعالى بهذه الوسيلة المشروعة.

2 ـ حديث استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنهما، ونصه كما في البخاري: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون»(1).

(1) البخاري (2/ 32، 33).

ووجه الشبهة فى هذا الحديث. أن يقال: ما دام عمر ﷺ قد قال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا»، وهو إقرار من عمر بأنهم كانوا يتوسلون بالنبى ﷺ.

فلم لا نتوسل نحن اليوم بالنبى ﷺ ؟

والجواب عن هذه الشبهة: أن نقول: إن توسلهم رضوان الله عليهم بالنبى ﷺ كان بطلبهم منه أن يدعوَ الله تعالى لهم بالغيث فيدعو فيستجيب الله دعوته ويسقيهم كما قد حصل مراراً. لا أنهم كانوا يتوسلون إلى الله تعالى بذات النبى، أو بجاهه ﷺ فيقولون: اللهم إنا نتوسل إليك بنبيك، أو بجاه نبيك، والنبى غائب عنهم ولم يدع الله تعالى لهم؛ إذ لو كان الأمر هكذا لما توسل عمر بالعباس ﷺ. وإنما كان يقول: اللهم إنا نتوسل إليك بنبيك، أو بجاه نبيك فاسقنا، لم يقل عمر هذا لأنه يعلم أن التوسل بالنبى ﷺ كان بدعائه عليه الصلاة والسلام لهم، ولما توفى ﷺ لم يبق ليدعو لهم، توسلوا بالعباس ليدعو الله تعالى لهم فكان يدعو، ويستجيب الله له فيسقون.

ومن هنا كان من الجائز المشروع أن يقدم المسلمون مؤمناً صالحاً يدعو لهم عند الحاجات، ولكن من غير الجائز أن يقدموا ميتاً أو غائباً لربهم ويقولوا: اللهم إنا نتوسل إليك بفلان أو بجاه فلان؛ لأن هذا كذب وباطل، ما دام الذى قدموه وسيلة لربهم غائباً أو ميتاً؛ لأن الغائب أو الميت لا يعرف عن حالهم، ولا يسمع طلبَهم منه الدعاء، ولا هو يدعو لهم، وإذا لم يدع لهم فبم تكون الاستجابة ؟؟؟

3 ـ ما ورد فى لفظ: «اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك»(1).

ووجه الشبهة أن يقال: إن النبى ﷺ قال: «إنى أسألك بحق السائلين عليك» فلم لا نتوسل نحن بمثل ذلك، ونقول: اللهم إنا نسألك بحق فلان أو فلان ؟؟

والجواب: أن نقول: إن الحديث الذى ورد فيه هذا اللفظ حديث ضعيف، والضعيف لا تؤخذ منه الأحكام، فضلاً عن مسألة تتعلق بالعقيدة كهذه. مع أن هذا اللفظ لو صح عن النبى ﷺ، ما دل على سؤال الله تعالى بحق فلان أو فلان؛ لأن معنى بحق السائلين عليك: اللهم استجب كما تستجيب للداعين، لأنك قلت ادعونى أستجب لكم، وذلك لأنه ما دام تعالى قد أمر عباده بدعائه، وواعدهم بالاستجابة فقال عز وجل: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر:60).

أصبح لكل داع حق أن يطلب ربَّه بما وعده به لينجزه له، فمن هنا لما دعا الرسول ﷺ عند خروجه من بيته للصلاة قال مستنجزاً ربه وعده: «اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق

---

(1) رواه أحمد (3/ 21)، وابن ماجه (مساجد / 14).

ممشاى هذا». فهو قد سأل ربه بصفة من صفاته تعالى الفعلية وهى الإجابة للداعين والمثوبة للعاملين بطاعته، الماشين إلى بيوته لأداء عبادته.

قلنا: هذا من باب التنزل والفرض، وإلا فما دام الحديث ضعيفاً فإنه لا يلتفت إليه، ولا إلى من يحتج به، شأنه شأن حديث قول آدم فى الجنة لما اقترف الخطيئة: «يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لى ...» إلخ.

وحديث فاطمة بنت أسد أم على ﷺ، أن الرسول ﷺ قال بعد أن اضطجع فى قبرها: «اللّه الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت اغفر لأمى فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسع مدخلها بحق نبيك، والأنبياء الذين قبلى فإنك أرحم الراحمين». فإن هذه الأحاديث قد حكم أهل الحديث بضعفها وبطلانها فلا يلتفت إليها، ولا يعول عليها أو يحتج بها. وفيما صح عن نبينا ﷺ من التوسلات المشروعة كفاية. فلنأخذ ما صفا، ولنترك ما كدر.

الاستشفاع

وإن مما اشتبه أمره على كثير من المسلمين حتى وقع من وقع منهم فى أمور عظيمة من الباطل: معنى الاستشفاع والتشفع والشفاعة. فترى أحدهم يدعو غير اللّه تعالى، ويستغيث بغيره عز وجل، ولا يحسب هذا دعاء لغير اللّه، ولا يعده شركاً فى عبادته سبحانه وتعالى. وإذا قيل له فى ذلك، وأنكر عليه قال: هذا ليس بدعاء لغير اللّه، ولا شرك فى عبادته، وإنما هو استشفاع وتشفع فقط.

ومن هنا رأينا بحث هذه المسألة، وبيان الحق فيها تعليماً وتحذيراً.

معنى الاستشفاع:

الاستشفاع والتشفع والشفاعة هذه الكلمات الثلاث مدلولها واحد، ومعناها لا يختلف وهو: أن يطلب إنسان من آخر التوسط له عند ذى مُلك أو سلطان ليقضى له حاجته فى إعطائه ما هو فى حاجة إليه، أو فى التجاوز عنه فى ذنب قارفه، أو جريمة ارتكبها، والكلمات الثلاث مشتقة من لفظ الشفع الذى هو خلاف الوتر ـ الفرد ـ وبيان ذلك: أن صاحب الحاجة كان واحداً فضم إليه الواسطة. وهو من استشفع به، وطلب شفاعته فكان معه شفعاً أى اثنين بعد أن كان فرداً. من هذا المعنى أخذت كلمات الاستشفاع والتشفع والشفاعة.

حكم الاستشفاع:

لا بأس باستشفاع أحد بآخر عند ذى منصب أو مال، أو سلطان ليشفع له عنده برفع حاجته إليه حيث عجز هو عن رفعها إليه، لخموله أو قصوره وذلك لقول اللّه تعالى: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً

حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا(1) وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا(2) ﴾ (النساء: 85).

ويؤجر الشافع على شفاعته، ولو لم تقض حاجة من شفع له، وذلك لقول النبي ﷺ في حديث أبي موسى: «**اشفعوا تؤجروا، ويقضى الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء**»(3).

وجواز الاستشفاع مشروط بأن يكون في حق ضاع، أو حق يخشى ضياعه، أو في شيء مباح ينتفع به، أما أن يكون في إثم بإسقاط حق من الحقوق، أو تعطيل حد من الحدود فلا، وذلك لقوله تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ (المائدة: 2).

ولقول الرسول ﷺ: «**إذا بلغ الحد السلطان فلعن الله الشافع والمشفع**»(4)

قياس خاطئ:

وجهل كثير من المسلمين ربهم عز وجل فلم يعرفوه، فقاسوه سبحانه وتعالى على بعض عباده فاستشفعوا عنده بالأولياء والصالحين من أموات المسلمين، وطلبوا منهم الشفاعة لديه سبحانه وتعالى، فكانوا يقولون: يا سيدى فلاناً اشفع لى عند ربى فى قضاء كذا وكذا ... ويا مولاى فلاناً توسلت بك إلى ربى، فادع الله لى يفعل بى كذا وكذا. ولما يُنكر عليهم ذلك يقولون: إن الذى لا يستطيع أن يدخل على السلطان يطلب له واسطة !!

فجمعوا بذلك بين عظيمتين: الأولى دعاء غير الله تعالى وهو شرك أكبر، والثانية: قياس الخالق على المخلوق، وتشبيهه به حيث طلبوا له واسطة كما تُطلب للمخلوق من ذوى السلطان، وجهلوا أن المخلوق قد يخفى عليه أمر الإنسان فيحتاج إلى من يعلمه به، وينبهه إليه، بخلاف الرب تبارك وتعالى فإنه عليم بأحوال عباده، لا يخفى عليه من أمرهم شىء، فما هو فى حاجة إلى من يعلمه بأحوال عباده، أو ينبهه إليها، وإذا كان المخلوق قد يعجز عن رفع حاجته إلى من يقضيها له من سلطان وغيره فيضطر إلى البحث عن واسطة يشفع له برفع حاجته إلى من يقضيها له، فإن الأمر بالنسبة إلى الله تعالى يختلف تمام الاختلاف ؛ إذ العبد مع الله تعالى

---

(1) الكفل هنا: الوزر المترتب على الشفاعة السيئة. (2) حفيظاً شاهداً أو حسيباً قديراً.
(3) رواه الشيخان، اللؤلؤ والمرجان (3/ 202، 203)، والبخارى (2/ 134)، ومسلم (8/ 37).
(4) التغليظ فى الشفاعة فى الحدود ثابت فى البخارى (8/ 199)، والحديث المذكور ذكره مالك عن ابن الزبير موقوفاً بلفظ: «إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافع والمشفع» الموطأ (3/ 49، 50)، وهذا فى حكم المرفوع لأن مثله لا يقال بالرأى.

يمكنه أن يرفع إليه حاجته مباشرة وبدون واسطة، لعلمه تعالى بأحوال عباده وقربه منهم بخلاف المخلوقين فإنهم لجهلهم بأحوال الناس، وعجزهم عن كفايتهم يحتاج طالب الحاجة منهم إلى واسطة ترفع حاجته إليهم، ليعلموها، وتؤثر عليهم ليقضوها، وهذا المعنى منتف مع الله تعالى تماماً. ومن هنا قبح بالعبد أن يستشفع على ربه بأحد من خلقه. وحسن به أن يسأل ربه مباشرة وبغير واسطة، وكيف وربه تعالى يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة:186). ويقول: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر:60).

وإن قيل: كيف جاز لنا إذاً أن يقول بعضنا لبعض: يا فلان ادع الله تعالى لى بكذا ؟ أليس هذا هو عين ما نفيتموه من مسألة الاستشفاع بالأولياء ؟؟

قلنا: إن هذا ليس من ذاك أبداً، وذلك لأمرين:

أولهما: أن هذا قد أذن لنا الشارع فيه ؛ إذ ثبت بما لا مجال للشك فيه أن أصحاب الرسول ﷺ كانوا يطلبون منه ﷺ أن يدعو الله تعالى لهم. كما ثبت أن الرسول نفسه قد طلب مرة من عمر وهو ذاهب إلى العمرة أن يدعو الله تعالى له فقال: «لا تنسنا يا أخى من دعائك»(1)، وبه أصبح المسلمون لا يترددون فى أن يطلب أحدهم من أخيه أن يدعو الله تعالى له بخير. وكيف وقد أرشدنا إلى ذلك القرآن فى قوله: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ (الحشر:10).

إذ فى القرآن دعاء المؤمنين بعضهم لبعض.

وثانيهما: طلبنا الدعاء من عبد صالح حيٍّ يسمعنا ويرانا، ويقدر على أن يدعو الله تعالى لنا هو كطلبنا منه أن يناولنا شيئاً، أو يعطينا آخر، بأن يقدم لنا طعاماً أو شراباً، أو يعطينا مالاً أو متاعاً، أو يعيننا على ما يشق فعله علينا، أفليس هذا جائزاً ؟ بلى وقطعاً، وبدون شك. وإذاً فأى مانع من أن نقول لمؤمن صالح حى يصوم، ويصلى ويسمعنا ويرانا، ويقدر على أن يدعو الله لنا، أى مانع أن نقول له: ادع الله تعالى لنا يا فلان بكذا، أو اسأل الله تعالى لنا كذا وكذا ... رجاء أن يستجيب الله تعالى له فينا فتقضى حوائجنا، أو نحصل على خير من خيرى الدنيا أو الآخرة.

وهذا بخلاف الاستشفاع بأموات المسلمين من أولياء وصالحين ؛ إذ هم أموات ،والميت غير مكلف بعبادة ولا دعاء ولا يسمع من يناديه، ولا يعرف من يستشفع به، فنداؤه وطلب الدعاء منه، والاستشفاع به ضلال عقلى وخطأ فكرى، وفساد دينى، يبرأ منه الإسلام وأهله، وهذه أقل أحواله وإلا فهو شرك فى عبادة الله، وفاعله من المشركين بالله. والعياذ به تعالى من الشرك والمشركين.

(1) رواه أبو داود (1/ 344)، والترمذى (دعوات/ 1).

الشفاعة فى الآخرة

ما تقدم من أحكام الشفاعة، والاستشفاع إنما كان فى الشفاعة، والاستشفاع اللذين يتمان فى هذه الحياة الدنيا. أما الشفاعة فى الدار الآخرة فإنها تختلف -عنها فى الدنيا اختلافاً كبيراً- وذلك؛ لأن الأمر يومئذ كله لله، وليس لأحد غير الله تعالى منه شيء كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ (الانفطار:17-19).

وقد تكون يوم القيامة شفاعات كثيرة غير أنها تجرى على خلاف ما تكون عليه اليوم فى الدنيا، وهذا بيانها:

إن الشفاعة تنقسم يوم القيامة إلى قسمين: شفاعة منفية تماماً لا حقيقة لها، ولا واقع، ولا وجود، وشفاعة ثابتة واقعة، لها حقيقة ووجود.

وللشفاعة المنفية صور منها:

1 ـ شفاعة الآلهة التى عُبدت من دون الله أو معه: فهذه شفاعة لا وجود لها البتة، وسواء كان المعبود المرجو الشفاعة ملكاً، أو نبياً، أو صالحاً، أو دون ذلك من الجن أو الشياطين، أو الحيوانات والجمادات، وذلك لقول الله تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ (الزمر: 43، 44).

ولأن من عبد غير الله تعالى مشرك كافر، ولا شفاعة لكافر لقول الله تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ (المدثر:48). وقوله: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (البقرة: 48).

وهذه قطعاً نفس الكافرين والمشركين.

2 ـ الشفاعة بدون إذن الله تعالى للشافع، أو عدم رضاه عن المشفوع له وذلك لقوله تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ (البقرة:255). وقوله: ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ (الأنبياء:28). وقوله: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ (النجم:26).

والشفاعة المثبتة قسمان:

القسم الأول: شفاعات النبى محمد ﷺ.

والقسم الثانى: شفاعات غيره من الأنبياء، والأولياء، والصالحين من عباد الله تعالى.

فأما شفاعاته ﷺ فهى كثيرة، منها: الشفاعة العظمى، وهى الشفاعة فى فصل القضاء، وهى

المقام المحمود الذى ذُكر له في القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (الإسراء: 79).

وورد بيان كيفية هذه الشفاعة فى الصحيحين: فروى البخارى ومسلم -واللفظ لمسلم- عن أبى هريرة قوله: أُتى رسول الله ﷺ يوماً بلحم فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه فنهس منها نَهسة(1) فقال: «**أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بمَ ذلك ؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين فى صعيد واحد، فيسمعهم الداعى، وينفذ فيهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يُطيقون، ولا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم، فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم: إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته، نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح.**

فيأتون نوحاً عليه السلام، فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لى دعوة فدعوت بها على قومى، نفسى نفسى اذهبوا إلى إبراهيم عليه السلام.

فيأتون إبراهيم، فيقولون: أنت نبى الله تعالى، وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وذكر كذباته، نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى .. فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، فضلك الله تعالى برسالاته، وبتكليمه على الناس اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنى قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسى نفسى، اذهبوا إلى عيسى .. فيأتون عيسى عليه السلام فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمت الناس فى المهد، وكلمة منه ألقاها إلى مريم، وروح منه فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟

(1) نهس أى أكل منها بمقدم أسنانه.

فيقول لهم عيسى: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر له ذنباً، نفسى نفسى، اذهبوا إلى محمد ﷺ.

فيأتونى، فيقولون: يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجداً لربى ثم يفتح الله تعالى علىّ، ويلهمنى من محامده، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلى، ثم قال: يا محمد ارفع رأسك، سل تُعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسى فأقول: يا رب أمتى أمتى، فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذى نفسى بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبُصرى».(1)

ومن شفاعاته ﷺ: شفاعته فى أناس من أمته فيدخلون الجنة بغير حساب، وقد تقدم دليلها آنفاً فى حديث الشفاعة العظمى، حيث قال له الرب تعالى: «**أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن**»، ومنها: شفاعته ﷺ فى أناس من أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع لهم فلا يدخلون النار، ومنها: شفاعته ﷺ فيمن دخل النار من أمته فيخرج منها بشفاعته ﷺ لحديث الصحيحين -واللفظ لمسلم- عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لكل نبى دعوة مستجابة فتعجَّل كل نبى دعوته، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة، فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئاً**»(2).

والقسم الثانى: من الشفاعة المثبتة شفاعة الملائكة، والأنبياء، والعلماء، والشهداء: فشفاعة الملائكة ثابتة بقوله تعالى: ﴿ **وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ** ﴾ (النجم:26).

وبقوله تعالى: ﴿ **وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** ﴾ (الأنبياء:28).

وأما شفاعة الأنبياء، والعلماء، والشهداء فهى ثابتة بعموم القرآن وخصوص السنة، ففى القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿ **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ** ﴾ (المدثر:48). ويقول وقوله الحق: ﴿ **لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا** ﴾ (مريم:87). ويقول: ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** ﴾ (البقرة:255)، فهذه الآيات دالة على وجود شفعاء بمنطوقها ومفهومها.

(1) اللؤلؤ والمرجان (1/ 49-51)، والبخارى (6/ 105-107)، ومسلم (1/ 127-129).
(2) اللؤلؤ والمرجان (1/ 51)، والبخارى (9/ 170)، ومسلم (1/ 131).

وفى السنة يقول الرسول ﷺ فيما رواه ابن ماجه والبيهقى والبزار: «**يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء**» وإسناده حسن[1].

وقوله ﷺ «**يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته**»[2]، وصح أن القرآن الكريم يشفع لأهله كذلك[3].

وآخر القول فى هذا أن كل ما تقدم من الشفاعات الثابتة للأنبياء والعلماء، والشهداء هو مقيد بثلاثة قيود فلا تتم الشفاعة لعبد من عباد اللّه تعالى إلا بعد توفرها له، وتلك القيود هى:

1 ـ أن لا يشفع أحد إلا بعد إذن الرب تبارك وتعالى له. وذلك لقوله: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ والاستفهام هنا للنفى أى لا أحد يشفع إلا بإذنه تعالى.

2 ـ أن لا يشفع أحد فى آخر إلا إذا كان اللّه تعالى قد رضى عن المشفوع فيه بارتضائه قوله وعمله. وذلك لقوله عز وجل: ﴿**وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى**﴾ (الأنبياء:28)، فإنه صريح فى نفى الشفاعة عن أحد لم يرتضه تعالى لذلك.

3 ـ أن لا يشفع أحد فيمن مات على الشرك والكفر، وذلك لحكم اللّه تعالى بخلود الكافرين والمشركين فى النار بقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ**﴾ (البينة:6).

ولهذا وجب أن ينقطع طمع العبد فى غير اللّه تعالى: فلا يطلب الشفاعة من أحد، ولا يسألها من غير اللّه عز وجل؛ إذ الشفاعات كلها لله تعالى وليس لأحد سواه منها شىء، قال تعالى: ﴿**قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**﴾ (الزمر:44). وقال: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**﴾ (البقرة:255).

ومن أراد شفاعة النبى ﷺ فليسألها من اللّه تعالى، وليقل: اللهم شفع فىَّ نبيك، أو اللهم ارزقنى شفاعة نبيك، أو يا رب اجعلنى ممن تُشفع فيهم نبيك، وليتبع سؤاله الشفاعة من اللّه تعالى بالعمل الموجب لها، والمقتضى تحقيقها، وهو يتلخص فى ثلاثة أمور:

1 ـ الإخلاص لله تعالى فى العبادة، ونفى الشرك عنه تعالى فى ربوبيته وأسمائه، وصفاته، وفى عبادته، لحديث الصحيح: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول اللّه ؟ فقال: «**من قال: لا إله إلا اللّه خالصاً من قلبه أو من نفسه**»[4].

(1) ابن ماجه (زهد / 37). (2) رواه أبو داود (2/ 17).

(3) لما ثبت فى صحيح مسلم من حديث أبى أمامة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»... الحديث - متن مسلم (2/ 197).

(4) البخارى (1/ 35).

2 ـ كثرة الصلاة، لما صح عنه ﷺ: أنه سأله أحد أصحابه مرافقته فى الجنة فقال له: «**فأعنى على نفسك بكثرة السجود**». [1]

3 ـ الصلاة على النبى ﷺ، وسؤال الوسيلة له، وذلك لحديث مسلم عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علىّ، فإنه من صلَّى علىَّ صلاة صلى اللّه عليه بها عشراً، ثم سلوا اللّه لى الوسيلة ؛ فإنها منزلة فى الجنة، لا تنبغى إلا لعبد من عباد اللّه، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل اللّه لى الوسيلة حلت له الشفاعة**»[2].

التبرك

إن التبرك مثل التوسل والتشفع كلها سىء فهمها، وجهلُ الناس بحقيقتها أوقع الكثير من المسلمين فى أخطاء كبيرة أضرت بالمعتقد الإسلامى، وأساء إلى الحياة الإسلامية أيما إساءة.

فباسم التبرك، وتحت شعاره عُبدت الأشجار والأحجار، وانتهكت الحرمات، وضيعت الفرائض، وأسقطت الواجبات. كما أنه باسم التوسل والاستشفاع ذبح لغير اللّه تعالى، واستغيث بغيره عز وجل.

وبالجملة فإن ما وقع من الشرك فى هذه الأمة أيام جهلها بكتاب ربها، وسنة نبيها، وبعدها عنهما إنما كان فى الغالب عن طريق التوسل، والتشفع، والتبرك. ولهذا رأينا أنه مما ينبغى أن يبحث فى هذا المعتقد، ليكون المسلم فيه على علم كامل، وبينة تامة، هذه الثلاثة: التوسل والاستشفاع والتبرك، وقد بحثنا الأول والثانى، وها نحن نبحث الأخير إن شاء اللّه تعالى، فنقول:

التبرك:

التبرك مصدر تبرك بالشىء يتبرك به تبركاً إذا تيمن به، والتيمن بالشىء هو طلب اليُمن، وهو البركة. والبركة هى النماء فى الخير والزيادة فيه، ويطلق لفظ البركة على كل كثرة فى الخير. واشتقاقها من بروك البعير، وهو استناخته فى موضع، ولزومه فيه. فالخير الدائم الثابت فى الشىء، والنامى فيه هو البركة.

والبركة فى عرف الدين: ما يجعله اللّه تعالى من الخير فى الشىء الذى يباركه. فقد أخبر تعالى أنه بارك فى أرض الشام أى جعلها مباركة[3] وأخبر أنه جعل كتابه مباركاً[4]، والمعنى

---

(1) مسلم (2/ 52). (2) مسلم (2/ 4).

(3) فى قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: 71).

(4) فى قوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ (ص: 29).

كثير خيرهما دائم لهما، ثابت فيهما، وأخبر عيسى عليه السلام عند تكلمه في المهد أن اللّه تعالى جعله مباركاً أينما كان. فقال: ﴿ **وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا** ﴾ (مريم:31، 32).

ومن الأدعية المأثورة: «وبارك لى فيما أعطيتنى»، وعلى هذا فطلب البركة والتماسها أمر مستحسن شرعاً ؛ لأنه من طلب الخير والتماسه.

ومن ذا يرغب عن طلب الخير أو يكون له غنى عن بركة اللّه ؟

ولكن بم يكون التبرك، وكيف يكون ؟

أما بم يكون التبرك ؟

فإن التبرك يكون بما عُلم شرعاً أن فيه بركة، وأذن الشارع فى طلبها منه. والتماسها فيه، وذلك كبيت اللّه الحرام، وماء زمزم الذى قال فيه الرسول ﷺ: «**ماء زمزم طعام طعم، وشفاء سقم**»[1].

وكالمساجد الثلاثة التى لا يشد الرحال إلا لها، وككل المساجد التى بنيت باسم اللّه، وتقام فيها عبادة اللّه من صلاة وغيرها، وكالأراضى المقدسة من الحجاز والشام، وكمجالس العلم والذكر، وقراءة القرآن، ومجالسة الصالحين، ومرافقتهم فى أسفارهم، وطلب دعائهم.

وأما كيف يكون التبرك ؟

فإنه يكون إن كان ببيت اللّه تعالى فبزيارته للحج والعمرة، وبالطواف به واستلام ركنيه، والدعاء عنده، والجلوس حوله، وإن كان بزمزم فبالشرب منه، والدعاء عند ذلك، وإن كان بالمساجد الثلاثة فبالسفر إليها للصلاة فيها، والاعتكاف بها، وإن كان بسائر المساجد فبالصلاة فيها، والعبادة بها من ذكر وتسبيح، وقراءة قرآن وطلب علم، وإن كان بالأراضى المقدسة فبالإقامة بها على حسن سيرة، وكمال أدب، والحياة فيها، والموت بها والدفن فيها، وإن كان بمجالسة الصالحين من أهل العلم، والإيمان، والتقوى فبأخذ العلم عنهم، وسماع نصائحهم، والعمل بإرشادهم وتوجيهاتهم، والرغبة فى الحصول على دعائهم.

هذا، وبعد أن بينا ما يشرع التبرك به، وكيف يتم التبرك به وجب أن نبين إتماماً للبحث حقائق هامة لابد من بيانها فى هذا البحث وهى:

1 ـ أن التبرك لم يعدُ كونه مشروعاً، وأقصى درجات حكمه أن يكون مستحباً لا غير.

---

(1) روى مسلم «**إنها مباركة، إنها طعام طعم**» فى حديث فضائل أبى ذر (7/ 152-154)، والزيادة (**شفاء سقم**) لغيره.

2 ـ إن كان التبرك وهو طلب بركة ما قد يؤدى إلى فعل مكروه، أو ارتكاب محرم فإنه يجب تركه، ويتعين عدم فعله ؛ لأن درء المفاسد مقدم على جلب المنافع، ويشهد لهذا فعل عمر ﷺ، وهو أحد الخلفاء الراشدين الموصى شرعاً باتباع سنتهم، فإنه ﷺ لما رأى رغبة الناس عند المرور بالحديبية فى طريقهم إلى مكة فى النزول تحت شجرة بيعة الرضوان للتبرك بها، أمر بقطعها، حسماً لمادة الفساد ؛ إذ لو تركت لعُبدت كما عبد غيرها من أشجار كثيرة باسم التبرك، وفى كل زمان ومكان، من عهد نوح إلى ساعتنا هذه.

3 ـ إن ما يفعله جهال المسلمين اليوم من شد الرحال إلى زيارة قبر فلان وفلان، أو ضريح فلان من سيِّد أو صالح، وإقامة الحفلات حولها، والنزول بساحتها، والعكوف والإقامة الليلة والليلتين عندها بّاسم التبرك، كل هذا باطل منهى عنه، ولم يشرع فعله للمسلمين، وإنما هو من محدثات الأمور وضلال الابتداع، وقد أدى إلى الشرك والعياذ بالله، فكم تسمع من مستغيث بأصحاب تلك الأضرحة، وكم ترى حولها من مستجير بها، وداع ضارع لها، وباك خاشع لها، وكم تجد من قطعان البقر والغنم تساق إليها، وتذبح قرباناً لها، كل ذلك تحت شعار التبرك، وعنوان التوسل والتشفع، ألا فلا تبرك، ولا توسل، ولا تشفع إذا كان ذلك يؤدى إلى الشرك والكفر.

4 ـ إن العبد الصالح الذى تقدم أنه يجوز التبرك بزيارته للانتفاع به، وبإرشاده، وتوجيهه، ونصائحه، وبالتالى بدعائه، هذا العبد الصالح ينبغى أن يكون من أهل العلم، والإيمان، والتقوى، وإلا فلا تُشرع زيارته، ولا التبرك به لعدم وجود البركة فى غير أهل العلم، والإيمان، والتقوى.

5 ـ إذا كان الرجل يدعى الولاية، ويدعو الناس إلى الاعتراف له بها، ويستغل ذلك لفائدته الشخصية من جلب منافع خاصة، من جاه، أو مال، أو ما إلى ذلك من الحظوظ النفسية والدنيوية، فإن مثل هذا الرجل دجال لا بركة عنده، ولا خير فيه، فلا تحل زيارته، ولا مجالسته، ولا احترامه فضلاً عن التبرك به، وذلك لفقد موجبات البركة عنده وهى العلم، والإيمان والتقوى.

الولاية والكرامة

إن مما له صلة وثيقة ببحث عقيدة المؤمن موضوع الولاية والكرامة. إذ الولاية ولايتان، ولاية للرحمن، وولاية للشيطان، والكرامة منها ما هو كرامة بحق ؟ يكرم الله تعالى بها أولياءه من صالحى عباده، ومنها ما هو فتنة واستدراج للعذاب والامتهان. وعدم التمييز بين كرامة المؤمن، ومهانة الشيطان، يوقع فى أخطاء قد تؤدى بكثير من المؤمنين إلى اعتقاد الباطل، والعمل به.

ومن هنا كان لابد من بحث هذه المسألة وبيان وجه الحق والصواب فيها؛ وليكون المؤمن

على بصيرة كاملة فى مُعتقده الذى هو قوام حياته الدينية بل هو رأس ماله الذى تتوقف عليه سعادته فى الدنيا والآخرة معاً.

ولنبدأ بحث هذه المسألة بالسؤال التالى:

ما هى الولاية ؟

الولاية فى عرف اللغة مصدر ولى الشيء يليه وَلياً وولاية[1] إذا دنا منه وقرب أو أقام به، وملك أمره، أو نصره وأحبه ـ ويصاغ من فعل ولى المفاعلة فيقال: والاه يواليه موالاة إذا صادقه وناصره فهو موال له ضد مُعاد له. كما يصاغ التولية فيقال: تولاه تولية إذا صار له وليّا. ومنه اشتق لفظ الولى الذى هو ضد العدو.

هذا معنى الولاية فى عرف اللغة، وهو لا يختلف عنه كثيراً فى الدين، إذ كلا المعنيين يدور على القرب والحب، والنصرة، والقيام بالأمر لصالح الولى، وضد الولاية العداوة، وهى تدور على البعد، والبغض، وإرادة الشر والهلاك للشخص المعادى، على عكس الولاية. وبناء على هذا فولاية اللّه تعالى للعبد: أن يَهديه إلى الإيمان به، وإلى معرفته، وطاعته ومحبته، ونصرة دينه، فيعمل العبد بذلك، ويقرب به من ربه عز وجل حتى يحبه، فإذا أحبه قربه، وتولى أموره، ونصره، وحفظه، فكان بذلك وليه. كما قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ** ﴾ (البقرة:257).

وولاية العبد للرب تبارك وتعالى أن يؤمن به، ويتقيه، ويتقرب إليه بطاعته، ويوافقه فى محابه. ومكارهه، ويوالى من يوالى، ويعادى من يعادى، وينصر دينه وأولياءه، وبذلك يكون وليّاً لله تعالى، قال تعالى: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ (يونس:62-64).

الحال الجامعة:

وتكون الحال الجامعة بين اللّه تعالى الولىِّ الحميد، وبين العبد المؤمن التقى هى الموافقة فى الحب والبغض، والقرب[2] والمناصرة والموالاة، والمعاداة.

---

(1) قال فى مختار الصحيح: وليه يليه بالكسر فيهما وهو شاذ.

(2) يشهد لهذا حديث الصحيحين القدسى: «**وإن تقرب إلىَّ بشبر تقربت إليه ذراعاً**» الحديث. اللؤلؤ والمرجان (3/ 223)، والبخارى (9/ 147، 148)، ومسلم (8/ 67، 68).

ومن هذا يُستخلص أصل الولاية وشرطها، فأصلها الإيمان والتقوى، وشرطها الموافقة التامة فى الحب والبغض، والموالاة والمعاداة ومتابعة الرسول ﷺ فى كل ما جاء به، ودعا إليه من أصول العقائد، والعبادات، والآداب، والأخلاق، متابعة يتجرَّد فيها العبد لله، ويخلص له فيها ؛ إذ لا تتم محبة اللّه للعبد إلا بشرط المتابعة للرسول ﷺ، وذلك لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران:31).

وهذا لأن المتابعة هى سبيل طهارة الروح، وزكاة النفس، ومن طهرت روحه وزكت نفسه بالإيمان والعمل الصالح، مع البعد عن الشرك، والمعاصى كان أهلاً لحب اللّه تعالى، وموالاته عز وجل.

الفرق بين الولايتين

إن هناك فرقاً بين ولاية اللّه تعالى للعبد، وبين ولاية العبد للّه عز وجل تجب ملاحظته، وهو أن اللّه تعالى لا يوالى عن افتقار للعبد، واحتياج إليه، وإنما يوالى إكراماً للعبد، وإنعاماً عليه، لغناه تعالى عن كل ما سواه، وافتقار كل ما عداه إليه تعالى، وهذا من معانى اسمه (الصمد)، وقد نفى اللّه تعالى فى كتابه العزيز من سورة الإسراء، نفى أن يكون ولى من الذل، فقال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (الإسراء:111).

وأما العبد فإنه يوالى ـ إن وفقه اللّه تعالى ـ يوالى لفقره وحاجته إلى ربه ؛ إذ هو دائماً فى حاجة إلى نصرة ربه ومعونته، ومحبته، ورضاه، وإدنائه منه، وتقريبه إليه ؛ إذ لا يسعد العبد إلا فى جوار مولاه، ولا ينعم إلا إذا تغمده ربه برحمته وخلع عليه فضلاً من رضوانه. فالمنة إذاً للّه تعالى على موالاته لعبده وقبوله له ولياً، وأما العبد فلا منة له بحال، وليس له أن يُدلَّ على اللّه تعالى. ولو أذاب نفسه فى طاعة اللّه، وأوقف كل حياته عليه، وحتى لم يبق له هم ولا هوى سوى اللّه عز وجل.

هذا هو الفرق بين ولاية الرب تعالى للعبد، وبين ولاية العبد للرب سبحانه وتعالى، فليعلم فإنه مهم وجدير بالفهم والمعرفة.

الولى

إننا بعد معرفتنا للولاية سيسهل علينا ـ إن شاء اللّه ـ معرفة لفظ الولى، إن لفظ الولى وجمعه أولياء يكون اسم فاعل بمعنى المتولى غيره، المولى له، ويكون اسم مفعول بمعنى الذى يواليه غيره ويتولاه. فاللّه تبارك وتعالى وهو الولى الحميد، ولى عبده المؤمن بمعنى أنه هداه للإيمان، ووفقه للطاعة، وأدناه منه، وقربه إليه، وأحبه، ونصره فهو مولاه ووليه. قال تعالى: ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ (الأعراف:196).

والمؤمن ولى اللّه تعالى بمعنى أن اللّه تعالى هداه وتولاه، وبمعنى أن المؤمن والى اللّه تعالى فآمن به واتقاه وأحبه، وأطاعه، ووافقه فى محابه ومساخطه، فوالى من يوالى، وعادى من يعادى. وأحب ما أحب ومن أحب، وكره ما كره ومن كره، فكان بذلك عبده ووليه قال تعالى فى إثبات هذه الولاية وذكر كراماتها: ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (يونس:62-64).

وقد تقدم هذا المعنى واضحاً فى بحث الولاية فازداد وضوحاً وتقريراً، وبالجملة فإن ولى اللّه تعالى من عباده هو مؤمن أكرمه اللّه تعالى بهدايته فآمن به واتقاه. وتقرب إليه بالصالحات ووافقه فيما يحب وما يكره من الذوات والصفات، ووالى من يوالى، وعادى من يعادى، فوالاه اللّه تعالى لذلك، وتولاه، وأكرمه بكرامات، فكان إذا دعاه استجاب له، وإن استعاذه أعاذه، وإن سأله أعطاه.

(الكرامة)

ما هى الكرامة:

الكرامة: الاسم من كَرُم، والجمع كرامات، وهى ما يكرم الرب تبارك وتعالى به عباده من أنواع الإفضالات، وهى عامة وخاصة. فالعامة: هى ما كرَّم اللّه به بنى آدم، وفضلهم به على غيرهم من هذه المخلوقات الأرضية، ومن ذلك اعتدال القامة، والخلق فى أحسن تقويم، والعقل، والمنطق، وتدبير المعاش وإصلاحه، وتسخير الكون لهم، والانتفاع به إلى غير ذلك من الإفضال والإنعام، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (الإسراء:70).

والخاصة وهى أفضلهما: ما يكرم اللّه تعالى به بعض عباده من هدايتهم إلى الإيمان، وتوفيقهم إلى طاعته تعالى بفعل المأمورات، وترك المنهيات، فهذه الاستقامة على الإيمان والطاعة من أعظم الكرامات، وأهلها هم أصحاب اليمين المذكورون فى قول الله تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ (الواقعة:27). وفى قوله: ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ (الواقعة:90-91). وهم المقتصدون المذكورون فى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ (فاطر:32). وهم المبشرون بالجنة فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأحقاف:13-14).

وأخصُّ من هذه الكرامة كرامة الإيمان والاستقامة، ما يكرم الله تعالى به بعض عباده زيادة على الإيمان والتقوى، من الورع والتقليل من المباحات والإكثار من نوافل العبادات من صلاة، وصدقات، ورباط وجهاد، وصيام، وحج. وهؤلاء هم الموصوفون بالمقربين والسابقين في قول الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾ (الواقعة:10ـ 14). وفي قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (فاطر:32ـ 33).

وهم المعنيون بقول الله تعالى في حديث البخاري: **«من آذى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته، ولا بد له منه»**(1).

فهؤلاء في أعلى مرتبة من مراتب الولاية، إذ يعرفون باستقامتهم، واستجابة ربهم لهم فيما يسألونه ويطلبون، فلو سألوه زوال جبل لزال، ولو أقسموا عليه تعالى لأبرهم، وهم الذين يظهر الله تعالى على أيديهم ببركة دعائهم خوارق العادات كتكثير القليل، وشفاء العليل، وكإكساب المعدوم، والإنقاذ من الهلاك المحتوم.

مراتب الأولياء

وبناء على ما سبق فإن للأولياء أربع مراتب: عليا وعالية، ودنيا ووسطى.

فالعليا: هي مرتبة الأنبياء والمرسلين، وكراماتهم يصرفونها لله تعالى الذي منَّ بها عليهم فتكون معجزات تقوم بها الحجة لله تعالى على الناس.

والعالية: وهي مرتبة السابقين المقربين من أتباع الرسل عليهم السلام وهم متفاوتون فيها تفاوت الرسل فيما بينهم في تسامي الدرجات، وعلو المنازل.

والوسطى: وأهلها هم أهل الإيمان والتقوى من أصحاب اليمين المقتصدين.

---

(1) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب التواضع (8/ 131)، إلا أنه ليس فيه (ولابد له منه).

والدنيا: وهي مرتبة أهل الضعف في الإيمان والتقوى، وهم الظالمون لأنفسهم، المذكورون في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (فاطر:32-35).

والشاهد من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى ذكر ثلاثة أصناف من الناس، وهم: الظالمون لأنفسهم، والمقتصدون، والسابقون بالخيرات، وحكم على جميعهم بأنهم يدخلون الجنة يُحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير، فدل ذلك على أن أهل الضعف في الإيمان والتقوى هم كذلك أولياء الله تعالى، وإن ظلموا أنفسهم بترك بعض الواجبات أو بفعل بعض المحرمات، غير أن درجتهم دون درجة السابقين، ولم تصل إلى درجة المقتصدين، فهم في منزلة دون، وذلك لضعف إيمانهم وتقواهم. (١)

ويلاحظ هنا أن أهل هذه المراتب على اختلافها، متفاوتون في العدد قلة وكثرة، فأهل المرتبة العليا أقل عدداً من أهل المرتبة العالية، وأهل المرتبة العالية أقل عدداً من أهل المرتبة الوسطى، وأهل الوسطى أقل عدداً من أهل المرتبة الدنيا، وهذا أمر ظاهر لا يحتاج إلى أكثر من تنبيه إليه.

تقريرات

الأول: أنه لا تتم ولاية عبد لله تعالى، ولا ينتظم في سلك أولياء الله تعالى إلا بالإيمان الصحيح، والتقوى القائمة على مبدأ فعل المأمورات، وترك المنهيات.

الثاني: أن الأولياء يتفاوتون في قربهم من الله تعالى، وعلو منزلتهم عنده وفي كراماتهم بحسب قوة إيمانهم وتقواهم، وكمال موافقتهم لربهم، ونبيهم فيما يحبان ويكرهان.

الثالث: أن الكرامات وهي الأمور الخارقة(2) للعادة التي يظهرها الله تعالى على يد بعض

(1) لعل قائلاً يقول: ألا يستحق أهل الظلم لأنفسهم العذاب عقوبة ظلمهم؟ فنقول: إن الظالم قد يعذب إن لم يغفر الله عز وجل له، ولكنه بعد تطهيره من ذنوبه بالعذاب مصيره الجنة.

(2) هذا النوع الذي يطلقونه على الكرامة، ويقولون: إنه أمر خارق للعادة غير مقترن بالتحدي ودعوى النبوة.

أوليائه، ليست شرطاً فى ثبوت الولاية، ولا فى نفيها ولما كانت تنقص من درجة من يظهرها الله تعالى على يديه، لأنها بمثابة تعجل الجزاء على الإيمان، والتقوى فى الدنيا، كان بعض الأولياء يتوبون منها إلى الله تعالى، ويستغفرونه لأجلها.

الرابع: الأولياء من غير الأنبياء والمرسلين لا عصمة لهم، فقد يُخطئون ويغلطون، غير أن الغالب فى أحوالهم الحفظ مما يدنس شرف الولاية، ويخل بمقامها، وإن وقع أن أحدثوا ذنباً لعدم عصمتهم أحدثوا له توبة على الفور، يقبلها الله تعالى منهم بعد أن وفقهم لها، فيسلم بذلك مقامهم من التداعى والسقوط، ومنزلتهم من النزول والهبوط.

الخامس: لنا بحسب ما يظهر لنا من أحوال الناس أن نصف كل مؤمن تقى بالولاية، فنقول: فلان ولىٌّ من أولياء الله تعالى أو نقول: فلان ولىٌّ، ونكرمه لذلك، ونتحاشى أذيته لحديث أبى هريرة فى البخارى عن النبى ﷺ عن الله تعالى: «**من آذى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ... الحديث**»(1)، ولا التفات إلى قول من يقول بعدم جواز ذلك لعدم الدليل على صحة الدعوى.

السادس: جهلُ المسلمين بحقيقة الولاية وبمعرفة الولى جعلهم لا يعترفون بولاية المؤمنين الذين يعيشون معهم من أهل الإيمان والتقوى إلا إذا ظهرت على يد المرء خوارق العادات، أو مات وشيد له ضريح، أو بنيت على قبره قبة، حتى إن أحدهم لو طلب منه أن يدل أحداً على ولى من أولياء بلده، لا يدله على مؤمن تقى يعيش بين الناس، وإنما يدله على ميت له ضريح، أو على قبره قبة وإن كان لا يعرف اسمه فضلاً عن حاله أيام حياته فتقبل شهادته فيه، ويصح حكمه عليه.

السابع: لقد أنكر الله تعالى على الناس اتخاذ أولياء من دونه فى قوله: ﴿ **قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا** ﴾ (الرعد: 16).

فلا يحل لمؤمن ولا مؤمنة أن يتخذ له ولياً دون ربه عز وجل فيلجأ إليه فى الشدائد، ويستغيث به عند المخاوف، ويستعيذ به من المكاره، أو يعبده ويتوكل عليه، ويوالى فيه ويعادى فيه، إذ هذا معناه اتخاذ آلهة من دون الله، وهو شرك وكفر والعياذ بالله.

---

(1) ذكر بتمامه فى باب الكرامة فليرجع له.

أولياء الشيطان وموالاتهم

إن بين شياطين الإنس والجن موالاة أثبتها القرآن الكريم، كتاب الله رب العالمين، وحسبنا القرآن شاهداً ودليلاً، قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ (الأنعام:128). وقال تعالى من السورة نفسها: ﴿شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ (الأنعام:112). وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الأعراف:30).

والسؤال الآن هو: كيف تتم الموالاة بين الفريقين؟

والجواب: أنها تتم حسب سنة الله تعالى فى اتحاد المتجانسات، وتلافى المتشابهات وانجذاب كل شبه إلى شبهه، ومن هنا كان إذا خبث الإنسان نتيجة توغله فى الشر والفساد بارتكاب الذنوب والآثام المتمثلة فى معاصى الله تعالى ومعاصى رسوله ﷺ أمكنه الاتحاد بشياطين الجن، والتفاعل معهم، وتوليهم وتبادل المنافع معهم، والتعاون على إغواء الإنسان وإفساده، وإيقاعه فى الشرور والمفاسد، وبحكم الولاء الثابت بين كل من شياطين الإنس والجن، فإن شياطين الجن يخدمون إخوانهم وأولياءهم من الإنس، فيطلعونهم على بعض المغيبات التى أمكنهم الاطلاع عليها، ومعرفتها، كما قد يقربون إليهم أشياء بعيدة، أو يحملونهم إلى أماكن أبعد، كما قد يجمعون لهم بين شخصين متباعدين أو متقاطعين، وقد يظهرون لهم أشخاصاً، أو يسمعونهم أصواتاً وبالجملة فقد يظهرون لهم من بعض الخوارق ما يظن معه من لا علم له بهذا الشأن أنه كرامات كالتى يظهرها الله تعالى على أيدى أوليائه كرامة لهم.

* * *

الركن الثانى من أركان عقيدة المؤمن

الإيمان بالملائكة

مقدمة:

قبل البحث فى هذا الركن من أركان العقيدة نقدم بيان الحقائق الثلاث التالية:

الأولى: أن الكون كله ينقسم إلى غيب، وشهادة. فالغيب: ما غاب من الموجودات عن أعين الناظرين وإن كانت حقيقة محصلة فى صدورهم، لا تغيب عن خواطرهم، وذلك ككل الموجودات الأرضية والسماوية.

والشهادة: خلاف الغيب وهى كل ما كان من الموجودات أمام نظر الإنسان يشاهده ويراه أو كان بحيث يدركه بإحدى حواسه التى هى السمع، والبصر، واللمس، والشم، والذوق.

الثانية: أن الإنسانَ بحكم طبيعة الحياة مقدر له الإيمان بالغيب: مفروض عليه، لا يستطيع التخلص منه بحالَ، اللهم إلا إذا سَفه نفسَه، وأراد التخلى عن كرامته الآدمية، وعن شرفه الإنسانى ؛ ليصبح بعد ذلك حيواناً هابطاً لا خير فيه، أو آلة صماء لا وعى لها، ولا إدراك !!!

وذلك ؛ لأن الإنسانَ كائن متحيز متى وُجد فى مكان استحال عليه أن يوجد فى مكان آخر مع بقائه فى مكانه الذى هو فيه. ومن هنا ستصبح سائر الأمكنة التى تخلو منه ببعده عنها غيباً له. وليست بشهادة عنده، ولابد له من أن يؤمن بها، وبما فيها من أشياء، جواهر وأعراض، متى وجدت آثار تدل على ذلك، أو أخبار صادقة تنبئ به.

ثم إن حواسَ الإنسان التى يحصل له العلم بها محدودة القوة، محصورة الإدراك فى مجال معين لا تتعداه. فسمعه مقيد فى السماع بالأصوات العالية فإذا انخفضت إلى درجة معينة تعذر عليه أن يسمع، وبصره مقيد برؤية الأجسام الكبيرة فإذا صغرت ودقت، وبلغت حداً معيناً من الصغر والدقة عجز عن رؤيتها، ولمسه كذلك، فإنه يحس بالأجسام الكثيفة، فإذا خفَّت انقطع إحساسه بها. وحتى عقله فإنه يكل عن إدراك أشياء معقولة، ويعيا عن تصورها تماماً.

ومن هنا كان لابد للإنسان من الإيمان والتصديق بأشياء لم يشاهدها ولم يحس بها، بأية حاسة من حواسه، ولم يدرك حتى تصورها بعقله، ولا خيار له فى ذلك إذا أراد أن يقيم لكرامته وزناً، ولقيمته البشرية قدراً من الاحترام والتقدير !!!

وكيف تُنكر هذه الحقيقة، ونحن نرى أن الإنسان يعيش فى بلد ما ولم يخرج منه أبداً وهو يؤمن بعشرات البلاد، ويصدق بوجودها وهو لم يرها، ولم ير من رآها قط.

كما نرى إنساناً آخر لم ير الفيل طول حياته، وهو يؤمن بوجود هذا الحيوان الذى لم يره، ولم ير من رآه أبداً، ونرى ثالثاً يؤمن بالجاذبية إيماناً جازماً، ومن المعلوم أن الجاذبية مما لا يُرى ولا يُشاهد أبداً.

ونجد رابعاً وُلد ولم يعرف والده لموته قبل ولادته، وهو يؤمن بأن له والداً، ولا ينكر ذلك بحال، ولذا كان من المضحكات أن يدعى إنسان أنه لا يؤمن بالغيب، أو أنه يستطيع أن يعيش فى هذه الحياة بدون الإيمان بالغيب.

الثالثة: أن الإنسان يكتسب علمه بالموجودات عن طريق عقله وحواسه معاً، فبعقله يدرك سائر التصورات العقلية، وبالحواس يدرك سائر الماديات من مرئىٍّ، ومسموع، ومحسوس، ومشموم، ومطعوم. فبالعقل أدرك فضيلة الصدق، ورذيلة الكذب. وبالعقل أدرك المستحيلات: ككون الشىء إذا وجد فى مكان لا يوجد فى غيره، والواجبات: ككون الجسم لابد له من حيز يشغله، وككون المصنوع لابد له من صانع، والجائزات: ككون المريض قد يُشفى وقد لا يشفى، والغائب قد يعود وقد لا يعود.

وبحاسة البصر أدرك المرئيات: أطوالها، وأعراضها، وصفاتها.

وبالسمع أدرك الأصوات، وفرَّق بينها، وأدرك الأخبار ومدلولاتها، وبالذوق أدرك سائر الطعوم، وعرف حلوها ومرها، وحامضها وسامجها، وبالشم أدرك سائر الروائح طيبها وكريهها. وباللمس أدرك الأجسام وفرق بين خشنها وناعمها، وحارها وباردها.

هذه هى طرق اكتساب الإنسان لعلومه ومعارفه (العقل والحواس) وهو مستعدٌّ دائماً للحصول على المعارف بواسطتها. إن الإنسان يتعقل الشىء ثم يصدر حكمه عليه بالإثبات، أو بالنفى، بالوجوب، أو الاستحالة أو الجواز، وينظر إلى الشىء فيحكم عليه بالطول، أو القصَر، بالبياض أو السواد، ويسمع الصوت فيحكم بأن المسموع صوت كذا أو كذا ... إلخ.

وهكذا يتحصل الإنسان على معرفته بالموجودات بقسميها: الغيب والشهادة، بواسطة العقل والحواس، بيْدَ أن ما كَان من الموجودات غيباً محضاً فإن طريق الحصول على معرفته والإيمان به هو السماع به، أو مشاهدة آثاره الدالة عليه.

فالمرء إذا أخبره أحد أن فلاناً مات، أو سافر، أو قدم من سفر، وكان بعيداً عنه لا تمكنه رؤيته حصل له العلم بحاله من موت أو سفر، أو قدوم منه، حصل له بواسطة الخبر الذى تلقاه عن غيره من عقلاء الناس، والمرء قد يمر بأرض فيجد بها سيولاً تجرى، وشعاباً طافحة بالماء فيعلم فوراً أن مطراً قد نزل بتلك الأرض، وإن لم يشاهد نزوله، ولم يخبره بنزوله أحد، وإنما حصل له علم به بواسطة الأثر، وهو سيلان الأودية وامتلاء الشعاب. وقد يمر الإنسان بمكان ما فيشم

روائح طيبة. فيعلم أن هناك عطاراً، أو أشجاراً من ذوات الروائح الطيبة، وإن لم ير ذلك بعينه، ولم يخبره به أحد من الناس. وهكذا يؤمن الإنسان بالغيب، ويحصل فيه على اليقين الكامل بواسطة خبر الثقات، أو آثار الأشياء التى آمن بها، وصدَّق بوجودها لدلالة آثارها عليها.

ومن هنا كان الإيمان بوجود الملائكة أمراً معقولاً، ومطلباً سهلاً ميسوراً، فالملائكة وإن كانوا غيباً، فقد دل على وجودهم الدليل الذى تثبت به كل الموجودات الغيبية عند الإنسان، والذى هو خبر الثقات، وآثار الموجودات. ونزيد هذه الحقيقة توضيحاً فنقول:

أليس الإنسان العاقل يخبره ذو صدق بحدوث كذا أو كذا من الممكنات فيصدقه فى خبره، ويعتقد صحة ما أخبره به ؟

أليس الإنسان العاقل يسمع صوتاً بعيداً عنه لم ير مصدره فيؤمن بذى الصوت، ويصدِّق بوجوده كأنه رآه وشاهده ؟

أليس الإنسان العاقل يجد كرسياً قد وضع فى غرفة فيعلم أن هناك أحداً قد وضع هذا الكرسى، وأعده للجلوس عليه، وإن لم ير من فعل ذلك ؟

أليس الإنسان العاقل إذا رأى كتاباً يعلم فوراً أن هناك أحداً أملى هذا الكتاب، وأن آلة قد طبعته، ولا يشك فى هذا ولا يتردد أبداً ؟

وحصول هذه اليقينيات له كانت كلها من طريق الخبر أو الأثر، وهما الدليل العقلى للإيمان بكل الغيوب. ولهذا سوف نتكلم عن الملائكة بملء الفم، ونقرر أن وجودهم يقينى، وحقيقة ثابتة لا يقوى عاقل على إبطالها أو نفيها. أما الذين كفروا بربهم، وتنكروا لعقولهم، وهبطوا من سماء كرامة آدميتهم ؛ فأصبحوا لا يؤمنون بشىء حتى بوجودهم ـ فإنا لا نقيم لهم وزناً، آمنوا أو كفروا، صدَّقوا أو كذبوا.

وهذا هو دليل وجود الملائكة عليهم السلام وهو الدليل الذى قدمنا أنه بواسطته آمن العقلاء بكل غيب تعذَّر أن يكون من قسم الشهادة، والدليل كما سبق أن عرفناه، يتكون من عنصرين: الأول الأخبار، والثانى الآثار.

الأخبار:

أولاً: أخبار اللّه تعالى، رب العالمين، وخالق الملائكة، والجن، والناس أجمعين، وكفى بما يخبر به اللّه تعالى دليلاً ؛ إذ الخالق أعلم بما خلق، ومن أخباره تعالى قوله: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ** ﴾ (البقرة: 30).

فقد تضمَّن هذا الخبر وجود الملائكة ومخاطبة اللّه تعالى لهم، ومخاطبتهم له سبحانه وتعالى، وهو دليل قاطع على وجود الملائكة. وقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** ﴾ (البقرة: 34).

ففى هذا الخبر أن اللّه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، وأنهم سجدوا إلا إبليس أبى، وهل يؤمر ويمتثل غير موجود ؟ !

وقوله تعالى: ﴿ **لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ (النساء: 172).

ففى هذا الخبر أن الملائكة المقربين لا يستنكفون من عبادة اللّه ولا يستكبرون، وهل يستنكف ويتكبر غير موجود ؟ وقوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ** ﴾ (الزخرف: 19).

وفى هذا الخبر ينكر تعالى، ويعيب على المشركين دعواهم أن الملائكة إناث حيث قالوا ما ليس لهم به علم، فهل يعقل أن يُعاب أو ينكر على غير موجود ؟

وقوله تعالى: ﴿ **وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ** ﴾ (النجم: 26).

ففى هذا الخبر أن كثيراً من الملائكة لا تغنى شفاعتهم عن أحد شيئاً، وهل يشفع أو لا يشفع غير موجود ؟ وأخيراً فهل هذه الأخبار الإلهية عن الملائكة وهى كثيرة جداً، وكلها تتحدث عن صفاتهم، وأحوالهم، وعباداتهم، وأعمالهم لا تدَل على وجود الملائكة، دلالة تُكسب اليقين ؟ اللهم بلى.

ثانياً: أخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام، وتحدثهم عنهم، ووصفهم لهم، وتلقيهم الوحى بواسطتهم، وهى كثيرة فلنكتف منها بما تواتر عن خاتم أولئك الرسل وإمامهم محمد -عليه الصلاة والسلام- فقد صح عنه ﷺ قوله: «**لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة**»[1] وقوله: «**إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم**»[2] وقوله: «**إن للّه فى الأرض ملائكة سياحين يبلغوننى عن أمتى السلام**»[3] وقال: «**إذا أمن الإمام فأمنوا ؛ فإن الملائكة تؤمن، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه**»[4]. وكان يقول فى دعائه: «**اللهم رب جبرائيل،**

(1) متفق عليه، واللفظ لمسلم، اللؤلؤ والمرجان (3/ 39)، مسلم (6/ 157)، والبخارى (4/ 138).

(2) رواه مسلم (2/ 80).

(3) إسناده صحيح، ورجاله رجال الصحيح، وقد أخرجه أحمد والنسائى وابن حبان. فضل الصلاة على النبى ﷺ من تعليق الألبانى الطبعة الثانية ص (36).

(4) متفق عليه واللفظ لمسلم. اللؤلؤ والمرجان (1/ 83)، مسلم (2/ 17)، والبخارى (1/ 187).

وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم»[1] كما أخبر ﷺ، وتحدث عن ملك الموت وأعوانه، وعن الروح، وعن ملكى القبر، وعن الحفظة، والكرام الكاتبين، وعن رضوان خازن الجنان، وعن مالك خازن النيران، وغيرهم من الملائكة فى أحاديث متواترة صحيحة، فكيف يسوغ عقلاً، أو يصح منطقاً وذوقاً أن تبلغ الإنسان هذه الأخبار الإلهية والنبوية، وهى أصح خبر فى الوجود، ولا يؤمن بالملائكة ولا يصدق بوجودهم ؟ ! اللهم لا.

الآثــــار:

آثار الملائكة الدالة عليهم دلالة قطعية كثيرة جداً، نكتفى بطرف منها فنقول: هذا القرآن الكريم كتاب اللّه بين أيدينا سوره العديدة، وآياته الكثيرة، وعلومه، ومعارفه، وإعجازه أثر من آثار الملائكة ؛ إذ تلقاه المنزَّل عليه ﷺ بواسطة، ولم يكن من اللّه مباشرة، فما هى الواسطة ؟ إنها جبريل كما أخبر بذلك مرسله، ومنزله فى قوله: ﴿ **وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٩٢) **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ** (١٩٣) **عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ** (١٩٤) **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ (الشعراء:192-195).

وهذا ملك الموت الذى يتخطفنا يومياً فيأخذ أرواحنا، ويُنهى بأخذها حياتنا، ويفصلها عن أجسامنا، فتُعدَم الحياة، فهل يشترط للتصديق به رؤيتنا له، وآثار فعله ظاهرة فينا لا تنكر ؟ اللهم لا. ولو سألنا خالقنا وقلنا: من يتوفانا ؟ لكان الجواب: ﴿ **قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ** ﴾ (السجدة: 11).

ثم إن كلاً من جبريل وملك الموت عليهما السلام قد رؤيا عياناً غير مرة وهما من أعاظم الملائكة، فجبريل قد دخل مرة المسجد وعشرات المصلين حاضرون، فانتهى إلى النبى ﷺ وهو جالس فجلس إليه، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع يديه على فخذيه، وأخذ يسأل رسول اللّه ﷺ وهو يجيبه، فسأله عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وأشراط الساعة، وكان ساعتئذ فى صورة رجل[2]. كما أن ملك الموت قد تواترت الأخبار برؤيته عند دنوه من المريض لقبض روحه، فكم من مريض تحدث بذلك، وأخبر به قبل وفاته بفترة زمنية ثم يموت.

الإيمان بالملائكة أحد أركان العقيدة الإسلامية:

وبعد: فإنه لم يبق بنا حاجة إلى سرد المزيد من الأدلة على وجود الملائكة، فلذا نشرع الآن

(1) رواه مسلم من حديث عائشة رضى الله عنها (2/ 185).

(2) هذا الحديث الذى ذكر إجمالاً رواه مسلم (1/ 28-29)، ورواه البخارى بمعناه (6/ 144).

فى تقرير كون الإيمان بالملائكة ركناً من أركان عقيدة المؤمن فنقول: لقد ذكر الله تعالى أركان العقيدة الإسلامية فى عدة آيات من كتابه، وذكر من بينها عقيدة الإيمان بالملائكة وذلك فى قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (البقرة:177). وفى قوله: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ (البقرة:285). وفى قوله: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴾ (النساء:136).

كما ذكر الرسول ﷺ فى حديث عمر المعروف بحديث جبريل أركان الإيمان الستة وذكر من بينها الإيمان بالملائكة وأقره جبريل على ذلك وصدقه؛ إذ كان هو السائل له فى محضر مئات الصحابة وهو فى صورة رجل، وبعد انصرافه أعلن الرسول ﷺ لأصحابه أن السائل كان جبريل عليه السلام[1].

وبهذا كان الإيمان بالملائكة ركناً من أركان عقيدة المؤمن التى لا تتم إلا به، وكان من شك فيه، أو حاول التشكيك كاذباً كافراً لا حظَّ له فى الإسلام، ولا مُقام له بين المسلمين؛ لتكذيبه لله ورسوله والمؤمنين، ولإنكاره لقضايا العقول، ومسلماتها البدهية.

خلق الملائكة

تعريف:

الملائكة: جمع ملأك، نقلت حركة الهمزة فيه إلى الساكن قبله، ثم حُذفت الألف تخفيفاً فصارت ملكاً؛ وهو مشتق من كلمة الألوكة التى هى الرسالة، والجمع ملائك وملائكة.

مادة خلق الملائكة:

الملائكة خلق عظيم، وعددهم كثير لا يأتى عليه العد، ولا يحصيه من دون الله أحد، خلَقهم الله من النور، وطبَّعهم على الخير، فهم لا يعرفون الشر، ولا يأمرون به، ولا يأتونه، ولا يفعلونه.

فلذا هم لربهم مطيعون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يسأمون من عبادة الله ولا هُم عنها يستكبرون، أخبر الرسول ﷺ عن مادة خلقهم فقال: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»[2].

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) إشارة إلى قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران:59)، وإلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر:26)، والحديث رواه مسلم (8/ 227).

تفاضل الملائكة

والملائكة يتفاضلون فى القرب من اللّه تعالى وعلو المنزلة كالبشر أو هم أكبر تفاضلاً، إن منهم الملائكة المقربين، لقوله تعالى: ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون** ﴾ (النساء:172). ومنهم حملة العرش لقوله تعالى: ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية** ﴾ (الحاقة:17).

ومنهم الكروبيون، ومنهم غير ذلك، وأفضلهم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل ملك الموت، وأعظمهم الروح الأمين عليهم السلام أجمعين.

أعمال الملائكة:

إن ما يقوم به الملائكة من أعمال لكثير جداً، ومختلف متنوع إلى حد كبير، وهذا بيان مجمل عما جاء فى القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة من وظائف الملائكة وأعمالهم التى أناطها اللّه تعالى بهم عبادة له وطاعة: ـ

1 ـ جبريل عليه السلام، ويسمى روح القدس أيضاً، وصفه اللّه عز وجل بالقوة والأمانة فى قوله تعالى: ﴿ **إنه لقول رسول كريم (١٩) ذي قوة عند ذي العرش مكين (٢٠) مطاع ثم أمين** ﴾ (التكوير:19-21).

وخصه بأشرف وظيفة، وهى السفارة بينه تعالى، وبين رسله عليهم السلام فكان ينزل بالوحى كما قال تعالى: ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين (١٩٢) نزل به الروح الأمين (١٩٣) على قلبك لتكون من المنذرين** ﴾ (الشعراء: 192 ـ 194).

وصح عن النبى ﷺ أنه رافقه فى أعظم رحلة تمت فى الوجود، وهى إسراء النبى ﷺ ومعراجه، فرافقه عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المسجد الأقصى، ومنه إلى سدرة المنتهى بالملكوت الأعلى[1].

2 ـ ميكائيل: ووظيفته التى وكله اللّه بها المطر والنبات.

3 ـ إسرافيل: ووظيفته التى وكل بها النفخ فى الصور يوم القيامة.

4 ـ ملك الموت عزرائيل: وهو موكل بقبض الأرواح، وله أعوان من الملائكة لقوله تعالى: ﴿ **حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون** ﴾ (الأنعام: 61).

---

(1) قصة الإسراء والمعراج ثابتة فى الصحيحين، راجع اللؤلؤ والمرجان (1/ 35-39)، والبخارى (1/ 92-94). ومسلم (1/ 99-101)، وقد ثبتت قبل ذلك بالقرآن وفيه سورة باسم الإسراء، وسيأتى تفصيل فى (الوحى الإلهى وطرقه) فيما سيأتى من موضوعات الكتاب - إن شاء الله تعالى.

5 ـ أعوان ملك الموت، وهم صنفان: ملائكة رحمة، وملائكة عذاب، وهم مع ملك الموت، المقصودون بقوله تعالى: ﴿ **تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ** ﴾.

6 ـ حملة العرش: عرش الرحمن عز وجل وهم أربعة، وإذا جاء يوم القيامة أضيف إليهم أربعة آخرون، لقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ (غافر:7). ولقوله تعالى: ﴿ **وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ** ﴾ (الحاقة:17).

7 ـ رضوان: وعمله الذى وكل به خزانة الجنان، فهو خازن الجنة ورئيس الخدم بها.

8 ـ خدم الجنة: وهم ملائكة لا يحصى عددهم إلا اللّه تعالى، قال تعالى: ﴿ **وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ** ﴾ (الرعد:23-24).

وورد أن للواحد من أهل الجنة خدماً لا يقلون عن ثمانين ألف خادم، وظيفتهم: خدمة أهل الجنة[1].

9 ـ الزبانية: وهم تسعة عشر ملكاً، وكلهم اللّه تعالى بالنار، فهم خُزانها يعذبون فيها أهلها، قال تعالى: ﴿ **سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ (المدثر:26-31).

ورئيس هؤلاء الخزنة يدعى مالكاً. قال تعالى فى الحديث عن أهل النار: ﴿ **وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾ (الزخرف:77، 78).

10 ـ الكرام الكاتبون: وعملهم كتابة أعمال البشر، وإحصاؤها عليهم، فعلى يمين كل مكلف ملك يكتب صالح أعماله، وعن يساره ملك يكتب سيئات عَمَله. قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾ (الانفطار:10-12). وفى الصحيح: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبزق أمامه فإنه يناجى اللّه تعالى ما دام فى مصلاه، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكاً، ليبصق عن يساره، أو تحت قدمه**»[2].

11 ـ الحفظة: عملهم حفظ الإنسان من الجان، والشيطان، والعاهات والآفات، قال تعالى: ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ (الرعد:11).

---

(1) روى الترمذى حديثاً فى هذا المعنى ولكن فى إسناده كلام.

(2) وإن قيل: كيف يبصق عن يساره وكاتب السيئات عن يساره؟ قيل: إن المؤمن فى الصلاة لا يفعل سوءاً قط فلذا ينضم كاتب السيئات إلى كاتب الحسنات، إذ الصلاة هى أم الحسنات ولا سيئة فيها، والحديث رواه الشيخان بلفظ قريب من هذا – اللؤلؤ والمرجان– (1/ 111).

قال ابن عباس رضي الله عنهما فى تفسير الآية: «ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه»[1]. وقال مجاهد: «يحفظونه فى نومه ويقظته من الجن والإنس، والهوام»[2].

12 ـ الملك الموكل بالرحم: لحديث البخارى ومسلم واللفظ له: «**إن الله عز وجل قد وكل بالرحم ملكاً فيقول: أى رب نطفة، أى رب علقة، أى رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضى خلقاً قال: قال الملك أى رب ذكر أو أنثى ـ شقى أو سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك فى بطن أمه**»[3].

13 ـ ملك الجبال: وهو ملك وكله الله بالجبال لحديث البخارى ومسلم: «**فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ فقال: يا محمد ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ... الحديث**».

14 ـ الملائكة السياحون: وهم ملائكة فى الأرض يبلغون سلام أمة محمد وصلاتها على نبيها ﷺ لحديث أحمد وهو صحيح الإسناد «**إن لله فى الأرض ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام**»[4].

15 ـ ملائكة الدعاء، وعملهم الذى وكلوا به أن العبد إذ دعا بدعوة لأخيه المؤمن وهو غائب قال الملك: «**آمين ولك بمثل ذلك**»، ولحديث مسلم: «**دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل، كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل**»[5].

16 ـ ملائكة العروج بأرواح العباد بعد الموت، لحديث مسلم: «**إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان فيصعدانها**» ـ قال حماد (راوى الحديث) فذكر من طيب ريحها وذكر المسك قال ـ: «**ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك وعلى ما كنت تعمرينه، فينطلق به إلى ربه عز وجل ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل**» .. وذكر للكافر عكس ذلك[6].

17 ـ منكر ونكير: وعملهما سؤال العباد فى قبورهم عن الرب تعالى، والدين، والنبى ﷺ أى يقولان له: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ لحديث الترمذى وهو حسن الإسناد وأصله فى الصحاح وفيه: «**إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر نكير، فيقولان: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: ما كان يقول، هو عبد الله ورسوله، فيقولان: قد**

(1) تفسير ابن كثير طبعة الحلبى (2/ 503).
(2) اللؤلؤ والمرجان (3/ 208)، والبخارى (1/ 83)، ومسلم (8/ 46).
(3) اللؤلؤ والمرجان (2/ 227/ 228).
(4) أخرجه النسائى وابن حبان، فضل الصلاة على النبى ﷺ بتعليق ناصر الدين الألبانى الطبعة الثانية (ص 36).
(5) معناه لمسلم (8/ 86). (6) مسلم (8/ 162).

كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً فى سبعين ثم ينور له فيه، ثم يقال له: نم فيقول: أرجع إلى أهلى فأخبرهم فيقولان: نم كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»، وإن كان منافقاً قال: «**سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله، لا أدرى، فيقولون: قد علمنا أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمى عليه، فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك**»[1].

هذا وإذا تتبعنا الآثار الواردة فى أعمال الملائكة ملاحظين الآيات القرآنية الدالة على الملائكة وأعمالهم مثل قوله تعالى: ﴿ **وَالصَّافَّاتِ** ﴾ ، ﴿ **فَالزَّاجِرَاتِ** ﴾ ، ﴿ **فَالتَّالِيَاتِ** ﴾ ، ﴿ **والنازعات** ﴾ ، ﴿ **والناشطات** ﴾ ، ﴿ **فالمدبرات** ﴾ ، ﴿ **فَالْمُقَسِّمَاتِ** ﴾ لقلنا فى صدق: إن الكون كله علويه وسفليه قد أنيط أمر تدبيره بالملائكة، وذلك بإذن ربهم تعالى، ويضاف إلى ذلك أن النبى ﷺ قال: «**أطت السماء وحق لها أن تئط، ما من موضع أربع أصابع إلا عليه ملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى**»[2].

بعض صفات الملائكة

إن الملائكة بذواتهم وصفاتهم من الغيب المحض، قد دل الدليل العقلى والشرعى على وجودهم، وعلى وجوب الإيمان بهم، والتصديق بأعمالهم، وأحوالهم. والمراد من الدليل العقلى والشرعى ما سبق أن ذكرناه من أنه الأخبار الصادقة ،والآثار الناطقة.

ومن خلال الأخبار الصادقة التى هى الدليل الشرعى تحصلنا على عدد كبير من صفات الملائكة، وأحوالهم نثبته هنا فى آخر بحث هذا الجزء من عقيدة المؤمن تقريراً وتأكيداً فنقول:

١ - حياؤهم:

إن الملائكة تستحى استحياء يليق بحالها ؛ إذ قد صح أن النبى ﷺ قال: «**ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة؟**»[3] يعنى بذلك الرجل: عثمان بن عفان ﷺ. ففى هذا الخبر الصادق الصحيح دليل على صفة الحياء للملائكة.

٢ - تأذيهم:

إن الملائكة تتأذى من المكروه كما يتأذى منه الإنسان لحديث مسلم: «**من أكل من الثوم، والبصل، والكراث فلا يقربن مسجدنا ؛ فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم**»[4] ولحديث

---

(1) رواه الترمذى (جنائز/ 70)، وأبو داود بمعناه (2/ 540،541)، وابن ماجه (جنائز/ 65)، وأحمد (3/ 126، 4/ 288).
(2) رواه أحمد (5/ 173)، والترمذى (زهد/ 9)، وابن ماجه (زهد/ 19)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبى.
(3) رواه مسلم (7/ 117).
(4) مسلم (2/ 90).

الصحيحين أيضاً «**إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة**»[1]، فعدم دخولهم البيت الذى فيه كلب أو صورة كراهية منهم لهما دليل على تأذيهم من هذا المكروه.

٣ ـ تنزههم عن الأعراض البشرية:

إن الملائكة منزهون عن الأعراض البشرية كالجوع، والمرض، والأكل والنوم، والتعب وما إلى ذلك، فقد جاء فى القرآن ما يدل على ذلك بدلالة الالتزام، إذ أخبر تعالى عنهم: ﴿ **يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ** ﴾ (الأنبياء:20). ولازم ذلك أنهم لا ينامون ولا يأكلون ولا يشربون ولا يتعبون.

٤ ـ خوفهم من الرب تبارك وتعالى:

إن الملائكة يخافون من اللّه تعالى، أثبت ذلك الخبر القرآنى فى مثل قول اللّه تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ (النحل:49،50). وقوله: ﴿ **وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** ﴾ (الأنبياء:28).

٥ ـ طاعتهم للّه تعالى:

إن الملائكة مطيعون للّه تعالى، لا يعصونه بحال من الأحوال، وذلك لقوله: ﴿ **لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ (التحريم:6). وقوله: ﴿ **عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** ﴾ (الأنبياء: 26، 27).

٦ ـ حبهم لمن يحب ربهم:

إن الملائكة تحب حباً يليق بحالهم، وحسب ذواتهم فقد دل الدليل الشرعى على أنهم يحبون، ففى حديث الصحيحين: «**إن اللّه تعالى إذا أحب عبداً نادى جبريل: إن اللّه قد أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادى جبريل فى السماء: إن اللّه قد أحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول فى الأرض**»[2].

٧ ـ دعاؤهم ولعنهم:

إن الملائكة ليدعون ربهم ويسألونه كما قال تعالى عنهم: ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ**

---

(1) متفق عليه واللفظ لمسلم، اللؤلؤ والمرجان (3/ 39)، مسلم (6/ 157)، والبخارى (4/ 138).

(2) اللؤلؤ والمرجان (3/ 205، 206)، والبخارى (9/ 173، 174)، ومسلم (7/ 40، 41).

للَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (غافر:7). وإنهم ليلعنون من لعنه ربُّهم سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ (البقرة:161، 162).

٨ـ عظم خلقهم وتفاوتهم فيه:

إن خلق الملائكة لعظيم، وهم يتفاوتون فيه تفاوتاً كبيراً، فقد صح أن لجبريل عليه السلام ستمائة جناح[1]، في حين أن من الملائكة من له جناحان فقط، كما قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فاطر:1).

روى أبو داود بسند صحيح أن النبي ﷺ قال: «**أذن لي أن أتحدث عن ملك من حملة العرش رجلاه في الأرض السفلى، وعلى قرنه العرش، ومن شحمة أذنه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام، فيقول ذلك الملك: سبحانك حيثُ كنت**».

وروى الحاكم وصححه ووافقه الذهبي في ذلك عنه ﷺ قوله: «**إن الله أذن لي أن أحدث عن ديك قد مرقت رجلاه الأرض، وعنقه مثنية تحت العرش، وهو يقول: سبحانك ما أعظمك!! فيرد عليه: لا يعلم ذلك من حلف بي كاذباً**»[2].

الجن والشياطين

وبمناسبة بحث الركن الثاني من عقيدة المؤمن «الإيمان بالملائكة عليهم السلام» نعرض لقضية الجن والشياطين؛ إذ الإيمان بوجودهما جزء من عقيدة المؤمن أيضاً، وذلك لأنهما من الغيب الذي أمر المؤمن بالإيمان به وبتصديق الله ورسوله فيما قالا في شأنه، وأخبرا به.

ولولا الرغبة في زيادة إنارة عقيدة المؤمن لما كان بنا حاجة إلى بحث هذه المسألة من العقيدة بحثاً مستقلاً، وذلك لأمرين: أولهما: أن من آمن بالله تعالى، وبعلمه، وقدرته، وحكمته لا يتردد في تصديق الله تعالى في أي شيء يخبر به من غيب أو شهادة، لاسيما مسألة كهذه حيث قررها الله تعالى، وأثبتها في عشرات الآيات من كتابه الكريم. وثانيهما: أن الأدلة العقلية،

---

(1) ثبت هذا في الصحيحين، اللؤلؤ والمرجان (1/ 4)، والبخاري (46/ 140)، ومسلم (1/ 109).

(2) ذكره صاحب الحبائك وعزاه إلى أبي داود، والذي وقفت عليه في أبي داود نصه: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام» والمراد من الديك أنه شبه الديك، ومعنى مرقت: خرقت، أبو داود (2/ 534).

والبراهين التى سقناها للإيمان بالملائكة عليهم السلام، هى بعينها يؤتى بها هنا، ويُستدل بها على وجود الجن والشياطين، وخلاصتها: أن الكائنات كلها ما بين غيب وشهادة، وأن الإنسان إذا كان فى مكان خلت منه سائر الأمكنة وأصبح كل ما لا يراه، ولا يسمعه، ولا يحس به لبعده عنه غيباً له، فإذا ما صدق به كان ذلك إيماناً منه بالغيب، وطريقه إليه هو الآثار الدالة، والأخبار الصادقة، فإذا وُجد أثر لشىء ما كان الإنسان مضطراً إلى التصديق به، وإن لم يره، ولم يسمعه، ولم يحس به بأية حاسة من حواسه التىَ هى مصدر حصوله على أغلب علومه، ومعارفه. كما أنه إذا أخبره ثقة بشىء من الممكنات فضلاً عن أن تخبره جماعة كثيرة يستحيل عادة تواطؤها على الكذب آمن بما أُخبر به، وصدق تصديقاً جازماً، بحيث لا يتردد فى صحة ثبوته أبداً، بل قد يُعد المكذب به ناقصاً فى عقله، هابطاً من شرف إنسانيته وكرامة آدميته.

ولما كان المؤمن قد آمن على مثل هذين الدليلين بالملائكة، وهم من الغيب المحض، فكيف لا يؤمن بعالم الجان والشياطين، وهما أقرب المغيبات إلى الملائكة عليهم السلام.

أدلة وجود الجان والشيطان

والآن نورد الأدلة والبراهين المثبتة لوجود الجن والشياطين بالآثار والأخبار كما برهنا بذلك على وجود الملائكة الأطهار، واكتفينا به:

١ - الآثــــار:

إن الآثار الدالة على وجود الجن والشياطين كثيرة جداً وحسبنا منها ما يلى:

1 ـ الصرع الذى لا يكاد يخلو منه زمان ولا مكان، ومنذ فجر التاريخ، ونعنى بالصرع ما كان سببه الأرواح الخبيثة، وهى أرواح الشياطين، وأما ما كان سببه الأخلاط الرديئة فذاك شىء آخر، فإنه قد يعالج بالأدوية المادية، وقد يشفى صاحبه، وقد لا يشفى، وإنما نعنى بالصرع الدال على وجود الجن والشياطين، الصرع الذى سببه الأرواح الخبيثة، ذلك الصرع الذى وقف الطب حتى فى أيام تقدمه، وقف حياله لا يبدى، ولا يعيد، فإنه أثر من آثار الجان والشياطين، ودليل قاطع على وجودهم.

2 ـ تكلم الجان على لسان الشخص الذى يحل فيه، ويتلبس به، وإخباره بأمور لم يكن الإنسان المصاب به يعرفها، حتى إن بعضهم ليتكلم بلغات لم يكن المصاب يعرف منها حرفاً واحداً.

3 ـ خروج الجان من الإنسان الذى حل فيه وركبه، بواسطة الرقى من ذوى الأرواح الطيبة، والنفوس الزكية، أو بواسطة الأرواح الخبيثة من البشر ممن يوالون الشياطين، ويتعاونون معهم،

وتصريح الجن بالخروج وعدم العودة بالمصروع، وذلك بعد تخويفه وتهديده من الرقى، وهذه المسألة قد يستغربها البعض، أو ينكرونها، غير أن الواقع أثبتها بما لا مجال للشك فيه بحال من الأحوال.

4 ـ ظهور بعض الجان لبعض الناس، ومخاطبتهم إياهم وهذا أيضاً متواتر الأخبار بحيث يعد إنكاره غباء وجهالة. أو مكابرة وجحوداً، لا يرضاهما العاقل لنفسه.

5 ـ الجرائم التى يرتكبها الإنسان بين الناس من لواط، وزنا، وقتل نفس، وسرقة، وشرب الخمر، وكفر، وعقوق، وكذب، وخلف للوعد، ونكث بالعهد، كل هذه الجرائم التى تتنافى مع الفطر البشرية، والشرائع الإلهية، والقوانين الدولية هى بدون شك آثار للشياطين ؛ إذ هى التى تحسنها للإنسان، وتزينها له، وتغريه بارتكابها، لإغوائه وإفساد روحه التى عليها مدار سعادته وشقائه فى الدار الآخرة ؛ إذ الشياطين فى إفساد أرواح الناس هى بمثابة الجراثيم التى تفسد أجسامهم وسواء بسواء.

وهنا نقول: سبحان الله إننا لو قلنا لإنسان مريض إن سبب مرضك أيها الأخ الجراثيم الفلانية، أو الفلانية فاستعمل لها الدواء الفلانى فإنك تشفى بإذن الله تعالى، لما تردد فى تصديقنا، ولبادر إلى استعمال الدواء، وجربه مع أنه لم ير الجراثيم، ولم يحس بها بأية حاسة من حواسه، وإنما صدقنا للأثر الذى شاهده وهو المرض القائم بجسمه، والذى يشعر بآلامه وأتعابه كل ساعة من ساعات أيام مرضه. وإذا قلنا له: إن نفسك مريضة، ولذا أنت تحب الكذب، والخيانة، وترغب فى الجريمة، وتميل إلى الخبث، وأن سبب مرض نفسك الشيطان فاستعمل له كذا وكذا فإنك تشفى بإذن الله لأنكر غالباً ولم يصدق، فى حين أن الدليل واحد فى المسألتين، وهى الآثار الدالة على المرض الجسمانى والروحانى، وعدم تصديقه بالمسألة الأخيرة أكبر دليل على وجود الشيطان ؛ إذ لولا صرفه عن التصديق بما ألقى فى نفسه من الريب، والشكوك لما كذّب، وأنكر أبداً، إذ ما ثبت به وجود الجراثيم فى الجسم وهو الأثر، هو عين ما يثبت به وجود الشياطين وهو الأثر أيضاً.

٢ ـ الأخبـــار:

إن الأخبار الإلهية، والنبوية الصادقة، والناطقة بوجود الجن والشياطين لكثيرة جداً، فلنكتف بذكر طائفة منها، ولنبدأ بأخبار الله تعالى:

١ ـ أخبار اللـه تعالـى:

أخباره تعالى المصرحة بوجود الجن والشياطين كثيرة، منها: قوله تعالى فى خلق الإنسان والجان: ﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ** ﴾ (الرحمن: 14، 15). وقوله فى بيان العلة فى خلقه للإنس والجن: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ**

مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات: 56 ـ 58).
وقوله تعالى فى الإخبار عن طاعة ملائكته له، وفسق إبليس عن أمره، وفى النهى عن اتخاذ إبليس وذريته أولياء: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ (الكهف:50).

وقوله تعالى فى إخباره بخلق الإنسان، وتصويره، وأمر ملائكته بالسجود له، وامتناع إبليس عن ذلك، وتوبيخه على عدم السجود، واعتذار إبليس عن عدم السجود لآدم، وهو عذر أقبح من ذنب، وعن طرد الله تعالى له من الجنة وإبلاسه، وإيعاده هو ومن تبعه من الناس بعذاب جهنم: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا[1] لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأعراف: 11 ـ 18).

وقوله فى الإخبار بأن شياطين الجن وشياطين الإنس يوحى بعضهم إلى بعض الباطل والكذب، لتضليل الناس، وإغوائهم بالفتن والشرور: ﴿ شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (الأنعام: 112).

وقوله تعالى فى الإخبار بما امتن به على عبده ورسوله سليمان عليه السلام، وتسخير الجن والشياطين له، حيث كان يستخدمهم عليه السلام فى شتى الأعمال والأغراض: ﴿ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ﴾ (سبأ: 12، 13). وفى آية أخرى يقول: ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (ص:37-39).

وقوله تعالى فى الإخبار عن جن نصيبين الذين حضروا صلاة الصبح مع الرسول عليه الصلاة والسلام فى بطن نخلة[2]، وكيف رجعوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان بالرسول ﷺ وينذرونهم مما يترتب على عدم إيمانهم من العذاب الأليم: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ

(1) المذؤوم: المعيب بأسوء العيوب، والمدحور: المطرود المبعد. (2) مكان بين مكة والطائف.

يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين (٢٩) قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم (٣٠) يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾ (الأحقاف: 29، 31).

وقوله تعالى فى أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر بما أوحى إليه من استماع الجن لقراءته، وبالذى دار بين الجن من أحاديث عجيبة، تحوى حقائق مدهشة عظيمة عن الجن، وعقائدهم، وأعمالهم، وأحوالهم: ﴿قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا (١) يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا﴾ (الجن: 1، 2). فى كذا آية من سورة الجن.

وقوله تعالى فى الأمر بالاستعاذة من الشيطان فى ثلاث آيات منها: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم﴾ (الأعراف: 200). ومنها ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم (٩٨) إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (٩٩) إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ (النحل: 98 - 100). ومنها: ﴿قل أعوذ برب الناس (١) ملك الناس (٢) إله الناس (٣) من شر الوسواس الخناس (٤) الذي يوسوس في صدور الناس (٥) من الجنة والناس﴾.

٢ ـ أخبار الرسول ﷺ

وهى كثيرة منها قوله ﷺ فى الإخبار عن القرين من الجن، والذى وكل بكل إنسان: «**ما من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن**» قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: «**وإياى إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير**»(1). وقوله ﷺ فى الإخبار عن دخول الشيطان مع الإنسان بيته، وتناوله من طعامه وشرابه وذلك من رواية مسلم: «**إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان** (لأولاده ومن معه من الشياطين): **لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء**»(2)، وقوله ﷺ فى النهى عن الأكل والشرب بالشمال والتعليل بأكل الشيطان وشربه بشماله: «**لا يأكل أحدكم بشماله ولا يشربن بها؛ فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بها**»(3)، وقوله ﷺ وهو يحذر المؤمنين من أن يبيت أحدهم وفى يده أثر طعام، أو إدام من أن يأتى الشيطان للحس ذلك من يده فيؤذيه: «**إن الشيطان حساس لحاس فاحذروه على أنفسكم، من بات وفى يده غمر فأصابه شىء فلا يلومن إلا نفسه**»(4)، وقوله ﷺ لما سأله الجن الزاد فى حديث الصحيح:

(1) مسلم (8/ 139). (2) مسلم (6/ 108). (3) رواه مسلم (6/ 109)، ومالك، وأبو داود.

(4) أخرجه الترمذى (أطعمة/ 48)، وأبو داود (1/ 30)، وابن حبان وغيرهم، ومعنى حساس: شديد الإحساس، ولحاس: كثير اللحس، غمر بفتح الغين والميم: رائحة الطعام.

«كل عظم ذكر اسم الله عليه وقع فى يد أحدهم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعر علف لدوابهم»[1] ومن هنا نهى رسول الله ﷺ عن الاستجمار بالعظم والروث، وقال معللاً النهى: «**فإنه زاد إخوانكم من الجن**»[2]، وقوله ﷺ فى صلاته بالليل: «**إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة ليقطع علىَّ الصلاة فأمكننى الله منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم** ... الحديث»[3]. وقوله ﷺ فى إرشاده لأمته أن تسأل الله تعالى عند سماع صياح الديك وتستعيذ بالله من الشيطان عند سماع نهيق الحمار: «**وإذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان فإنه رأى شيطاناً**»[4]، وقوله ﷺ فى الإرشاد إلى الآداب فى حديث البخارى: «التثاؤب من الشيطان»[5]، وقوله ﷺ أيضاً وهو يرشد أمته إلى كيفية رد كيد الشيطان ومجاهدته بدفع ما يلقيه من الشبه فى نفس العبد: «**يأتى الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته**»[6]، وقوله ﷺ فى الصحيح كذلك: «**إذا كان جنح الليل أو أمسيتم، فكفوا صبيانكم، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ... الحديث**».[7]

وجوب الإيمان بوجود الجن والشياطين:

لتلك الأدلة العقلية والفعلية، التى سقناها كان الإيمان بوجود الجن والشياطين واجباً حتماً، بل كان جزءاً من عقيدة المؤمن لا يتجزأ وكل محاولة لإخلاء العقيدة الإسلامية من التصديق بوجود عالمى الجن والشياطين تعد كفراً صراحاً، مخرجاً من الملة المحمدية، لأجل ما فى ذلك من التنكر للعقل، ورفض بدهياته، ولتكذيب الله تعالى فى أخباره، ولتكذيب الرسول ﷺ، وكفى بتكذيب الله تعالى، وتكذيب رسول الله ﷺ كفراً وباطلاً.

بعض معلومات عامة عن الجن والشياطين:

وها هى ذى بعض المعلومات عن عالمى الجن والشياطين، ونوردها تقريراً لمبدأ الإيمان

(1) رواه البخارى من حديث أبى هريرة وجاء فيه: «فقلت: فما بال العظم والروثة؟ قال: **هما من طعام الجن، وإنه أتانى وفد جن نصيبين، ونعم الجن، فسألونى الزاد، فدعوت الله لهم أن لا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا عليها طعاماً**» (7/ 59).

(2) رواه أبو داود والترمذى والنسائى. (3) متفق عليه، واللفظ للبخارى، اللؤلؤ والمرجان (1/ 109).

(4) متفق عليه واللفظ للبخارى، اللؤلؤ والمرجان (3/ 233)، متن البخارى (4/ 155).

(5) متفق عليه واللفظ للبخارى، اللؤلؤ والمرجان (3/ 327)، متن البخارى (4/ 152).

(6) متفق عليه واللفظ للبخارى، اللؤلؤ والمرجان (1/ 26).

(7) متفق عليه واللفظ للبخارى، اللؤلؤ والمرجان (3/ 16).

بوجودها، وتوضيحاً لكثير من معالم ذلك العالم الغيبي المجهول عند الذين يعيشون بعيدين عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

١ ـ مادة خلق الجن:

الجان هو أبو سائر الجن، وهو مخلوق من مادة النار المعروفة ،وكان خلقه قبل خلق الإنسان، وذلك لقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ** ﴾ (الحجر:26-27).

وهل السنة في خلق الجان وذريته كالسنة في خلق آدم وذريته ؟ بمعنى أن الجان الأول خلق من نار وأولاده خلقوا بطريقة أخرى كالتناسل ؟ محتمل والله أعلم.

٢ ـ لم سمي الجن جناً ؟

سمي الجن جناً لاجتنانهم، وهو استتارهم، وعدم ظهورهم للناس، لأن الاجتنان هو الاستتار، وهو مأخوذ من جن الليل إذا أظلم، فستر الأشياء بظلامه، ومنه سُميت جنة المقاتل وهي الخوذة التي يجعلها على رأسه في الحرب وسميت الجنة دار النعيم جنة، لأنها تستر بأشجارها الكثيرة الملتفة من يدخلها ،كما سمي الجنين في بطن أمه جنيناً لاستتاره ببطن أمه، وعدم ظهوره. قال تعالى في الشيطان من الجن: ﴿ **إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ** ﴾ (الأعراف:27).

٣ ـ افتقار الجن إلى الغذاء:

إن الجن مفتقرون إلى الغذاء المناسب لذواتهم كافتقار سائر الحيوانات والنباتات لأغذيتها المناسبة لها، والدليل على هذه الحقيقة: ما صح من أن الجن سألوا رسول الله ﷺ الزاد فقال لهم: «**كل عظم يذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً**»[1] ونهى ﷺ عن الاستجمار بالعظم، وقال: «**إنه طعام إخواننا من الجن**». كما نهى عن الأكل بالشمال والشرب بها وعلل ذلك بأن الشيطان يأكل ويشرب بشماله.

فثبت بهذه الأحاديث الصحيحة المخرجة في البخاري ومسلم أن الجن والشياطين يأكلون ويشربون، وذلك لأجل التغذية اللازمة لهم حسب ذواتهم والطبيعة التي خلقهم الله تعالى عليها.

٤ ـ الجن يتوالدون:

لا شك أن الجن والشياطين تتم بينهم عملية التوالد بحسب طبيعة خلقهم وتكوينهم، وأن

---

(١) تقدم تخريج هذا الحديث قريباً في فصل أخبار الرسول ﷺ.

لهم سنة فى ذلك يتم بحسبها وجود ذرية لهم، كما تتوالد سائر الأحياء، كل على نظام السنة التى جعلها الله تعالى له. ويشهد لهذه الحقيقة ويقررها القرآن الكريم: حيث جاء فيه قول الله تعالى: ﴿ **أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً** ﴾ (الكهف: 50).

فإن المنهى عن اتخاذه وذريته أولياء هو إبليس وذريته بدليل السياق إذ أوله: ﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً** ﴾ (الكهف:50).

كما ورد فى صحيح مسلم أن الشيطان يشارك الإنسان فى طعامه وشرابه وفراشه إن لم يذكر اسم الله تعالى عند أكله وشربه ومخالطة أهله[1]. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**لو أن أحدهم يقول حين يأتى أهله: باسم الله، اللهم جنبنى الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، ثم قدر بينهما فى ذلك، أو قضى ولد، لم يضره شيطان أبداً**»[2].

٥ ـ هل بين الجن والشيطان فرق ؟

نعم إن بين الجن والشيطان فرقاً كبيراً، ولكى تتجلى هذه الحقيقة واضحة نذكر أن الخلق الراقى أربعة أنواع وهى: الملائكة، والإنس، والجن، والشياطين.

فالملائكة: عالم روحانى مستقل، له خصائصه، وصفاته، وأحواله، وقد تقدم البحث مستفيضاً فى بيان حقيقة هذا العالم العلوى الكريم .

والجن: نوعان، شياطين لا خير فيهم البتة، وجن منهم الصالح، ومنهم الفاسد، فحالهم كحال الناس، منهم البار ومنهم الفاجر، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، بيد أن الشياطين أصلهم من الجن، وذلك، لأن إبليس كان من الجن لإخبار القرآن الكريم بذلك فى قوله تعالى: ﴿ **إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** ﴾ (الكهف:50).

ولما أبلس الشيطان، وطرد من الرحمة الإلهية، وانقطع من الخير كلية، كانت ذريته مثله بحكم الوراثة، لا خير فيهم أصلاً، فلا يعرفون إلا الشر، ولا يدعون إلا إليه. والمثل القريب لذلك أن الحية لا تلد إلا حية، فلم يطرأ ولن يطرأ على نسلها ـ منذ أن كانت ـ تغيير بحيث تلد أولاداً، لا سُم فيهم، ولا خبث معهم.

ثم إن كل من يخبث، ويتمرد، وينقطع عن الخير من أفراد الجان والإنسان يصبح شيطاناً، فإن

(1) تقدم هذا الحديث بلفظه قريباً فى فصل أخبار الرسول ﷺ .

(2) متفق عليه واللفظ للبخارى، اللؤلؤ والمرجان (2/ 100)، والبخارى (7/ 29، 30).

عتا قيل فيه مارد. وإن زاد عتوه وطغيانه قيل فيه عفريت.

وقد أثبت القرآن العظيم هذه الحقائق كلها، إذ جاء فيه أن من الجن شياطين، ومن الإنس شياطين قال تعالى: ﴿ شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (الأنعام:112). كما جاء فيه أن من الجن صالحين، وذلك فى قوله تعالى فيما حكاه عن الجن: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ (الجن: 11).

كما أخبر تعالى أنه خلق الجن كالإنس لعبادته وطاعته في قوله جل جلاله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (الذاريات: 56 ـ 58).

كما أخبر تعالى أن الشيطان يأمر بالفحشاء فى قوله: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً ﴾ (البقرة: 268).

كما أخبر تعالى أن الشيطان يضل من يتبعه، ويهديه إلى عذاب السعير فى قوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (الحج: 3، 4). وهذا هو النوع الذى لا خير فيه من شياطين الجان، وهو إبليس عليه لعائن الله تعالى.

٦ ـ هل الجن والشياطين يتشكلون ؟

لا شك فى أن الجن كالشياطين يتشكلون بأشكال مختلفة، ويتلونون تلوناً كبيراً، وهذا مما دل عليه دليل السمع، والمشاهدة. وهو من الممكنات الجائزة عقلاً، إذ تصور وجودها لا يوجب تناقضاً عقلياً أبداً.

ومن الأخبار الدالة على تشكل الجان بأشكال متعددة ما يلى:

1 ـ مجيء الشيطان إبليس دار الندوة فى مكة ورجال قريش مجتمعون فيها للتشاور فى أمر النبى محمد ﷺ ودعوته الإسلامية التى أظهرها فيهم، فتحيروا لها، وعظم عندهم أمرها، فاجتمعوا يبحثون عن تخريج لهم منها، ولو كان قتل النبى ﷺ، أو حبسه، أو نفيه، فهم كذلك حتى دخل عليهم الشيطان فى صورة رجل كبير محترم من رجالات نجد ومشائخها الموقرين وشارك فى اجتماعهم، ومداولاتهم، ورجح لهم اقتراحاً حاز أغلبية الأصوات، وهو أسوأ اقتراح تقدم به إنسان وأقبحه، وأكثره شراً وفساداً، ألا وهو الحكم بقتل الرسول ﷺ. (1)

(1) ذكر القصة ابن كثير فى البداية والنهاية (3/ 175-176)، وابن هشام (2/ 103-1-5).

فهذه الحادثة متواترة لا مجال للشك فيها فضلاً عن إنكارها وجحودها.

2 ـ تشكل جان من جنان المدينة النبوية فى صورة حية، لما روى مسلم أن أبا سعيد الخدرى قال: كان فتى منا حديث عهد بعرس، فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار، فيرجع إلى أهله، فاستأذنه يوماً، فقال له رسول الله ﷺ: «خذ عليك سلاحك، فإنى أخشى عليك قريظة» فأخذ الرجل سلاحه، ثم رجع، فإذا امرأته بين البابين قائمة، فأهوى إليها بالرمح ليطعنها به، وأصابته غيرة، فقالت له: أكفف عليك رمحك، وادخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى. فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به، ثم خرج فركزه فى الدار فاضطربت عليه، فما يُدرى أيهما كان أسرع موتاً: الحية أم الفتى ؟؟ (1)

3 ـ تشكل شيطان فى صورة إنسان، وسرقته من تمر الصدقة كما جاء فى حديث أبى هريرة عند البخارى، إذ فيه ما معناه أن أبا هريرة جعله رسول الله ﷺ على حراسة تمر الصدقة «الزكاة» فكان الجان يأتيه فى صورة إنسان ويأخذ من تمر الزكاة، فقبضه، وأراد أن يوقع به فاعتذر اللعين فتركه، ثم أتى للمرة الثالثة، وعندها عزم أبو هريرة على أن يذهب به إلى رسول الله ﷺ غير أن الشيطان اعتذر كذلك بأن له عيالاً، وأنه مضطر، وطلب من أبى هريرة أن يعفو عنه، على أن يعلمه آية من كتاب الله تعالى من قرأها فإن الشيطان لا يقربه. وهذه الآية هى آية الكرسى، فعفا عنه وتركه. ولما لاقى أبو هريرة رسول الله ﷺ بادره النبى ﷺ قائلاً: ما فعل أسيرك البارحة. فقال له أبو هريرة: كان من أمره كذا وكذا ... فقال له النبى ﷺ «صدقك وهو كذوب !!!». (2)

تنبيه:

على إثر تقريرنا أن الجن والشياطين يتشكلون، كما تتشكل الملائكة ننبه إلى أنه لم يثبت لدينا خبر صحيح عن كيفية تشكل الملائكة، والجان، والشياطين، غير أنه لا يبعد أن يكون الله تعالى قد علمهم أسماء يدعونه بها، أو كلمات يقولونها فيتم لهم ذلك التشكل على الصورة التى يريدون، وفى حدود ما أذن لهم فيه، بدليل أن الشيطان لا يقدر على التمثل بصورة الرسول ﷺ لقوله عليه الصلاة والسلام: «**من رآنى فقد رآنى حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل بى**». (3)

---

(1) مسلم (7/ 40).

(2) رواه البخارى تعليقاً (3/ 125).

(3) متفق عليه واللفظ لمسلم، اللؤلؤ والمرجان (3/ 80)، والبخارى (9/ 42)، ومسلم (7/ 54).

٧ ـ أيـــن يسكـــن الجـــان ؟

الغـالـب فى الجن والشيـاطين أنهـم يسكنون الخـرائب، والحشـوش، والمزابل، والقمـائم لحديث أبى داود «**إن هذه الحشـوش محتضـرَة، فإذا أتى أحدكـم الخلاء فليقل: أعوذ بالله من الخبث والخبائث**».

ومن هنا كـانت الشيـاطين تنزل على أخبـاث الرجال والنساء من أهل الآثام والأفـاكين، الملوثين بالذنوب، والجرائم العظام. قال تعالى: ﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ** ﴾ (الشعراء: 221 ـ 223).

٨ ـ هل الجن تسترق السمـع من المـلأ الأعلـى ؟

نعم إن الله تعالى أعطى الجن والشياطين قدرة على العروج إلى الملكوت الأعلى، فلذا هم يعرجون كما تعرج الملائكة من الأرض إلى السماء، ويسترقون السمع من الملائكة، ويهبطون به إلى الأرض، ومن كان له ولى من الإنس يفضى به إليه، ليحدث به الناس، فيفتنهم، ويغويهم ويشهد لهذه الحقيقة ويثبتها ما قصه الله تعالى فى كتابه، وحكاه عن الجن أنفسهم فى قوله: ﴿ **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا** ﴾ (الجن: 8 ـ 10).

كما يؤكد هذه الحقيقة حديث البخارى، والذى فيه أن النبى ﷺ قال: «**إن الملائكة تنزل فى العنان وهو السحاب، فتذكر الأمر قضى فى السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم**»[1].

٩ ـ الجن أقل قدراً وأدنى كرامة من الإنســان:

إن الجن حتى الصالحون منهم لأقل قدراً، وأدنى كرامة، وأنقص شرفاً من الإنسان، إذ قرر الخالق عز وجل كرامة الإنسان، وأثبتها فى قوله: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ (الإسراء: 70).

---

(1) البخارى (4/ 135).

ولم يثبت مثل هذا التكريم للجان لا فى كتاب من كتب اللّه، ولا على لسان رسول من رسله عليهم السلام، فتبين بذلك أن الإنسان أشرف من الجان، ويدل على ذلك أيضاً شعور الجن أنفسهم بنقصانهم، وضعفهم أمام الإنسان، يدل على ذلك أنهم كانوا إذا استعاذ الإنس بهم تعاظموا وترفعوا لما فى استعاذة الإنسان بهم من تعظيمهم، وإكبارهم وهم ليسوا كذلك فيزدادون رهقاً أى طغياناً وكفراً. قال تعالى فى الحديث عنهم: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (الجن: 6).

ويشهد لذلك أيضاً أن الإنسان إذا توسل بهم أو بأسماء عظمائهم، أو أقسم بأشرافهم أجابوه، وقضوا حاجته، كل ذلك شعور منهم بالضعف، والحقارة أمام ابن آدم الكريم على اللّه تعالى إذا آمن باللّه تعالى، وعبده موحداً له فى ربوبيته، وعبادته، وأسمائه، وصفاته أما بدون ذلك فإن الإنسان كالجان، وصالحو الجان أفضل وأكرم من كفار بنى آدم ومشركيهم.

١٠ ـ هل صالحو الجن يدخلون الجنة ؟

قد سبق أن قررنا فيما تقدم، وبينا بوضوح أن الجن غير أولاد إبليس، خُلقوا لعبادة اللّه تعالى وطاعته، شأنهم فى ذلك شأن بنى الإنسان، وأن منهم الصالحين، ومنهم دون ذلك، وعليه فالصالحون منهم، وهم أهل الإيمان والتقوى يدخلون الجنة، وينعمون فيها إن هم ماتوا على الإيمان والتوحيد، والتقوى والعمل الصالح.

والدليل على هذه الحقيقة العلمية عموميات فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ (البروج:11). وقوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ (الأنبياء: 94). وقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (المائدة: 9).

فكلمة (مَنْ) من ألفاظ العموم فيدخل فيها كل من حقق الشرط الذى قرن بها من إنس وجن، ويتلقى الجزاء، وهو المغفرة والجنة كل من حقق الشرط من إنس وجن. وأصرح فى الدلالة من هذا قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن: 46). فى سياق ذكر الإنس والجن معاً.

١١ ـ هل الجن يؤذون الناس ؟

إن أذى الجن للإنس ثابت لا يُنكر، حيث ثبت ذلك بالدليل السمعى، والدليل الحسى، والعقل لا يحيله، بل يجيزه ويقره، ولولا المعقبات من الملائكة التى أناط الله تعالى بها حفظ الإنسان لما نجا من الجن والشياطين أحد.

وذلك لعدم رؤية الإنسان لهم، ولقدرتهم على الانتقال والتحول بسرعة، لكون أجسامهم من اللطافة بحيث لا نشعر بها، ولا نحس، ومن هنا كان مما لا شك فيه أن بعض الجن يؤذون بعض الناس، إما لكون الإنسان قد تعرض لهم بالأذى فآذاهم بصب ماء حار عليهم، أو ببوله عليهم، أو بنزوله فى بعض منازلهم وهو لا يشعر، فينتقمون فيؤذونه.

وإما لمجرد الظلم من بعضهم، فيؤذون الإنسان بدون سبب كما يحدث ذلك بين الإنسان وأخيه الإنسان ؛ إذ أحياناً يؤذى الإنسان أخاه لسبب خاص، وأحياناً لمجرد الظلم، كما هو مشاهد فى الناس عند فساد فطرهم، وضعف إرادتهم، وعقولهم، وقد تقدم حديث الصحيح وجاء فيه أن الشاب الأنصارى لما طعن الجنى المتمثل فى صورة حية، ما ماتت الحية حتى انتقم منه الجن، وقتلوه فمات لفوره حتى قال أبو سعيد: «لم يدر أيهما كان أسرع موتاً من صاحبه الحية أم الفتى؟»[1] ولشهرة هذه الحقيقة، وتسليم الناس بها لا نطلب لها إيراد شواهد أخرى، ونكتفى بحادثة الأنصارى الثابتة فى صحيح مسلم، وبذكر حادثة أخرى تمت فى بيتنا وعشنا آلامها، وعانينا آثارها السيئة.

إنه كان لى أخت أكبر منى تدعى «سعدية»، وكنا يوماً ونحن صغار نطلع عراجين التمر من أسفل البيت إلى سطحه بواسطة حبل يربط به القنو (العرجون) ونسحبه إلى السطح ونحن فوقه، فحصل أن أختى سعدية جرت الحبل، فضعفت عنه، فغلبها فوقعت على الأرض على أحد الجنون، فكأنها بوقوعها عليه آذته أذىً شديداً، فانتقم منها فكان يأتيها عند نومها فى كل أسبوع مرتين أو ثلاثاً، أو أكثر فيخنقها، فترفس المسكينة برجليها، وتضطرب كالشاة المذبوحة ولا يتركها إلا بعد أن تصبح أشبه بميتة، ونطق مرة على لسانها مصرحاً بأنه يفعل بها هذا ؛ لأنها

---

(١) رواه مسلم وتقدم فى (هل الشياطين يتشكلون؟).

آذته يوم كذا فى مكان كذا .. وما زال يأتيها ويعذبها بصرعة تأتيها عند النوم فقط حتى قتلها بعد نحو عشر سنوات من العذاب الذى لا يطاق، فصرعها ليلة على عادته فما زالت ترفس برجليها وتضطرب حتى ماتت ـ غفر الله لها، ورحمها آمين.

هذه الحادثة عشتها، وبعينى رأيتها ،وما راء كمن سمع !!!

فائدة عظيمة

ونختتم هذا البحث فى موضوع الجن والشياطين بفائدة جليلة، وهى أن التحصن من الشياطين، والاحتراز منهم ممكن، إذا استعمل المؤمن واحداً من سبعة أشياء وهى: ـ

1 ـ الاستعاذة بالله تعالى، لقوله عز وجل: ﴿ **وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ (فصلت:36). ولقول الرسول ﷺ فى حديث الصحيحين: «**إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»[1].

2 ـ قراءة المعوذتين: ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ** ﴾ و ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ** ﴾ ، لحديث النسائى وغيره وهو حديث حسن الإسناد «**يا ابن عبَّاس ألا أدلك أو ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون ؟**» قال: بلى يا رسول الله. قال: «**قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس هاتين السورتين**»[2].

3 ـ قراءة آية الكرسى: ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴾ (البقرة: 255). لحديث أبى هريرة فى صحيح مسلم وقد تقدم[3] حيث جاء فيه أن الشيطان لما ألقى أبو هريرة عليه القبض قال: «أطلقنى وأعلمك آية لا يقرؤها أحد ويقربه شيطان أبداً»، وقد أقر الرسول ﷺ ذلك بقوله: «**صدقك وهو كذوب**» .

---

(1) متفق عليه واللفظ لمسلم، اللؤلؤ والمرجان (3/ 199)، ومسلم (8/ 31)، والبخارى (8/ 34،35).
(2) النسائى (8/ 220، 221).
(3) رواه مسلم، وتقدم فى (هل الجن والشياطين يتشكلون)؟

4 ـ قراءة سورة البقرة بكاملها، لحديث مسلم وفيه: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة»[1].

5 ـ ذكر لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير فى يوم مائة مرة، فإن من فعلها ؛ كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه»[2].

6 ـ ذكر اللّه تعالى، لحديث الترمذى وفيه قال يحيى بن زكريا: «وآمركم أن تذكروا اللّه تعالى ؛ فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى إثره سرعان حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم. كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر اللّه تعالى»[3].

7 ـ الوضوء عند الغضب، فمن غضب فليتوضأ، فإنه يعصم نفسه من الشيطان أن يحمله على ارتكاب ما لا ينبغى، أو ما لا يحسن من قول أو فعل، وذلك لحديث أبى داود: «**إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ**»[4].

* * *

(1) رواه مسلم (2/ 188).
(2) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان (1/ 525).
(3) الترمذى (أدب/ 78).
(4) أبو داود (2/ 550)، وأحمد (4/ 226).

الركـن الثـالـث من أركـان عقيـدة المـؤمـن

الإيمــان بالكتـب

تعـريـف:

الكتب جمع كتاب، والكتاب: مصدر كتب يكتب كتباً وكتاباً وكتابة، إذا جمع الحروف، وألف بينها، فكانت كلمات ذات معان خاصة، ثم كون من تلك الكلمات ذات المعانى جملاً مفيدة تسمَّى كلاماً.

فالكتاب إذاً هو ما حوى كلاماً مفيداً، ذا أغراض متعددة. وكتب اللّه تعالى التى يجب الإيمان بها: هى الصحف التى حوت كلام اللّه عز وجل الذى أوحاه إلى رسله عليهم السلام فكونت كتباً، أو بقيت صحفاً لم تجمع، ولم يتكون منها كتاب خاص، فالصحف كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام. والكتب كالتوراة، والزبور، والإنجيل والقرآن العظيم.

حقيقة الإيمان بالكتب:

إن معنى الإيمان بالكتب الإلهية الذى هو جزء من عقيدة المؤمن: التصديق الجازم بما أوحى اللّه تعالى من كلامه الخاص إلى من اصطفى من رسله عليهم السلام، فَجُمع ودوِّن فكان صحفاً مطهرة، وكتباً قيمة.

فما عرف منها آمن به المؤمن تفصيلاً، وما لم يعرف آمن به إجمالاً.

ما عرف من الكتب الإلهية
وما لم يُعرف

إن المصدر الوحيد الذى يرجع إليه فى معرفة الكتب الإلهية بالتفصيل هو القرآن الكريم وحده، إذ هو الكتاب المحفوظ حفظاً، لا يتطرق إليه معه الزيادة، ولا النقص، ولا التحريف، ولا التغيير، أو التبديل، بحال من الأحوال ؛ لأنه من ساعة نزول الآية منه أو الآيات، أو السورة القصيرة أو الطويلة ورجال متوفرون لكتابته فى سطورهم، وحفظه فى صدورهم، فلم يتم نزوله فى خلال الثلاث والعشرين سنة من عهد النبوة المحمدية حتى حفظه عن ظهر قلب مئات الرجال الأذكياء الأمناء، ثم لم يمض غير قصير زمن حتى أصبح حفَّاظ القرآن غيباً فى الصدور عشرات آلاف من الرجال الأفاضل، والنساء الفضليات، واستمر محفوظاً فى الصدور، ومدوناً فى السطور، ترعاه دول، وأمم، وشعوب، وحكومات، وتتوارث حفظه، ورعايته الأجيال جيلاً

بعد جيل إلى يومنا هذا. وأكبر شاهد أني أنا كاتب هذه العقيدة أحفظه عن ظهر قلب، وكذا والدي رحمه الله، وجدي كذلك، وقد يكون جد أبي كذلك. وسوف يستمر القرآن محفوظاً بحفظ الله تعالى له إلى قرب نهاية هذه الحياة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:9). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:41، 42).

وقد ذكر القرآن الكريم من الكتب السابقة صحف إبراهيم، وصحف موسى وثلاثة كتب هي:

توراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى عليهم السلام، ذكرها في مواضع متفرقة منه: نذكر منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ (الفرقان: 35).

والمراد من لفظ الكتاب في هذه الآية التوراة، وقوله تعالى في الحديث عن اليهود: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ (المائدة: 43، 44). وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (الإسراء: 55). وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ﴾ (الحديد:27). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (الأعلى: 18، 19).

فقد جاء في هذه الآيات ذكرُ ثلاثة كتب إلهية مع كل من صحف إبراهيم وموسى، كما جاء في مواضع أخرى من القرآن ذكر بعض ما جاء فيها من أخبار نحو قوله تعالى في التوراة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة:45).

حيث ذكرت حكماً من أحكام القصاص في الأطراف. ونحو قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ (الفتح:29).

فقد نصت هذه الآية القرآنية على أن وصفَ الرسول محمد ﷺ ووصف أصحابه في كل من التوراة والإنجيل بنفس المعنى الذي حوته هذه الآية القرآنية الكريمة. كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ

إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ﴾ (النجم: 36-41).

فقد نصت هذه الآيات من القرآن الكريم على أن فى صحف كل من إبراهيم وموسى: الإخبار بأن النفس المذنبة يوم القيامة لا يحمل عنها ذنبها غيرها، وأن الإنسان ليس له من نتائج العمل إلا ما عمله وسعى فيه بنفسه، كما أن سعى الإنسان سوف يعرف به، ويجزاه كاملاً غير منقوص.

فهذه الكتب التى ذكرت فى القرآن الكريم بأسمائها، وأسماء أصحابها الذين نزلت عليهم، يؤمن بها المؤمن تفصيلاً كما ذكرت مفصلة، ويؤمن بباقى كتب الله تعالى التى لم تذكر فى القرآن مفصلة، حيث لم يرد فى القرآن الكريم ذكر أسمائها، ولا أسماء من نزلت عليهم، وإنما ذكرت مجملة كما فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: 25). وكما فى قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (البقرة: 213).

فقد جاء فى هاتين الآيتين ذكر الكتب مجملاً فيؤمن بها المؤمن مجملة، وإن لم يعرف أسماءها ولا أسماء من أنزلت عليهم.

وهكذا تتلخص عقيدة المؤمن فى الإيمان بالكتب بأنه يؤمن بكل كتاب أنزله الله تعالى على من اصطفى من رسله، لحمل رسالاته، وإبلاغها إلى عباده، فما عُرف منها مفصلاً آمن به مفصلاً، وما عرفه منها مجملاً آمن به مجملاً. ولا يؤمن ببعض ويكفر ببعض تعصباً وضلالاً، كما هو حال اليهود والنصارى الذين آمنوا بالتوراة المحرفة، والإنجيل المبدل المغير، وكفروا بالقرآن المحفوظ الباقى غضاً طرياً كما نزل، والصافى المحض، الذى لم يُشب. فكانوا كمن آمن بالباطل وكفر بالحق. وهم ـ يعلم الله ـ لكذلك.

على أى دليل آمن المؤمن بالكتب ؟

إن المؤمن لم يكن فى حاجة إلى أدلة عقلية، ولا حسية سمعية ليؤمن بالكتب الإلهية بعد أن آمن بالله وملائكته إيماناً راسخاً، لا تزعزعه أعاصير الشك، ولا تعصف به عواصف الأوهام مهما كانت عنيفة قوية ؛ لأنه يبنى دائماً أسس معتقده على العلم والمعرفة، ويتحاشى دوماً أن يؤمن إيمان التقليد والتبعية، فلذا سنذكره هنا بأصل كل الأدلة، وأم كل البراهين ليقيم اعتقاده بالكتب عليهما، كما أقام ويقيم كل معتقداته عليها ؛ إذ هما الدليلان اللذان لا يسقطان، والبرهانان اللذان لا يُغلبان، وهما دليلا الأثر والخبر اللذان ثبت بهما كل غيب، وآمن به كل

عقلاء البشر، فمن دليل الأثر نكتفى بأثر واحد وهو القرآن الكريم، الكتاب الذى دل وجوده دلالة قوية قطعية على وجود منزله، وعلى علمه، وقدرته، وحكمته، ورحمته، ودل على نبوة من أنزل عليه، وعلى رسالته، وعلمه، وحكمته، وفضله، وشرفه، وكماله، كما دل بالتالى على ذات نفسه، بأنه كتاب الله، ووحيه، وتنزيله، كما قرر نزول كتب الله السابقة النزول عليه، حيث ذكر صحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى عليهم السلام، وذكر طرفاً مما جاء فيها من أخبار وأحكام، كما قرر أن لله كتباً أخرى لم يكن اليوم بيد الناس منها شيء.

وبعد: فأى أثر من الآثار الدالة على غيرها دل دلالة القرآن الكريم على نفسه وعلى غيره من كتب الله تعالى ؟؟

إن من يصغى إلى صوت العقل، ويستمع إلى شهادة الفطرة، ويحكم شواهد الوجدان البشرى ويرضى بحكمها، لا يسعه أبداً غير الإيمان بالله رباً، وبمحمد نبياً ورسولاً، وبالقرآن إماماً وحاكماً، وبالإسلام شرعاً وديناً، كل ذلك لدلالة القرآن العظيمة التى لا أرى ما هو أعظم منها فى باب الدلالات على اختلافها وتنوعها ؛ إذ القرآن ـ وهو كتاب معجز ـ قد حوى علوماً ومعارف لم يتأتَّ للبشر أفراداً وجماعات، وأمماً وشعوباً الإتيان بمثله حتى ولو أضيف إليهم العالم الثانى (الجن)، والتحدى ما زال قائماً فى قوله تعالى: ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ (الإسراء: 88).

القرآن الذى هذا هو واقعه قد ثبت ثبوتاً قطعياً يغنينا أيضاً أنه نزل وحياً على محمد، النبى الأمى ﷺ، ولم يكن من تأليف أحد من الخلق، ولا من نظمه فضلاً عن أن يكون من تأليف محمد ﷺ، أو من نظمه، وهو الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب ؛ إذ حكم العادة البشرية جار على أن من لم يقرأ ولم يكتب، ولم يجلس بين يدى معلم قط، يستحيل فى حقه أن يأتى بمثل القرآن فى علومه، ومعارفه، وشرائعه وآدابه، وقصصه وأخباره، يستحيل فى حقه أن يأتى بمثله من نفسه، لاسيما وأن المنزل عليه ﷺ قد قضى أربعين سنة من عمره المبارك لم يتكلم فيها بوحى، ولم ينطق فيها بقرآن قط.

وبالجملة فإن دلالة القرآن على ما ذكرنا من وجود الله تعالى، وعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته، وعلى نبوة محمد ورسالته وفضله، وشرفه، وكماله، وعلى أن القرآن نفسه وحى الله، وكتابه، وأن الكتب التى سبقته هى كذلك كتب الله، مُنزلة وموحى بها إلى من نزلت عليه من رسل الله، وأنبيائه، دلالة عقلية منطقية، لا ترد بحال، وبرهان عقلى لا يغلب بآخر، وأن كل من

أراد أن ينفى عن القرآن دلالته العظيمة على ما ذكرنا إنما أراد أن يتورط فى إثبات مستحيلات قضت كل العقول باستحالة إثباتها وهى:

1 ـ وجود كلام بدون متكلم

2 ـ وجود علم بدون عالم.

3 ـ وجود رسالة بدون رسول ولا مرسل.

4 ـ وجود نبوة بدون نبى ولا منبئ.

5 ـ وجود دلالة بدون دليل.

6 ـ وجود أثر بدون مؤثر.

هذه ستة مستحيلات كلها يقول بها من يركب رأسه، ويحاول أن ينكر دلالة القرآن على ما ذكرناه آنفاً. وهل يليق بعاقل أن يرتكب هذه الحماقات، ويقول. بتجويز هذه المستحيلات الستة؟ اللهم لا.

ودليـل الخبـر:

ما الذى نورده من الأخبار وهى متكاثرة متواترة ؟ إن العاقل الحى من الناس ليخجل إذا أراد أن يدلل على وجود البدهيات العقلية، والضرورات الكونية.

أرأيت لو قام أحد فى وسط جمع حاشد من الناس، يدلل لهم فى حماس على وجود الشمس والقمر، والأرض والسماء، أو على حاجة العطشان إلى الماء، والجائع إلى الطعام، أو المريض إلى الدواء، والخائف إلى الأمان، فكيف يكون حاله من الغرابة والعجب ؟ !

إذاً فإن حال من نصب نفسه للناس يدلل لهم على أن الله تعالى قد أنزل كتباً، أوحاها إلى رسله بعد أن قرأ الناس تلك الكتب، وعملوا بها، وانتفعوا بهديها، ورفعتهم إلى المستوى اللائق بهم من الكمال البشرى، ومنذ آلاف السنين، لأعجب وأغرب من حال الأول ـ والله المستعان !!.

ومع هذا فسوف نورد أخباراً هى أصدق أخبار تلقاها الإنسان منذ أن كان: هى أخبار الله تعالى الخلاق العليم، ومَن أصدق من الله حديثاً ؟ يقول تعالى فى تقرير إنزاله الكتاب على عبده ورسوله محمد ﷺ ليحكم بين الناس: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ** ﴾ (النساء: 105).

ويقول فى الامتنان على رسوله بما فضله وأنعم به عليه: ﴿ **وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا** ﴾ (النساء: 113).

ويقول في الإخبار عن توحيده في ألوهيته، وبيان إفضاله وإنعامه على خلقه بإنزال الكتاب بالحق على رسوله مصدقاً لما بين يديه من الكتب التي سبقته، وبإنزال التوراة، والإنجيل، والفرقان: ﴿ الم (1) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (2) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (3) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ (آل عمران: 1 ـ 4).

ويقول في تقرير وحيه إلى أنبيائه ورسله، وإيتائه داود زبوراً، وتكليمه موسى تكليماً، وفي بيان الحكمة من إرسال الرسل: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (163) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (164) رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: 163 ـ 165).

ونكتفي بهذا القدر من أخبار الله تعالى محيلين من أراد المزيد على كتاب الله القرآن الكريم، فإن فيه من أخبار الله تعالى المصرحة بوحيه وكتبه، وبأسماء كتبه، وأسماء رسله الذين أوحى إليهم، وأنزل كتبه عليهم، الأمر الذي لا يترك مجالاً لأدنى شك يمكن أن يوجد في نفس إنسان في شأن الكتب الإلهية، ووجوب الإيمان بها، والتصديق بما ورد فيها من أخبار وأحكام، وشرائع وآداب.

أدلة وجوب الإيمان
بالكتب الإلهية، وكونه ركن الإيمان

إن الإيمان بالكتب السماوية الإلهية لواجب شرعاً كما هو واجب عقلاً وهذا بيان ذلك:

أما كون الإيمان بالكتب الإلهية واجباً شرعاً فذلك لأن الله تعالى أمر به أمراً جازماً لا يقتضي إلا طاعة الله تعالى فيه، وتحريم معصيته إذ قال تعالى في الأمر بالإيمان بكتبه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا ﴾ (النساء: 136).

إن هذه الآية وحدها كافية في الدلالة على وجوب الإيمان بكتب الله تعالى عامة، وبالقرآن الكريم كتاب الإسلام والمسلمين خاصة، وفي تحريم التكذيب بها، وعدم التصديق بكل ما جاء فيها، مما هو وحي الله، وكلامه سبحانه وتعالى.

إن الإيمان بالكتب ليس واجباً فحسب بل هو أحد أركان الإيمان الستة التي لا يصح إيمان عبد إلا باستكمالها بالإيمان بها كلها. وإنه ـ الإيمان بالكتب ـ للركن الثالث من تلك الأركان،

التى هى بناء العقيدة الإسلامية، كما جاء ذلك فى الكتاب والسنة ؛ ففى الكتاب يقول تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة:177). ويقول: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ (البقرة: 285).

ومن السنة حديث مسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ والذى جاء فيه سؤال جبريل للرسول ﷺ عن الإيمان، وجواب الرسول له بأنه: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره (حلوه ومره) (1).

وأما كون الإيمان بها واجباً عقلاً فإنه يظهر للمتأمل من حيث حاجة العباد إليها، وإقامة الحجة عليهم بها، فإن الرسول المبلغ عن الله شرائعه وأحكامه يحتاج غالباً فى إثبات رسالته إلى كتاب من الله تقوم به الحجة له على تلك الأمة التى أرسل إليها حتى يؤمنوا به، ويصدقوه، ويتبعوه ويعملوا بما جاءهم به، والتشريع الإلهى نفسه يفتقر إلى كتاب يحويه، ويتضمنه، ويُثبت فيه ليبقى بعد وفاة الرسول الذى جاء شرعاً محفوظاً، تعمل به الأجيال إلى المدى الذى حدد له بنسخه برسالة أخرى، أو بنسخ بعض ما جاء فيه كما حصل للتوراة والإنجيل، فقد نسخ الله تعالى بالإنجيل بعض أحكام التوراة ونسخ بالقرآن الكريم الإنجيل والتوراة كليهما.

ولولا بقاء الكتاب بعد الرسول لضاع الدين الذى جاء به، أو ضاع الكثير منه، وحينئذ يقول الناس: بم نعبد الله ؟ وكيف نعبده ولم يكن لدينا من شرائعه ما نعبده به ؟؟

وتكون لهم الحجة على الله تعالى، وهذا ما لم يرده الله تعالى حيث صرح بنفسه فى قوله: ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ (النساء: 165).

فهذه المسائل الثلاث:

- احتياج الرسول فى إثبات رسالته إلى كتاب من ربه تقوم له به الحجة على قومه.
- افتقار التشريع الإلهى إلى كتاب يحويه، ويتضمنه، ويُثبت فيه.
- عدم إعطاء الناس الحجة على الله تعالى ببقاء التشريع الإلهى محفوظاً فى كتاب، ثابتاً

(1) مسلم (1/ 28/ 29).

فيه، هى التى اقتضت عقلاً وجوب كتب إلهية كما اقتضت وجوب الإيمان بها، وتصديقها، والعمل بما فيها، لافتقار سعادة البشرية فى الحياتين إليها، وتوقفها عليها.

منزلة القرآن الكريم
بين كتب الله تعالى

إن مما لا شك فيه -عند الدارسين للقرآن الكريم، الواقفين على أسراره وعجائبه، العالمين بما حواه من أصول التشريع وقواعده، والمدركين للحقائق العلمية التى أثبتها، ولفت النظر إليها- أن للقرآن الكريم منزلة خاصة بين سائر الكتب الإلهية التى تقدمته فى النزول.

وقد تتجلى هذه المنزلة العلية للقرآن العظيم بإمعان النظر فى النقاط الخمس التالية والتأمل فيها:-

1- كونه ناسخاً لها لفظاً وحكماً، فلا تُقرأ للتعبد، ولا يعمل بما فيها من شرائع وأحكام وذلك:

أولاً: لما داخلها من تحريف، وما أصابها من تضييع ونسيان؛ إذ لم يبق فيها ما يُجزم بصحة نسبته إلى الله تعالى أبداً، عرف هذه الحقيقة وقررها المنصفون والمحققون من علماء أهل الكتابين معاً.

وثانياً: كان التشريع فيها خاصاً ببنى إسرائيل، وموقوتاً بزمن معين، وليس أدل على نسخ القرآن الكريم للكتب قبله من أمر الله تعالى لنبى القرآن محمد ﷺ أن يحكم بين سائر الناس على اختلاف ما ينتحلون من ديانات بالقرآن الحكيم، وذلك فى قوله تعالى ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ** (1) **بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ** (2) **وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ**﴾ (المائدة: 48). وقوله: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ**﴾ (النساء: 105).

2- كونه مهيمناً عليها رقيباً شهيداً، فما صححه منها وأقره فيها صح وقرَّ، وما أبطله منها ونفاه لكونه دخيلاً عليها ليس منها بطل وانتفى. كما جاء شاهد هذا فى الآية السابقة: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾.

3- كون ما يحمل من التشريع الإلهى عاماً لكل النَّاس فى أى مكان كانوا وفى أى زمان

---

(1) «أل» هنا تدل على الكمال فيه، فهو الكتاب الذى أكمل الله به الدين، فهو الحرى بأن ينصرف إليه لفظ الكتاب دون غيره من الكتب السابقة، ومعنى بالحق: متلبساً به مؤيداً له، مشتملاً عليه، مقرراً له.

(2) «أل» فى الكتاب للجنس أى من جنس الكتاب، فيدخل فى ذلك التوراة والزبور والإنجيل وغيرها.

وجدوا، وذلك لعموم رسالة صاحبه المنزل عليه ﷺ؛ إذ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان:1). وقال: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف:158). وقال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ:28). بخلاف الكتب التي سبقته فإنها كانت خاصة فى المكان والزمان، ولا عموم فيها البتة.

4- تعهد الرب تبارك وتعالى بحفظه إلى أن يرفعه إليه، إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر:9). وقال: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت:41، 42).

فحفظه الرب تبارك وتعالى بأن قيض له رجالاً أمناء، حفظوه فى صدورهم، وسطورهم فلم تقو يد الزمان، ولا يد العدوان على أن تزيد فيه حرفاً، ولا أن تنقص منه حرفاً، بخلاف غيره من الكتب وخاصة التوراة فقد ضاعت كلها فى غزو بختنصر البابلى لمملكة بنى إسرائيل، ولم يعثر عليها إلا فيما بعد، ثم ما إن جمعت والله أعلم بصحة ما جمع فيها حتى تسلط عليها عبدة المادة فحرفوها وبدلوها حسب مصالحهم وأهوائهم، أما الإنجيل فيكفى فى الدلالة على عدم حفظه أنه اليوم خمسة أناجيل(1)، بعد أن كان يوم نزوله إنجيلاً واحداً. !!!

5- شموله لأصول الهداية البشرية وفروعها، واحتواؤه على أعظم منهج ربانى محقق لسعادة الإنسان فى الدنيا وفى الآخرة متى آمن به وعمل بما فيه. قال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة:15-16).

لوحة مشرقة

ببيان ما فى القرآن من الهدى والخير

إن فى القرآن المجيد من الهُدى والخير لبنى الناس كافة ما لا يوجد اليوم ـ والله ـ معشار عشره فى كتاب غيره، وفى الأرقام التالية بيان ذلك وتحقيقه: ـ

1 ـ الهدى الموصل إلى كل خير، والمرشد إلى كل كمال، والهادى إلى سعادة الدارين، قال

(1) هى إنجيل: متى ومرقص ولوقا ويوحنا وبرنابا والأخير أصحها وقد أخفى من القرن الرابع إلى القرن السابع عشر الميلادى.

منزله سبحانه وتعالى: ﴿ الٓمٓ ① ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: 1 ـ 2).

2 ـ الرحمة بأتم معناها، الرحمة التى تعم الإنسان، والجان، والحيوان، والكبير والصغير، والكافر والمؤمن، والحى والميت. قال تعالى فى إثباتها: ﴿ الٓمٓ ① تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ② هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ (لقمان: 1 ـ 3).

3 ـ الشفاء التام العام لجميع الأمراض العقلية، والنفسية، والقلبية شفاء من الكفر والشرك، والقلق والاضطراب، والحيرة والخوف، والكبر والحسد، والكسل والعجز، والبخل والشح، والظلم والخرَف. قال تعالى فى إثبات هذا الشفاء وتقريره: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الإسراء: 82).

4 ـ النور الكاشف لجميع الظلمات القلبية، والمبدد لسائر الجهالات النفسية، والمبين لسائر الحقائق والأسرار الكونية. قال تعالى فى تقرير نورانيته: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ (النساء: 174).

5 ـ الموعظة الداعية إلى اكتساب كل فضيلة، والزاجرة عن كل رذيلة، قال تعالى فى ذلك: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ (يونس:57).

6 ـ البشرى بخير الدنيا والآخرة وسعادتهما. قال تعالى فى ذلك: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: 89).

7 ـ الحق الإلهى الثابت فى نفسه، المحقق المثبت لغيره من كل ما هو حق، فكل حق القرآن يؤيده، والقرآن يقرره، قال تعالى: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ (الإسراء: 105). وقال: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ (المائدة: 48). أى متلبساً به مشتملاً عليه، مؤيداً له، ومقرراً.

8 ـ الذكر الإلهى الذى تحيا عليه القلوب، وتطيب بتلاوته الأرواح، وتزكو بالعمل به النفوس. الذكر المكسب للشرف، والموصل لحضرة القدس، والرافع إلى ملأ الأخيار. قال تعالى: ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾ (ص:1). وقال فى الحديث عنه: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (الزخرف: 44).

9 ـ الخير العام لكل إنسان، وجان، وحيوان، فما من كائن فى هذه الحياة إلا وناله من خيرية القرآن من يوم نزوله إلى يوم رفعه إلى الله، وقبضه إليه، اللهم إلا من كان من المطرودين من شياطين الإنس والجان، المبلسين من كل خير. قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾ (النحل: 30).

10 ـ التبيان والبيان لكل شيء مما الإنسان في حاجة إليه مما تتوقف عليه سعادته دنيا وأخرى. قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: 89).

11 ـ الروح التي تتوقف عليه حياة الإنسان، فالقرآن هو الروح اللازمة للحياة الفاضلة الكريمة. إن الناس بدون أن تسرى فيهم الروح القرآنية أموات حقاً، لا ينتفعون بوجودهم، ولا بحياتهم المادية، قال تعالى في هذا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى: 52).

شروط الانتفاع التام بما في القرآن من الخير والهدى

إنه بالرجوع إلى تلك اللوحة المشرقة بنور القرآن وهدايته يتبين لنا بحق وصدق أن في القرآن الكريم من الهدى والخير ما يكفل للإنسان سعادة، في دنياه وأخراه، غير أننا إذا عاودنا النظر لتلك اللوحة نجد أن ما في القرآن من الخير والهدى مخصوص بأناس وُصفوا بصفات أربع هي: الإيمان، والإسلام، والإحسان، والتقوى، فمن استجمع تلك الصفات فقد تهيأ لتلك الفيوضات الربانية، وفاز بما في القرآن من الخير والهدى، ومن قصر عنها، ولم يستكملها فإن حظه منه بقدر حظه منها.

وهذا إيضاح لتلك الصفات الأربع:

1 ـ الإيمان: بأن يؤمن المرء إيماناً عاماً بكل ما جاء به رسول الله عن الله، ويؤمن إيماناً خاصاً بما في القرآن من الهدى والخير إيماناً يحمله على تعرفه عليه، وطلبه منه، وذلك بدراسة القرآن، والعمل بما فيه من العقائد والشرائع، والآداب، والأخلاق.

2 ـ الإسلام: بأن يسلم المرء لله تعالى قلبه، ووجهه، فيسخِّر كل شيء فيه لله تعالى بحيث لا يكون له هَم إلا الله تعالى، فيعيش طالباً لما يرضاه الله من اعتقاد، وقول، وعمل، متجنباً لكل ما يسخطه الله تعالى من اعتقاد، وقول، وعمل.

3 ـ الإحسان: بأن يحسن في إيمانه وإسلامه، فيعيش يراقب الله تعالى في كل ما يأتي ويذر، وما يقدم وما يؤخر، يراقبه في طاعته كما يراقبه في معصيته، وبعبارة أخرى يراقبه في محابه فيأتيها بصدق ويعملها بإتقان، وفي مساخطه فيتجنبها في بغض لها، ويبتعد عنها في كره منه لها تام.

4 ـ التقوى: بأن يتقي الله تعالى في أن يشرك به، أو أن يعصيَه بترك ما أوجب عليه، أو انتدبه إليه، أو بفعل ما حرمه عليه، أو كرهه له.

وكلمة أخيرة أن من استكمل هذه الصفات، وحققها كما هى موضحة أعلاه، ومبينة فيما سلف فقد استوجب كل ما فى القرآن من خير وهدى، وتحقق له ذلك كاملاً، فحصل له الشفاء فى صدره وبدنه، والرحمة فى قلبه، والنور فى بصيرته، والذكر والموعظة فى قلبه، والبيان فى لسانه، والحق فى حُكمه، والبشرى فى حياته وآخرته.

وأما من لم يستكمل تلك الصفات: فإنه لم ينتفع بما فى القرآن من الهدى والخير، وليس ذلك عائداً إلى أن القرآن نفد منه هداه وخيره اللذان كانا فيه، وإنما هو عائد إلى عدم أهلية المرء للاستفادة منه. وإن لذلك مثلاً نضربه هو وجود مريض يُوصف له دواء نافع، ويقدم له، ولم يكلف نفسه مشقة تناوله، فيبقى الدواء فى خزانته، ويبقى هو يعانى من آلام مرضه إلى أن يُكره على استعمال الدواء فيشربه، فيشفى من مرضه، أو لا يكرهه أحد على شربه واستعماله فيبقى يعانى من أسقامه، وأوجاعه حتى يهلك بها ويموت. فهل الذنب فى هذا ذنب الدواء ؟ والجواب لا، إن الذنب ذنب المريض نفسه الذى لم يستعمل الدواء وهو بين يديه فكان حاله كحال من قال:

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

تقرير أخير لعقيدة المؤمن

فى الكتب الأربعة

القرآن، والتوراة، والزبور، والإنجيل

إن المؤمن قد آمن ويؤمن بكل ما أنزله الله من كتاب إجمالاً فيما لم يعرف، وتفصيلاً فيما عرف. فآمن بصحف إبراهيم، وألواح موسى وتوراته، وبزبور داود، وإنجيل عيسى، وفرقان محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم تسليماً كثيراً.

كما آمن بالقرآن على أنه كتاب إلهى هو أكمل الكتب، نسخ الله تعالى به كل ما سبقه من الكتب ؛ لأنه متأخر عنها فى النزول، وسنة النسخ وطريقته دائماً أن ينسخ المتأخر المتقدم، واللاحق السابق، ولأن الرسالة التى تضمنها رسالة عامة لكل الناس أبيضهم، وأحمرهم، وأصفرهم، وأسودهم، فلم تكن مخصوصة بشعب دون آخر من شعوب البشر، كما أن الكتب المتوفرة والموجودة لدى نزوله كالتوراة، والزبور، والإنجيل كان قد داخلها التحريف، والتبديل، والتغيير، والزيادة، والنقصان، وذلك بنسيان أهلها لأكثرها، ولانقطاع سندها إلى من أوحيت

إليهم من أنبياء بنى إسرائيل ورسلهم، كما هو معروف ومسلم لدى عقلائهم، والمنصفين منهم. فأصبحت تلك الكتب لا تمثل حقيقة كتب اللّه تعالى، ولا تحمل الهدى، والنور، والرحمة، والموعظة لأهلها، فضلاً عن غيرهم فلم تكن قادرة على الإصلاح ولا الهداية للخلق، ومن ثم اقتضت رحمة اللّه تعالى بعباده أن يجدد لهم عهد النبوة بعد اندثارها، وعهد الوحى بعد اندراسه، فيبعث اللّه تعالى النبى الخاتم، النبى المنتظر، النبى الأمى محمداً ﷺ، وأن ينزل عليه الكتاب الكامل الجامع، فينسخ به سائر الكتب، وضمنه هداية الأبيض والأسود، والعربى والعجمى من الناس أجمعين.

فهو الكتاب الذى أنزله مصدقاً لما بين يديه من الكتب، ومهيمناً عليها، أمر محمداً عبده ورسوله أن يحكم به بين الناس كافة إذ قال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ** ﴾ (المائدة: 48). وقال عز وجل: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ** ﴾ (النساء: 105).

فتعين لذلك نسخ القرآن لما سبقه من كتب اللّه تعالى، ونسخ الدين الإسلامى لسائر الأديان السابقة. قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ (آل عمران: 19). وقال: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ (آل عمران: 85).

وقال رسول اللّه ﷺ مبيناً نسخ كتابه «القرآن» لغيره من الكتب، ونسخ دينه «الإسلام» لغيره من الأديان، قال: «**والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى**». قاله لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أتاه بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأ عليه، فغضب، وقال: «**لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم ـ أهل الكتاب ـ عن شىء فيخبروكم بحقٍّ، فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذى نفسى بيده ... إلخ**»[1] وكيف لا يكون إلا ما أخبر به رسول اللّه ﷺ وجزم به من اتّباع موسى عليه السلام له فضلاً عن أمته، واللّه تعالى يقول: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي**[2] **قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ** (٨١) **فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (آل عمران: 81 ـ 82).

* * *

---

(1) رواه أحمد، والبزار، وابن أبى شيبة، وإسناده صحيح.

(2) إصرى: قال ابن جرير: عهدى ووصيتى.

الركن الرابع من أركان عقيدة المؤمن

الإيمان بالرسل عليهم السلام

مقدمات:

(أ) إمكان الوحي:

تعريف الوحي:

الوحى اسم مصدر من أوحى إليه بكذا يوحى إيحاءً: إذا أعلمه بمراده فى سرعة وخفاء.

فالوحى إذاً هو الإعلام السريع الخفى، وبأى واسطة حصل، إذ ليس شرطاً فيه أن يكون من قرب، أو بقول، أو بين متجانسين ؛ فقد قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ﴾ (النحل: 68، 69).

وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ (القصص: 7).

فقد أعلم الله تعالى النحل مراده ففهمت عند ذلك ونفذته كاملاً، ولم يكن هنا قرب ولا قول، ولا تجانس مما يعرف الناس فى حياتهم المادية هذه. كما أنه تعالى أعلم أم موسى بمراده ففهمته، ونفذته كاملاً تاماً، وبدون قرب أيضاً، ولا قول، ولا تجانس أبداً بين الموحى، والموحى إليه.

فالوحى بهذا المعنى ممكن، ولا معنى لإنكاره أبداً، ونقول هذا تنزلاً مع الشاكين فقط، وإلا فالوحى قد وقع، وتم، ومنذ وجد الإنسان الأول على هذه الأرض وهو آدم عليه السلام.

والذين كلت أذهانهم أمس عن فهم الوحى وإدراكه لم يبق لهم اليوم من عذر فى دعوى كلال الذهن عن فهم الوحى وهم يشاهدون الاتصالات السلكية واللاسلكية، والإذاعية وغيرها.

وقد بلغهم أن الاكتشافات العلمية أثبتت بما لا مجال للشك فيه أن الوحى بالمعنى الذى قررنا موجود حتى بين الحيوان وأخيه الحيوان، بل بين أصغر الحشرات كالفراش والنمل وما إلى ذلك، فيتم الإعلام السريع الخفى بين حيوان وآخر وبدون قرب بل أبعاد شاسعة، وبدون قول أيضاً، ولا مشابهة البتة.

فالوحى إذاً ممكن وموجود، وإنكاره يعد إنكاراً للحس، وتكذيباً بالواقع المشاهد. نعم الوحى تختلف وسائله، فالوحى الإلهى كان يتم بوسائل متعددة، وكيفيات مختلفة وفيما يلى بيان ذلك:

الوحـى الإلـهـى وطـرقـه

تعـريـف:

الوحى الإلهى هو ما يوحى به الله تعالى من كلماته الصادقة فى أخبارها، العادلة فى أحكامها، بطريقة من طرق الوحى إلى من يصطفى من الناس، ولا شاهد أقوى على وجوده وإمكانه من كلام الله تعالى الموجود بين أيدى المؤمنين يقرأونه محضاً لم يشب بكلمة واحدة من كلام الناس، وهو القرآن الكريم الموحى به إلى النبى محمد ﷺ آيات وسوراً، شيئاً فشيئاً حتى اكتمل نزوله، ووحيه فى خلال ثلاث وعشرين سنة.

وقد حاول خصومه منذ شروق أنواره أن يبعدوه عن حقيقته، ويخرجوا به عن كونه وحياً تلقاه النبى محمد ﷺ من ربه كما قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ** ﴾ (النمل:6). حاول أولئك الخصوم أن يخرجوا به عن حقيقته، فقالوا: سحر، وقالوا: شعر، وقالوا: أساطير الأولين، وقالوا غير ذلك. بيد أنهم لم تطل بهم الحياة حتى أذعنوا للحق، وسلموا أنه وحى الله وكلامه، الذى أوحاه إلى صفوة خلقه، وسيد أنبيائه ورسله محمد ﷺ، فآمنوا به، وعملوا بهدايته، فكملوا، وسعدوا، وسادوا أيضاً.

ولتلقى الوحى الإلهى طرق بينها الله تعالى فى كتابه بقوله: ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴾ (الشورى: 51).

فهذه ثلاث طرق لتلقى الوحى الإلهى:

الأولى: الوحى المباشر، وهو أن يعد الله تعالى قلب العبد إعداداً خاصاً بتصفيته من الكدورات والرعونات النفسية، ثم يلقى إلى صاحبه بكلماته التى أراد أن يوحى بها إليه، فيتلقاها ذو القلب الطاهر وهو النبى من أنبياء الله تعالى ويعيها وعياً كاملاً صحيحاً، وهو جازم بأنها كلام الله تعالى ووحيه إليه، وذلك لما يجد فى نفسه من ضرورة تحتم عليه ذلك وتضطره إليه أكثر من ضرورة معرفة أحدنا بوجوده إنساناً حياً بين الناس، أو بضرورة معرفة صوت أبيه أو أمه أو أخيه، ذلك الصوت الذى عاش دهراً يسمعه، ويفرق بينه وبين سائر الأصوات.

الثانية: أن يخاطب الله تعالى من أعده لذلك من أنبيائه ورسله فيُسمعه كلامه المباشر مع القرب وبدونه، ولكن من وراء حجاب، فيسمع النبى الكلام ولا يرى المتكلم، وقد تم هذا للنبى محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج فى الملكوت الأعلى ؛ إذ عُرِج به ﷺ حتى بلغ سدرة المنتهى، وكلمه ربه تعالى، وفرض عليه الصلوات الخمس هذه التى يصليها المؤمنون خمس مرات فى

كل يوم وليلة، غير أنه لم ير ربه تعالى، فقد سئل عن ذلك فقال: «**نور أنَّى أراه؟**»(1). أما قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ** ﴾ (النجم: 13-18).

فإن الضمير فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ** ﴾ عائد إلى جبريل عليه السلام، وليس عائداً إلى الله تعالى.

كما تم هذا التكلم من وراء حجاب لموسى بنى إسرائيل عليه السلام، وكان بجبل الطور من سيناء حيث ناداه ربه بالواد المقدس طوى، ونبأه، وأوحى إليه، وأرسله إلى فرعون وملئه، كل هذا وموسى عليه السلام يسمع كلام الله تعالى المباشر ولا يرى الله تعالى مُكلمه عز وجل حتى تاقت نفسه لرؤيته، فسأل ربه ذلك فقال: ﴿ **قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ** ﴾ فقال الله تعالى له: ﴿ **لَن تَرَانِي** ﴾ (الأعراف: 143). وأقنعه بعجزه عن الرؤية لله تبارك وتعالى، فأمره أن ينظر إلى الجبل وقد تجلى له فصار دكاً، فنظر موسى إلى الجبل فلم يقو على رؤيته فخر مغشياً عليه، فلما أفاق من غشيته قال: ﴿ **سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الأعراف: 143).

الثالثة: أن يُوحى الله تعالى إلى من اصطفى من رسله بواسطة ملك يرسله إليه، وكان جبريل عليه السلام موكلاً بالنبى ﷺ، وهو الذى صحبه فى إسرائه ومعراجه (2)؛ وما زال معه

---

(1) حديث الإسراء ثابت فى الصحيحين وغيرهما. اللؤلؤ والمرجان (1/ 35)، وقوله ﷺ: «نور أنى أراه» رواه مسلم (1/ 111).

(2) إن الإسراء والمعراج المجيدين ثابتان بالكتاب والسنة، ففى الكتاب من سورة الإسراء يقول تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا**﴾ ففى هذه الآية تصريح بالإسراء وأنه كان من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس، وفى قوله: ﴿**لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا**﴾ إشارة إلى المعراج بعد التصريح بالإسراء إذ المعراج تم مع الإسراء فى رحلة واحدة، كما بينت ذلك الأحاديث الصحيحة. وفى قوله تعالى من سورة النجم: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ**﴾ تصريح بالمعراج ووصول الرسول ﷺ فيه إلى سدرة المنتهى عند جنة المأوى، وفى الملكوت الأعلى وما فى الآيات من إجمال لحادثة الإسراء والمعراج فقد بينته السنة وفصلته أيما تفصيل، إذ أغلب كتب الصحاح والمسانيد قد روت حادثة الإسراء والمعراج مفصلة، ولما كانت عقيدة المؤمن مبنية على أساس تصديق الله والرسول فى كل ما أخبرا به وجاء عنهما فإن تصديق المؤمن بحادثة الإسراء والمعراج ليس موضع شك أبداً كما أن إثبات هذه الحادثة لا يتطلب دليلاً بعد إثبات الكتاب والسنة لها. إن الإسراء والمعراج ثبتا للنبى محمد ﷺ بروحه وجسده، ويقظة لا مناماً، وذلك فى السنة الحادية عشرة من البعثة المحمدية، ولا التفات إلى رأى من يقول بحصولها بالروح دون الجسد، أو فى المنام دون اليقظة، إذ هذا الرأى فاسد وباطل لمنافاته لمعنى ﴿**أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ**﴾ ولرفض سلف هذه الأمة له وإنكاره على قائله ومرتئيه.

يأتيه بوحي ربه حتى قُبض ﷺ، والملك الرسول يأتي أحياناً في صورته الملائكية، وأحياناً يتمثل بشراً كما تمثل لمريم البتول عليها السلام، وقال لها لما استعاذت بالرحمن منه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ (مريم: 19 ـ 21).

كما كان يأتي النبي ﷺ في صورة دحْية بن خليفة الكلبي، وجاء مرة في صورة أعرابي فدخل المسجد وجلس إلى النبي ﷺ وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع يديه على فخذيه، وأخذ يسأل الرسول ﷺ والرسول يجيبه وهو يصدقه بقوله: «صدقت» حتى عجب الصحابة منه، كيف يسأله ويصدقه ؟ ولما انصرف أمر الرسول أصحابه أن يردوه عليه فطلبوه فلم يظفروا به، فقال لهم: «**إنهُ جبريلُ أتاكم يُعلمكم أمر دينكمْ**»(1).

ب ـ ضرورة الوحي، وحاجة الناس إليه:

إن الوحي الإلهي ضرورة من ضرورات شتى قد اقتضاها وجود الإنسان على هذه الأرض، يكابد فيها حياة طويلة فُرضت عليه، وقدرت له، ولا ينتهي منها إلا بانتهاء هذا الكون وانقراضه حيث ينقل إلى ملكوت آخر، فهو في هذه الرحلة الطويلة من حياته لابد له من تعاليم من ربه تنظم حياته، ولابد له من هدى يعيش عليه، وكيف يتم له ذلك بغير الوحي ؟ فالوحي إذاً ضرورة من الضرورات لا غنى عنه بحال من الأحوال.

وضرورة الوحي وحاجة الإنسان إليه تظهران بوضوح إذا عرفنا أن الإنسان مكون من روح وجسد، وأن العالم عالمان علوي وسفلي، وأن الحياة حياتان: أولى تنقضي، وثانية تدوم ولا تنتهي، وتبقى أبداً ولا تنقص، وأن بين الحياتين برزخاً تقضي فيه الأرواح فترة ما بين موت الإنسان وبعثه للحياة الثانية، وبيان ذلك: أن كون الإنسان روحاً يقتضي وحياً إلهياً يخبره عن الرَوح، وصفاتها، وأحوالها، وأسباب كمالها ونقصانها وسعادتها وشقائها. وأن كون الإنسان جسماً يقتضي كذلك وحياً إلهياً يُبَيِّن له فيه طرق المحافظة على جسمه، ويضع له القوانين التي تساعده على بقائه صالحاً المدة المحددة له من هذه الحياة. وأن كون العالم عالمين علويّا وسفليّا يقتضي وحياً إلهيّاً يخبره عن العالم العلوي وما فيه، لعجْز الإنسان عن معرفة ذلك بوسائله الخاصة وإدراكه دون الوحي الإلهي. وأن كون الحياة حياتين يقتضي كذلك وحياً إلهياً يعرف الإنسان بواسطته الحياة الثانية ماذا فيها ؟ وما الذي يتم للإنسان يوم ينقل إليها ؟ إذ مثل هذا لا يدركه الإنسان بواسطة عقله مجرداً عن الوحي الإلهي بحال من الأحوال.

(1) مسلم (1/ 28، 19).

فهذه أكثر من ضرورة قد اقتضت الوحى الإلهى، وجعلته حاجة من حاجات الإنسان التى لا يستغنى عنها بحال، فالوحى إذاً مع إمكانه هو ضرورة من ضرورات حياة الإنسان، وحاجة من حاجاته، وإنكاره والتكذيب به يُعد خطأ عقليّاً كبيراً، وعجزاً فكريّاً مُشيناً، وفساداً فطريّاً خطيراً ؛ لأن إنكار ما هو موجود وواقع، وجحود ما هو ضرورة للحياة، وحاجة أكيدة لها ـ لا تقره العقول، ولا توافق عليه بحال أبداً.

(جـ) النــبــوة:

تعريف:

النبوة: اسم مشتق من نبا الشيء ينبو نَبْوةَ إذا ارتفع متجاوزاً غيره، ومنه قولهم: نبا السيف ينبو نبوة إذا ارتفع متجاوزاً مضرب الفارس، أو هى اسم مشتق من أنبأ فلان غيره ينبئه إنباء إذا أخبره بخبر ذى شأن، ولهذا يقال: «النبوءة» بالهمزة بعد الواو، وبها قرأ ورْش عن نافع: ﴿ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوءةَ ﴾ (الأنعام: 89).

وقرأ حفص عن عاصم النبوَّة بواو مشددة، ويمكن رد القراءة الأولى إلى هذه وذلك بقلب الهمزة واواً وإدغامها فى الواو، وهو إعلال معروف عند النحاة.

وبناء على هذا فالنبوة الشرعية هى إعلام الله تعالى من اجتبى من الناس لرفعته والإعلاء من شأنه ؛ بإنبائه بالوحى الذى أراده له، أو له ولغيره.

والأنبياء: جمع نبى، ويمد مهموزاً فيقال ﴿ نبيء ﴾ كما هى قراءة ورش عن نافع فى جميع القرآن أو فى غالبه، وهو عائد إلى الاشتقاق الأول الذى تقدم فى كلمة النبوة.

والنبى: ذَكَر من بنى آدم أوحى الله تعالى إليه بأمر، فإن أمر بتبليغه إلى الناس فهو نبى ورسول، وإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبى غير رسول، وبهذا يظهر الفرق بين كل من النبى والرسول، وهو أن الرسول من أمر بإبلاغ ما أوحى إليه، والنبى من أُوحى إليه بشيء ولم يؤمر بإبلاغه ؛ لاختصاصه به دون غيره من الناس، وعليه فكل رسول نبى وليس كل نبى رسولاً، ومثال النبى غير الرسول يوشع بن نون صاحب موسى وفتاه عليهما السلام، فقد نبأه الله تعالى، وخلف موسى وهارون فى بنى إسرائيل، وهو الذى غزا بيت المقدس وفتحها الله تعالى عليه.

ومثال النبى الرسول نبينا محمد ﷺ؛ إذ هو نبى الله ورسوله إلى الناس أجمعين، وكذا سائر الأنبياء والمرسلين المذكورين فى القرآن الكريم كما سنقف عليه إن شاء الله تعالى فى بحث هذا الركن من أركان عقيدة المؤمن.

د ـ مؤهــلات النبــوة:

الذى ينبغى أن يُعلم هنا أن النبوة لا تأتى من طريق الكسب والاجتهاد أبداً، فلو انقطع المرء إلى العبادة كلية، وتخلى عن سائر الحظوظ النفسية، وعن كل الرغبات والشهوات وسائر متع الحياة، ولذائذها لم يؤهله ذلك ؛ لأن يكون نبيّاً أو رسولاً بحال من الأحوال، إن النبوة هبة خاصة، يختص بها اللّه واهبُها من أهّله لها من عباده المؤمنين، بيد أن اللّه يهيئ لها بإعداد خاص عبداً من عباده، فيحفظه من التلوث النفسى، والضلال العقلى، والفساد الخلقى، والانحراف الفطرى، ويضفى عليه من الكمالات النفسية والعقلية والخلقية ما يؤهله به لمقام النبوة الشريف. ومن المؤهلات للنبوة، وتلقى الوحى الإلهى:

1 ـ المثالية: ونعنى بالمثالية ذلك الكمال البشرى الذى يحوزه المرء المرشح لمقام النبوة، والذى لا يسمو إليه سواه من المرشحين لها من سائر الناس.

2 ـ شرف النسب: إن عامل الوراثة سبق أن قررناه، ولم ننكره، وهو أن كثيراً من الصفات والخصائص والمميزات تنتقل بهذه السنة الإلهية (عامل الوراثة) من الأصل الوالد إلى الفرع المولود، ومن هنا كان الأنبياء يبعثون فى أشراف أقوامهم، والمراد من الشرف بالمعنى العام: الترفع عن الدنايا الخلقية، والتنزه عما يخل بالمروءات، ويهبط بالقيم البشرية، من كل سلوك شائن منحرف، تكرهه الطباع البشرية السليمة، وتشمئز منه النفوس الكريمة.

3 ـ عامل الزمن: إن المرادَ من عامل الزمن هو وجود مقتضيات فى الزمن المعين تحتم بعثة نبى وإرسال رسول، وتقتضيه، ومن ذلك وجود فراغ روحى تسبب عنه فساد اجتماعى كبير ؛ فأصبحت الحال تتطلب نبيّاً مصلحاً، يرد للحياة اعتبارها، وللإنسان قيمته، وذلك كالفراغ الذى كان قبل إرسال موسى وأخيه هارون عليهما السلام، وكالذى كان قبل نبوة عيسى ورسالته عليه السلام، وكالذى كان قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام ورسالته، فإن الأحوال التى كانت سائدة فى تلك الأزمنة الثلاثة كانت تلح مطالبَةً بنبوة نبى ورسالة رسول ؛ لإصلاح البلاد والعباد، وكان الناس يومها يشعرون بالحاجة الملحةَ إلى نبوة تغير الأوضاع الفاسدَة التى سادت يومئذ، والذين قالوا لفرعون: إن زوال ملكك سيكون على يد رجل من بنى إسرائيل ـ وبنو إسرائيل يومئذ مستعبدون مضطهدون أكثر من غيرهم، لا شوكة لهم ولا قوة ـ هذا القول وإن نسب إلى الكهنة فإنه هو نفسه عامل الزمن، وهو الشعور العام بالحاجة إلى مُصلح يُصلح الأرض بعد أن أفسدها الطغيان الفرعونى، وجبروت الكبر، وفساد العلو فى الأرض، والإسراف فى الشر.

كما أن زمن ما قبل البعثة المحمدية كان يوحى بقرب نبوة مُصلحة، بحيث تطلع كثير من أهل الكتاب لها، بل صرحوا بقربها، وجاهروا به، وانتظروه ؛ لذا بادر كثير منهم بالإيمان بنبوة محمد ﷺ ورسالته، ولم يترددوا فى ذلك بمجرد ظهورها، وذلك كالنجاشى من النصارى، وعبد اللّه بن سلام من اليهود، وغيرهما من أحبار اليهود ورهبان النصارى، وذلك لما شاهدوا من الفساد العام الذى انتظم العالم بأسره وبخاصة جزيرة العرب، وبلاد الروم، وفارس، وهى تمثل العالم الإنسانى تقريباً(1).

ومجمل القول أن وجود فساد عام فى الأرض من شأنه أن تتطلع معه النفوس إلى مصلح يصلح اللّه به البلاد والعباد، وذلك لمَا غَرَزَ اللّه تعالى فى الفطر البشرية من الشعور بالرحمة الإلهية، وقربها كلما عم الشر، وعظم الفساد، شعور كشعور العطشان بالحاجة إلى الماء، وتطلعه إليه.

وها هى ذى البشرية اليوم فى حاجة ملحة إلى نبوة إلهية تصلح فسادها، وتخرجها من محنتها المادية التى تعانى منها، والنبوة الإلهية موجودة بين أيدينا ولكن الذى أعوزنا العبقرى الملهم الذى يحملنا على الاهتداء بهديها، والسير على ضوء هدايتها ؛ حتى ننجو من هلكتنا ؛ ونسعد فى حياتنا. إن النبوة المطلوبة هى نبوة محمد ﷺ، وهى محفوظة لم تُشب بفساد، ولم تخلط بباطل، ولم يمسها سوء، ولأمر ما حفظها اللّه تعالى صالحة نقية بعد مضى زمن طويل على ظهورها، وما يدرينا أن اللّه تعالى قد ادخر لنا عبداً من عباده المؤمنين، سيظهر فى يوم ما من الأيام ؛ فيملأ به الأرض طهراً وعدلاً بعد ما ملئت خبثاً وظلماً.

هـ ـ صفات الأنبياء:

إن للمؤهَّلين لحمل رسالة الخالق إلى الخلق صفات كمال لا تفقد فى أحدهم أبداً ؛ إذ هى واجبة لكل من يحمل رسالة اللّه تعالى إلى عباده، ومن تلك الصفات:

1 ـ الصدق: صدق النية والإرادة، صدق القول والعمل، بحيث يستحيل أن يتصف المؤهل للنبوة بضد الصدق وهو الكذب والنفاق، أو الإهمال واللامبالاة، والمتتبع لسيَر الأنبياء يعرف هذه الحقيقة، ويؤمن بها.

(1) ويشهد لهذا القرآن الكريم إذ جاء فيه قوله من سورة الأعراف: ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ﴾ (الأعراف: 85) فهى الإقرار بأن الأرض كانت قبل البعثة المحمدية فاسدة، وأن الله تعالى قد أصلحها بها.

2 ـ الأمانة: الأمانة فى كل شىء فى القول والعمل، فى الحكم والقضاء، فى الحديث والنقل، فى الرواية والتبليغ، فى السر والعلن معاً ؛ إذ يستحيل أن يتصفوا بضدها وهى الخيانة بحال من الأحوال، فلا خيانة فيهم أبداً، ولو فى أقل الأشياء وأتفهها، ومتى وجد شىء من الخيانة فلا نبوة ولا أهلية لها أبداً .

3 ـ التبليغ: والمراد منه أن يبلغ الرسول كل ما أمر بتبليغه فلا يخفى منه شيئاً، ولا يكتمه بحال من الأحوال، فلا تحمله رغبة ولا رهبة على أن يكتم بعضاً مما أُوحى إليه، وأمر بإبلاغه إلى الناس، والكتمان للوحى الإلهى يتعذر على المرسلين، ويستحيل فى حقهم، ولا يتأتى لهم، لأن الله تعالى أهَّلهم للبلاغ عنه ما أراده لعباده من الهدى والخير، فمتى وجد الكتمان بطلت النبوة، وانتفت الرسالة.

4 ـ الفطنة: إن الفطنة ليست الفهم والذكاء فحسب، بل هى مع ذلك رقة الشعور، وصفاء الذهن، ورهافة الحس وصدقه، وسرعة البداهة. على حد قول حسان بن ثابت فى النبى محمد ﷺ

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

إذ الفطنة من المؤهلات لتلقى الوحى والأمانة عليه، فالغباء وبلادة الحس وبطء الإدراك تتنافى مع مقام النبوة وشرف التلقى عن الله تعالى، وسوف نكشف عن هذه المؤهلات ونجلى الكثير من معانيها إن شاء الله تعالى عند الحديث عن خاتم الأنبياء محمد ﷺ؛ إذ هو المقصود بهذه الدراسات كلها ؛ وذلك لوجود رسالته قائمة بين أيدى الناس، ولحاجة الناس إليها.

* * *

الرسل عليهم السلام

الرسل فى التاريخ

لقد سبق أن عرفنا الرسول فى اصطلاح الشرع، وهو: ذكر من بنى آدم أُوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، وأنه بوحى الله تعالى إليه أصبح نبيّاً، وبإرساله كان رسولاً.

والآن نعرض لجملة من تاريخ الرسل فنقول: إن التاريخ الذى كتبته يد البشر. ومهما كانت اليد الكاتبة أمينة وعليمة، لتاريخ ناقص عن توفية الرسل حقهم فيما وهبهم الله تعالى من الكمال، وقاصر على إعطاء الصورة الواضحة لرسل الله وأنبيائه الذين لم تخل من وجودهم فيها أمة من الأمم، ومن بدء الخليقة إلى أن خُتموا بإمامهم وسيدهم محمد ﷺ تسليماً كثيراً ؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر:24).

ومع هذا فإنه لا يوجد فى مصادر التاريخ اليوم ما يعول عليه فى هذا الشأن، وما يعتمد عليه فى هذه المهمة العظيمة، وهى التاريخ الصادق الكامل لصفوة الخلق وخلاصة البشر الرسل عليهم السلام، اللهم إلا ما كان من كتاب الله تعالى القرآن الكريم، فإنه المصدر الوحيد الموثوق، الذى لا يُعدَل به غيره، ولا يلتفت معه إلى سواه ؛ إذ لا يعرف الأنبياء كمن نبأهم، ولا يعرف المرسلين المصطفين كمن اصطفاهم وأرسلهم، فحسبنا إذاً القرآن فى هذا الشأن، فنكتفى بإيراد بعض ما جاء فيه عن رسل الله من حيث عددهم، وبيان زمن وجود كل منهم، ومعرفة أسمائهم، ومعرفة أعاظمهم وأولى العزم منهم، وذكر بلادهم، وأقوامهم، وما إلى ذلك من تاريخ حياتهم.

عدد الرسل:

لم نشك أبداً فى أن الرسل كانوا جمّاً غفيراً ؛ وذلك لقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (النحل:36). وقوله: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر:24).

غير أننا لا نستطيع أن نجزم بعدد معين لا نزيد عليه، ولا ننقص منه ؛ ذلك لعدم ثبوته عن الوحى الإلهى، والخبر النبوى الصحيح، وكل ما ورد عن النبى ﷺ فى بيان عدد الأنبياء والمرسلين حديث أبى ذر الغفارى فى مسند أحمد، وسنده ليس بالقوى كما قيل، ولفظه: «قلت: يا رسول الله أى الأنبياء كان أول ؟ قال: «**آدم**»، قلت: يا رسول الله أنبى كان ؟ قال: «**نعم، نبى، مكلم**»، قلت: يا رسول الله كم المرسلون ؟ قال: «**ثلثمائة وخمسة عشر جما غفيراً**». وفى لفظ: «كم وفاء عدد الأنبياء ؟ قال: **مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل منهم ثلثمائة**

وخمسة عشر جماً غفيراً»[1]. ففى هذا الخبر المرفوع بيان أن آدم كان نبيّاً يكلمه اللّه تعالى ويوحى إليه، وبيان عدد كل من الأنبياء والمرسلين، ولا يبعد أن يكون هذا الخبر صحيحاً ـ وإن ضعف سنده ـ وذلك لما فيه من آثار طابع النبوة وروحها.

ولما لم يجد علماء الإسلام بديلاً عنه قالوا بالمعنى الذى جاء فيه فحكموا بنبوة آدم، وحدثوا أن عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفاً، وأن المرسلين منهم ثلثمائة وخمسة عشر، ولا تثريب عليهم فى ذلك لعدم وجود ضرر يترتب على القول بهذا الخبر ؛ إذ هو كأخبار بنى إسرائيل تصح روايتها للاعتبار بها إذا لم يوجد فى الإسلام ما ينافيها،[2] أو يتنافى معها.

زمن وجود كل منهم:

إن تاريخ الرسل عليهم السلام يبتدئ بآدم أبى البشر عليه السلام، ووجوده فى الأرض، وتكاثر أبنائه فيها مقتض للوحى الإلهى ؛ إذ به تكمل آدمية الإنسان، وبه يتم شرفه، وعليه تزكو نفسه، ويتأهل للسعادة فى الحياتين الأولى والآخرة.

ولم يعرف الناس نبياً من أولاد آدم لصلبه اللهم إلا ما كان من «شيث» عليه السلام ؛ فإنه روى أنه كان حفيداً لآدم أبى البشر النبى عليه السلام، وقد أُنزل عليه عدة صحف تعرف بصحف «شيث» عليه السلام، وجاء بعد شيث نبى اللّه ورسوله إدريس عليه السلام، وهو مذكور فى الكتاب الكريم، وتقول الأخبار إنه من ذرية شيث عليه السلام.

ثم جاء نوح عليه السلام وهو أول رسول كما صرح بذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (النساء: 163).

ثم جاء بعده هود، فصالح، فإبراهيم، فلوط ،فإسماعيل، فإسحاق، فيعقوب، فيوسف، ثم شعيب، فموسى، فهارون، فداود، فسليمان، ثم إلياس، فأيوب، واليسع، وذو الكفل، ويونس، وزكريا، فيحيى، وعيسى، ثم خاتمهم محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

وهذا الترتيب الزمنى صحيح إلى حد ما، ولولا الخفاء فى زمن كل من يونس وأيوب وذى الكفل واليسع لكان إلى الصحة أقرب منه إلى غيرها، والحقيقة فى هذا أنه من باب علم لا ينفع

---

(1) أحمد (5/ 178، 179، 266).

(2) ولا يقولن قائل: بل جاء فى القرآن ما يتنافى معها وهو قوله تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ (النساء:164) فإننا نقول: المنافى هو أخبارهم وأحوالهم مع أممهم، أما خبر إجمالى كهذا فإنه لا يتنافى مع الآية أبداً.

وجهالة لا تضر ؛ إذ المطلوب هو الإيمان بالرسل، وتوقيرهم، وتعزيزهم، واتباعهم، والاقتداء بهديهم فى أى زمان كانوا، وفى أى أرض وجدوا.

ديار الرسل:

إن عامة من ذُكر من الرسل فى القرآن الكريم كانت ديارهم فى الشرق الأوسط، منها بُعثوا، وفيها عاشوا مع أقوامهم، وفيها ماتوا ودفنوا، فإبراهيم عليه السلام بعث بالعراق، وهاجر منها إلى أرض كنعان، فتنقل بين الحجاز والشام وأرض المعاد حتى توفاه اللّه تعالى. وإسماعيل عليه السلام ولد بالشام وعاش بمكة المكرمة لم يفارقها، وفيها بعث، وبين القبائل العربية دعا إلى اللّه حتى توفاه اللّه. وإسحاق كان بأرض المعاد، وكذا يعقوب ولده، إلا أن الأخير هاجر إلى أرض مصر، فعاش بها مع أولاده، ولعله توفى بها وأرسل من بعده يوسف، فعاش بمصر حتى هلك بها، ثم أرسل موسى وهارون، وعاشا بين مصر وسيناء إلى أن توفاهما اللّه تعالى، وجاء داود وسليمان فكانا فى أرض القدس، وتوالت أنبياء بنى إسرائيل على أرض الشام، وكان آخرهم عيسى عليه السلام فولد فى بيت لحم، وعاش بأرض المقدس حتى رفعه اللّه تعالى إليه. ثم بُعث خاتم الأنبياء محمد ﷺ بمكة، فولد بها وعاش إلى أن هاجر إلى المدينة من أرض الحجاز، فعاش بها عشر سنوات، وبها توفى، وبها قبره الشريف ﷺ.

أما نوح عليه السلام فلا يبعد أنه كان كذلك بين الشرقين الأوسط والأدنى، وأما هود وصالح وشعيب فقد كانوا بأرض العرب، هود فى الجنوب ما بين حضرموت والشجر، وصالح بالشمال ما بين الحجاز والشام، وشعيب بغرب الجزيرة جنوب الأردن الشرقى بأرض مدين، ولوط عليه السلام كان قد هاجر مع عمه إبراهيم الخليل من أرض بابل بالعراق، فبعثه اللّه تعالى إلى المؤتفكات، وكانت خمس مدن كبيرة أشهرها سَدوم وعمورة فأهلك اللّه أهل تلك البلاد لفسادهم وخبثهم ونجى لوطاً ومن معه من المؤمنين، فارتفعوا إلى أرض الشام وأقاموا بها.

أولو العزم من الرسل:

مما يعتبر جزءاً من العقيدة الإسلامية معرفة أولى العزم من الرسل عليهم السلام ؛ إذ جاء فى القرآن قوله: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف:35).

فتعينت معرفتهم لذلك، كما جاء فى القرآن بيان عددهم وأسمائهم معاً، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ (الأحزاب:7).

فالكاف من قوله: ﴿ ومنك﴾ (الأحزاب:7)، حرف خطاب تعني محمداً ﷺ فهو مقدم في اللفظ للفضل، ويأتي أربعتهم بعده وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، مرتبون في الفضل والزمن، فنوح أولهم وعيسى ابن مريم آخرهم فصلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وجوب الإيمان بالرسل عليهم السلام

بعد أن عرفنا إمكان الوحي وعرفنا الوحي وطرقه الخاصة به، وعرفنا ضرورته، وحاجة الناس إليه، كما عرفنا النبوة ومؤهلاتها، وعرفنا صفات الأنبياء والرسل، وتاريخهم العام - نذكر إتماماً للبحث في هذا المعتقد أن الإيمان بالرسل إجمالاً وتفصيلاً جزء من عقيدة المؤمن لا يتجزأ، بحيث لا تصح عقيدة المؤمن، ولا تكمل إلا به.

ومعنى الإيمان بالرسل إجمالاً: أن يؤمن المرء بكل ما نبَّأ الله من نبي، وبكل ما أرسل من رسول ممن عرَف نبوتهم ورسالاتهم وممن لم يعرف، فيؤمن إيماناً إجمالياً.

ومعنى الإيمان بالرسل تفصيلاً: أن يؤمن المرء بكل نبي ورسول عرَف نبوته ورسالته عن طريق الوحي إيماناً تفصيلياً، فمن عرفهم من طريق الوحي الإلهي بأسمائهم آمن بهم واحداً واحداً على التفصيل، ولا يؤمن برسالة بعض ويكفر برسالة بعض آخر ؛ إذ الكفر بواحد منهم يعتبر كفراً بجميعهم. وقد تقدم آنفاً بيان الرسل الذين ذكروا في القرآن الكريم، وهم خمسة وعشرون نبياً ورسولاً، منهم ثمانية عشر قد ذكروا في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: 83 - 86).

وذكر السبعة الباقون مفرقين في عدة سور من القرآن وهم آدم، وإدريس، وهود، وصالح، وشعيب، وذو الكفل، وخاتمهم محمد ﷺ[1].

(1)آدم في (33) من آل عمران، وإدريس في (56) من مريم، وهود في (50) من سورة هود، وصالح في (73) من الأعراف، وشعيب في (85) من الأعراف، وذو الكفل في (85) من الأنبياء، ومحمد في (40) من الأحزاب.

والإيمان بالرسل ضرورى، لا يتوقف على نظر ولا استدلال بالنسبة إلى المؤمنين بالله تعالى؛ لأن الله تعالى هو الذى نبأهم، وأرسلهم، وأخبر عنهم، وأمر بالإيمان بهم، وتصديقهم، والإيمان بالله تعالى مستلزم للإيمان بكل ما أمر الله بالإيمان به من الملائكة والكتب، والرسل، والبعث، والجزاء، والقدر، والقضاء، وبكل غيب أمر الله تعالى بالإيمان به، فيكفى المؤمن دليلاً أن يبلغه خبر الله، وأمره بالإيمان بالرسل، كقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ** ﴾ (النساء: 136). وقوله تعالى: ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ** ﴾ (البقرة: 285).

فلهاتين الآيتين وغيرهما يؤمن المؤمن برسل الله تعالى، ولا يفرق فى الإيمان بهم بين رسول ورسول منهم، كما فعل اليهود والنصارى، حيث آمن اليهود بأنبياء بنى إسرائيل وكفروا بعيسى ابن مريم ومحمد ﷺ ولا كما آمن النصارى بكافة الأنبياء وكفروا بخاتمهم وإمامهم محمد ﷺ وقد كفّر الله وتوعد بالعذاب المهين من يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعض فى قوله: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾ (النساء: 150، 151).

هذا ونظراً لنسخ جميع شرائع الرسل عليهم السلام بشريعة خاتمهم محمد ﷺ فإنه لم يبق هناك ما يلزم المؤمن إزاء أولئك الرسل سوى الإيمان بهم واعتقاد عصمتهم وكمالهم، ووجوب تعظيمهم واحترامهم.

ولهذا نكتفى بما سبق من البحث فى اعتقاد المؤمن بالرسل عليهم السلام لنخص بالبحث النبى الخاتم، صاحب الشريعة المتممة لسائر الشرائع، والعامة لكل الناس، وهو النبى الأمى محمد رسول الله ﷺ

* * *

محمد رسول الله ﷺ

التعريف به ﷺ :

نسبه: هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصى بن كلاب بن كعب بن مرة بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن معد بن عدنان منَ ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام.

نشأته:

ولد ﷺ بمكة بدار أبى يوسف، ولدته آمنة بنت وهب بن زهرة بن عبد مناف بن قصى بن كلاب. ولدته صبيحة يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول عام الفيل، الموافق لأغسطس عام (570) ميلادية، ومات والده عبد الله وهو حَمْل فى بطن أمه، وكفله جده عبد المطلب، وماتت والدته آمنة وهو ابن ست سنين، وحضنته أم أيمن جارية أبيه، ومات جده فكفله عمه أبو طالب.

زواجه وأولاده:

ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره ﷺ تزوج بخديجة بنت خويلد إحدى شريفات قريش، فأنجب منها ولدين هما القاسم وعبد الله[1] ماتا صغيرين، وأربع بنات: هن فاطمة الزهراء وزينب ورقية وأم كلثوم رضى الله عنهن، ولم يزاول من الأعمال ﷺ فى هذه الفترة من عمره سوى رعى الغنم، إذ قال ﷺ: «**ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم**» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «**نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**»[2]، والتجارة حيث خرج مع عمه إلى الشام مرة واحدة وخرج بعد ذلك فى تجارة لخديجة فربح لها ربحاً عظيماً.

وكان ﷺ فى هذه المدة من حياته يتمتع بأفضل الأخلاق، وأطيب الشمائل، فلم يؤثر عليه ما يخل بمكارم الأخلاق قط، فلم يأت ولو مرة ما كان يأتيه بنو قومه أبداً، فلم يسجد لصنم، ولم يشرب خمراً، ولم يلعب قماراً ولا ميسراً، ولم يستقسم بزلَم، ، ولم يظلم أحداً فى عرض ولا مال ولا دم، لقد كان بشهادة أعدائه وخصومه مثالياً فى أخلاقه، وناهيك بإجماع قريشَ على إضفاء لقب الأمين عليه، هذا اللقب الذى لم يظفر به أحد فى ديارها أبداً، لقد كان ﷺ أميناً فى سره وفى علنه، أميناً فى قوله وفى عمله، أميناً فى غيبه ومشهده، أميناً فى كل شىء وعلى كل شىء.

وإذا كانت قريش قد اضطرت إلى منحه ذلك اللقب السامى، الرفيع الكريم ـ لقب الأمين ـ

---

(1) ومن أصحاب السير من يزيد الطيب فيجعل الأبناء ثلاثة والله أعلم بالحقيقة.

(2) البخارى (3/ 109، 110)، كتاب الإجارة، باب رعى الغنم على قراريط.

فإن اللّه تعالى قد أقسم له فى مطلع نبوته على أنه على خلق عظيم، وهى شهادة ـ واللّه ـ لا تعادلها شهادة أبداً ؛ إذ قال: ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 1 ـ 4).

عنايـــة اللّـــه بـــه:

لم يكن الكمال الذى عاش عليه محمد ﷺ وعرف به قبل نبوته، لم يكن نتيجة أم أو أب، أو أثر تعليم أستاذ أو مرب قط، وإنما كان أثر عناية اللّه تعالى له، فالله الذى خلقه ؛ لأن يكون واسطة بينه وبين عباده ؛ ليبّلغهم شرعه ودينه ـ هو الذى حماه من كل ما يلوث نفسه، أو يعكر صفاء روحه، إعداداً له لحمل رسالته إلى خلقه، وحمْل مثل تلك الرسالة يتطلب كمالاً نفسياً يكون صاحبه فيه مثلاً أعلى لغيره من سائر الناس، وكذلك كان رسول اللّه ﷺ ولنستشهد على عناية اللّه للرسول، وحمايته تعالى له من التلوث النفسى منذ ولادته بشاهدين اثنين نستغنى بهما عن عشرات الشواهد والأمثلة وهما:

1 ـ ما روى البيهقى عن محمد بن إسحاق عن على بن أبى طالب ﷺ قال: «سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين، كلتاهما عصمنى اللّه عز وجل فيهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن فى رعاء غنم أهلها، فقلت لصاحبى: أبصر لى غنمى حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان. فقال: بلى، قال: فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة، فسمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا ؟ قالوا: تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر، وضرب اللّه على أذنى، فواللّه ما أيقظنى إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبى، فقال: ماذا فعلت ؟ فقلت: ما فعلت شيئاً، ثم أخبرته بالذى رأيت (وذكر أنه حصل له مرة أخرى فتم له مثل الذى حصل فى الأولى) ثم قال: فواللّه ما هممت ولا عدت بعدهما لشىء من ذلك حتى أكرمنى اللّه عز وجل بنبوته»(1).

2 ـ ما روى البخارى ومسلم أن النبى ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة (لما أرادوا تجديد بنائها) وعليه إزاره، فقال له العباس عمه: يا ابن أخى لو حللت إزارك فجعلته على منكبيك دون الحجارة، قال: فحله فجعله على منكبيه، فسقط مغشياً عليه، فما رؤى بعد ذلك عرياناً ﷺ(2).

---

(1) ذكر هذه الحادثة ابن كثير فى البداية والنهاية، وقال: هذا حديث غريب جداً، وقد يكون عن على نفسه، ويكون قوله فى آخره «حتى أكرمنى الله بنبوته» مقحماً، والله أعلم، اهـ. (2/ 288)، الطبعة الأولى 1966 أشرف عليها مكتبة المعارف ومكتبة النصر.

(2) اللؤلؤ والمرجان (1/ 72)، البخارى (1/ 97)، ومسلم (1/ 184)، وما بين القوسين ليس من الحديث.

نبـوتـه وبعثتـه:

وعلى رأس الأربعين كما هى سُنَّة اللّه فى الأنبياء نُبِّئ محمد ﷺ، إذْ جاءه الحق وهو بغار حراء، بعد أن كان قد حبب إليه الخلاء فيه مدة شهر رمضان، فجاءه جبريل وهو به فضمه إلى صدره وأرسله ثلاثاً وقال له: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ، وفى الرابعة قال: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ** ﴾ (العلق:1-3).

فذهب بها ﷺ إلى خديجة زوجه الكريمة ترجف بوادره، وهو خائف على نفسه، وهى تقول له: «كلا، واللّه ما يخزيك اللّه أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، وانطلقت به ﷺ إلى ورقة بن نوفل بن أسد ابن عمها، وكان امرءاً قد تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى، فيكتب من الإنجيل ما شاء اللّه أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمى، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخى، ماذا ترى؟ فأخبره رسول اللّه ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذى نزّل اللّه على موسى، يا ليتنى فيها جذعاً[1]، يا ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال النبى ﷺ: **أو مخرجى هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى**»[2].

وبعد فترة فتر فيها الوحى تبدَّى له جبريل فى صورته الملائكية وقد سد الأفق وله ستمائة جناح، ثم أخذ يدنو منه ويتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى اللّه ما أوحى، ونزل عليه قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ** ﴾ (المدثر: 1 ـ 5) فأرسل بها ﷺ.[3]

بـدء الدعـوة:

وبدأ ﷺ دعوته إلى الإيمان باللّه ورسوله، وكتابه، ولقائه، وتوحيده تعالى فى عبادته، بدأها فردية، وتلقى هو ومن آمن به صنوفاً من الأذى، وأنواعاً من الاضطهاد، مما اضطر بعض

---

(1) جذعاً منصوب على أنه خبر كان المحذوفة والتقدير: ليتنى أكون فيها جذعاً، أو الخبر متعلق بالجار والمجرور، وجذعاً منصوب على الحال.

(2) لم ينشب: أى لم يتعلق بأى عمل من الأعمال، كناية عن كونه مات بعد قليل ولم تطل حياته، والحديث بطوله أخرجه البخارى فى أول كتابه (1/ 5، 6)، ومسلم (1/ 97،98)، واللؤلؤ والمرجان (1/ 32).

(3) الحديث رواه البخارى ومسلم إلا أنه ليس فيهما -فى هذا الحديث- أن له ستمائة جناح وأنه أخذ يدنو منه ويتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله ما أوحى، راجع اللؤلؤ والمرجان (1/ 34)، ومسلم (1/ 98، 99)، والبخارى (1/ 6).

أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة النبوية، كما حُوصر هو وأسرته الشريفة والمؤمنون من بنى هاشم، حوصروا فى شِعْب أبى طالب ثلاث سنوات، جاعوا فيها جوعاً أكلوا معه ورق الشجر، مع كامل الأسف.

وفى هذه الأثناء توفيت أم المؤمنين خديجة زوجه المفضلة ﵂، كما توفى عمه أبو طالب الذى لم يألُ جهداً يدفع عن رسول الله ﷺ ويحميه من كيد أعدائه له، فكان ذلك العام يدعى عام الحزن كما قيل.

وفى نهاية السنة العاشرة من بعثته ﷺ ومطلع الحادية عشرة عُرج به ﷺ إلى الملكوت الأعلى حتى بلغ سدرة المنتهى عند جنة المأوى، وتجاوزها إلى مقام أسمى سمع عنده صريف الأقلام، وناجاه ربه، وناداه، وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس(1)، وفى هذه الأثناء عقد ﷺ اتفاقية مع بعض رجالات الأوس والخزرج تنص على أن يحمى أولئك الرجال من يهاجر إليهم من المؤمنين مما يحمون به أنفسهم وأموالهم، وأن لهم عند الله تعالى الجنة، وسميت هذه الاتفاقية ببيعة العقبة الأولى، وتمت عندها أخرى مثلها فسميت بيعة العقبة الثانية(2)، وهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة بعد أن كثر بها الإسلام والمسلمون، وكانت قبل ذلك تسمى (يثرب) فصارت بحلول النبى فيها تسمى المدينة النبوية، والعامة تسميها المدينة المنورة، وفيها شُرعت كل الأحكام والقوانين الجنائية والمدنية، وبها تكونت الدولة الإسلامية الأولى فى تاريخ الإسلام. ومن المدينة انطلق المسلمون ينشرون راية العدل والحق فى ربوع الأرض، ويخرجون الناس من ظلمات الكفر إلى أنوار الإيمان، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جَور السلطان إلى عدل الإسلام كما قال ربعى بن خراش لكسرى ملك الفرس. ولم يُقبض رسول الله ﷺ حتى انتظم الإسلام كامل شبه جزيرة العرب، وحتى تم التشريع الإسلامى أوفر وأقوى ما يكون، ونزل فى ذلك قوله تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ (المائدة: 3).

وقبض رسول الله ﷺ يوم الاثنين من شهر ربيع الأول بعد ما مضى عشر سنوات وشهران وبعض الليالى على هجرته إلى المدينة، والتى كانت مبدأ التاريخ الإسلامى، ولم يلتحق ﷺ بالرفيق الأعلى حتى لم يترك خيراً قط إلا دل أمة الإسلام عليه، ولا شراً إلا حذرها منه، فصلوات الله عليه إلى يوم أن نسعد برؤيته وشفاعته.

---

(1) حديث الإسراء ثابت فى الصحيحين، اللؤلؤ والمرجان (1/ 35).

(2) راجع أحاديث العقبة فى البخارى (5/ 69، 70).

هذه نظرة سريعة ألقيناها متبركين بها على تاريخ محمد رسول الله ﷺ بمناسبة الحديث عن نبوته، فكانت مثل ترجمة قصيرة نقدمها بين يدى بحث دلائل نبوته، وعموم رسالته، وتقرير أن سعادة الإنسان فى الدنيا والآخرة رهن ذلك ومتوقفة عليه.

مؤهلاته للنبوة:

لقد سبق أن ذكرنا أن من مؤهلاته للنبوة العامل الزمنى، والمثالية، وشرف النسب، فلننظر الآن فيما إذا كانت هذه العوامل الثلاثة متوفرة للنبى العربى ﷺ أم لا؟ ولنبدأ بالعامل الزمنى فنقول:

لقد أجمع من أرَّخوا للدولتين الكبيرتين الفارسية والرومانية قبل البعثة المحمدية، أجمعوا على أن فساداً عاماً قد عم تينك الدولتين العظيمتين: فساداً فى الدين، فساداً فى الأخلاق، فساداً فى الحكم، فسرى ضعف هائل فى كل أجهزة تينك الدولتين، وخلايا تينك الأمتين الكبيرتين. هذا فى دولة الفرس والروم الحضاريتين أما فى غيرهما فإن الأحوال أسوأ، والأمور أردأ، والظلام فى كل جوانب الحياة أحلك، ففى شبه جزيرة العرب أصنام تُعبد، وخمور تشرب، وبنات توأد، وكهانات حلت محل النبوات، وأعراف قبلية سائدة سيادة الشرائع الإلهية، من له يُعطى ويزاد، ومن ليس له يؤخذ منه، وليس حال غيرهم خيراً من حالهم، فالَعالم يومئذ كله يعيش فى ظلام دامس من الظلم والشر والفساد، وهى حال تدعو بل تصرخ بذى نبوة إلهية، ورسالة ربانية، يصلح الله به وعلى يديه فساد البلاد والعباد.

وحقاً فقد تطلع الناس إلى صاحب هذه النبوة، وحامل تلك الرسالة، ففى الجزيرة العربية إرهاصات كثيرة، وبين أهل الكتاب تنبؤات أكثر، همسات خفية فى كل واد، وممنية بقرب نبوة سماوية. كل الدلائل تشير إلى أن هذه النبوة ستكون هذه المرة فى الأمة العربية، قد يلوح سناها بين جبال فاران (مكة)، وتطلع شمس ضحاها فى يثرب ذات النخيل والظل الظليل، إنها مُهاجَر النبى الذى قد أطل زمانُه.

وسابق بعض أهل الكتاب الأحداث، فهاجروا إلى الحجاز، ونزلوا يثرب نفسها، وتأكدت التنبؤات عند بعضهم، حتى استفتحوا على العرب جيرانهم بأن النبى المنتظر سيبعث فينا، ونقاتلكم معه.

وبالجملة فإن تلك الفترة ـ وهى السبعون سنة بعد الأربعمائة من ولادة السيد المسيح عليه السلام ـ كانت فترة إرهاصات كثيرة، وتطلعات كبيرة، وتنبؤات لا حد لها، وفى أنحاء شتى من العالم إلى نبوة يتغير بها مجرى التاريخ الإنسانى ويوقف بها تيار الفساد العام بين البلاد والعباد، ومن يا تُرى يكون المؤهل لهذه النبوة ؟

إنه كان محمداً ابن عبد الله، دعوة إبراهيم القائل: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة:129).

وبشارة عيسى القائل: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (الصف:6).

إنه كان محمداً النبى الأمى الذى نادى قائلاً: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف:158).

فمرحباً بوفادته على الدنيا، ومرحباً بقيادته للإنسانية، ومرحباً به وهو الرحمة الإلهية، ومن العامل الزمنى إلى المثالية، فلنلق نظرة سريعة على المثالية المحمدية التى أهلته بإذن الله لقيادة البشرية، وهيأته لتلقى الوحى من السماء ؛ ليكون رسول الله إلى الناس كافة، فلننظر إليها فى الجانب الخلقى الذاتى، ثم فى الجانب الخُلقى النفسانى، وإن أصحاب السير وجميع من كتب فى السيرة المحمدية مجمعون على أن محمد بن عبد الله والنبى الأمى كان أكمل الناس ذاتاً، وأجملهم وجهاً، وأحسنهم قدراً واعتدالاً، ولنترك الرواة الصادقين يصفون لنا الذات المحمدية كما رأوها وعرفوها، قال البراء فى رواية مسلم: «كان رسول الله ﷺ رجلاً مربوعاً، بعيد ما بين المنكبين، عظيم الجمة إلى شحمة أذنيه، عليه حلة حمراء ما رأيت شيئاً قط أحسن منه ﷺ»(1) وقال أنس فى رواية مسلم: «كان رسول الله ﷺ أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ إذا مشى تكفأ، ولا مسست ديباجة ولا حريرة ألين من كفى رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة رسول الله ﷺ»(2)، ولنصغ أخيراً إلى ما قاله الحسن بن على رضي الله عنهما حيث قال: «سألت هند بن أبى هالة عن حلية رسول الله ﷺ وكان وصافاً، وأنا أرجو أن يصف لى منها شيئاً أتعلق به، فقال: كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع (بين القصر والطول)، وأقصر من المشذب (البائن الطول)، عظيم الهامة، رَجل الشعر (ليس بسبط ولا جَعد)، إن انفرقت عقيقته فرقها، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا وفّره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب(3) سوابغ من غير قَرَن، بينهما عرق يُدره الغضب، أقنى العرنين(4)، له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، أدعج،

(1) الحديث متفق عليه واللفظ لمسلم. اللؤلؤ والمرجان (3/ 107)، ومسلم (7/ 83)، والبخارى (4/ 228).

(2) مسلم (7/ 81).

(3) الأزج: الحاجب المقوس الطويل الكثير الشعر.

(4) القنا: ارتفاع الأنف، واحديداب وسطه، ودقة أرنبته.

سهل الخدين، ضليع الفم، أشنب[1]، مفلّج الأسنان، دقيق المسربة[2]، كأن عنقه جيد دُمية فى صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادناً (ذو لحم) متماسكاً، سواء البطن والصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس (رؤوس العظام)، أنور المتجرد، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجرى كالخط، عارى الثديين، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف، عبل الذراعين[3]، خمصان الأخمصين، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء، إذ زال زال تقلعاً، ويخطو تكفؤاً، ويمشى هوْناً، ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط من صبب (علو) ارتقاه، وإذا التفت التفت جميعاً، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، يسوس أصحابه، ويبدأ من لقيه بالسلام[4].

هذا الجانب الخَلقى الذاتى هو محض عطاء الله تعالى وهبته، ولا كسب فيه للإنسان، فإن النبى الأمى محمداً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم قد أعطى منه ما لم يُعط غيره، حتى كان فى جماله الذاتى مثلاً عالياً لا يسامى فيه، ولا يُطاول أبداً. ولننظر إلى مثاليته ﷺ فى الجانب الخُلقى النفسانى، متتبعين عناصر الكمال فيه عنصراً بعد آخر فنقول ـ ولسنا بموفينه ﷺ كما له مهما حدثنا وكتبنا: ـ

رجاحة عقله:

نكتفى من عشرات الأمثلة الدالة على ما كان للنبى محمد ﷺ من كمال العقل ورجاحته بأربعة أمثلة، اثنين منها قبل نبوته واثنين بعدها، فأما اللذان قبل نبوته ﷺ فهما:

1 ـ حضوره حلف الفضول وقوله فيه: «**لقد حضرت حلف الفضول بدار عبد الله بن جدعان، وما أحب أن لى بحلف حضرته فى دار عبد الله بن جدعان حمر النعم، ولو دعيت به لأجبت**»[5].

فهذا الحلف تم على أساس نصرة المظلوم، والوقوف إلى جنبه حتى يؤخذ له الحق ممن ظلمه، فحضور النبى ﷺ له تأييداً للحق، واغتباطه به حتى قال: «**ما أحب أن لى به حُمر النعم**» دالٌّ على كمال عقله ورجحانه بدون شك.

---

(1) الشنب: رقة الأسنان، ورونقها، وحسنها.
(2) المسربة: الشعر الذى بين الصدر والسرة.
(3) العبل: الغلظ.
(4) محمد المثل الكامل (10/ 11).
(5) سيرة ابن هشام (1/ 143)، بمعناه، وذكر الحلف أحمد رحمه الله فى مسنده (1/ 190، 193)، وابن سعد فى طبقاته الجزء (1)، القسم (1)، ص (82).

2 ـ حكمه بأن يوضع الحجر الأسود فى ثوب، ثم تأخذ بأطرافه القبائل القرشية، حتى إذا بلغ الحجر مكانه من جدار البيت تناوله هو ووضعه فى مكانه، فقضى بذلك على خصومه من أشد الخصومات، وحقَن دماء كانت قد تُراق لولا ذلك التصرف الحكيم، الذى إن دل على شىء فإنه يدل على كمال العقل المحمدى ورجاحته بما لا مجال للشك فيه.

وأما المثلان اللذان فى عهد نبوته فهما:

1 ـ تنازله لقريش على كتابة لفظة الرحمن الرحيم، وعلى لفظ رسول اللّه فى كتابة وثيقة المعاهدة التى أبرمها مع قريش عام صلح الحديبية، إذ أمر الكاتب وهو على بن أبى طالب أن يكتب بسم اللّه الرحمن الرحيم، فقال ممثل قريش وهو سُهيل بن عمرو: أمسك، لا أعرف الرحمن الرحيم، بل اكتب باسمك اللهم، فتنازل عن ذلك وكتب باسمك اللهم. ولما قال للكاتب اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول اللّه، قال ممثل قريش: أمسك لو شهدت أنك رسول اللّه لم أقاتلك، ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد اللّه، فتنازل عن ذلك وكتب[1]، فى حين أن أصحابه وعلى رأسهم عمر وعلى قد كرهوا ذلك وأبوا أن يفعلوه، ورأوه أنه إعطاء للدنية فى دينهم[2]، غير أن النتائج الطيبة التى أعقبت ذلك التنازل أدلت على قصر نظر القوم وبُعْد نظر الرسول محمد ﷺ، وكمال عقله ورجاحته، الأمر الذى كان به مضرب المثل فى كمال العقل، وحسن السياسة، والتدبير.

2 ـ لما دخل ﷺ مكة يوم الفتح منتصراً ووجد رجالات قريش قد تجمعوا حول الكعبة ينظرون حكم الفاتح المنتصر فيهم ناداهم ﷺ قائلاً: «**يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا: خيراً أخٌ كريمٌ وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[3].

إن هذا الموقف المثالى فى تاريخ العظماء ينمُّ قطعاً على ما أوتى رسول اللّه محمد ﷺ من رجحان العقل وكماله، وما أصبح به مثلاً عالياً فى هذا الشأن.

شجاعته:

إن شجاعة قلب النبى محمد ﷺ لم تكن أقل من رجاحة عقله، إنه قد بلغ فيها بحق المثالية

(1) متفق عليه بذكر (محمد رسول الله) دون بسم الله الرحمن الرحيم، اللؤلؤ والمرجان (2/ 224)، ورواه مسلم بقريب من هذا اللفظ المذكور فى الكتاب فى (6/ 175).

(2) جاء هذا فى حديث متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (2/ 224)، والبخارى (3/ 228، 229)، ومسلم (5/ 173-175).

(3) سيرة ابن هشام (4/ 41).

التى لا توصف، وناهيك فى إثبات هذا الخلق العظيم أن يقول أفذاذ الأبطال كعلى بن أبى طالب، والزبير بن العوام، وخالد بن الوليد، وغيرهم ممن عُرفوا بالبطولات النادرة، والشجاعات الفذة أن يقولوا: «كنا إذا حمى الوطيس، واشتد البأس نلوذ برسول الله ﷺ نتقى به»(1)، لقد انهزم الجيش الإسلامى يوم حُنين شر هزيمَة، وثَبت رسول الله ﷺ فى الميدان وحده، حتى ثاب إليه أصحابه، وقاتل بهم حتى انتصر نصراً ساحقاً على أعدائه، وأمسوا فى قبضته وتحت سلطانه، ولهذا الموقف نظيره فى أحد أيضاً، وهذا مصداق شهادة القرآن له بالشجاعة فى قوله تعالى: ﴿ **فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ** ﴾ (النساء: 84).

إن شخصاً يكلف بالقتال وحده، وقتال من ؟ إنه قتال كل أهل الكفر على الأرض، وما على الأرض يومها إلا كافر باستثناء تلك الحفنة من أصحابه المؤمنين ـ لَشخصٌ هو أشجع من طلعت عليه الشمس وغربت فى دنيا الناس، ذلك هو محمد رسول الله ﷺ.

سياسته:

إن سياسة النبى محمد ﷺ وفى كلا مجاليها المدنى والعسكرى، أو السلمى والحربى كانت وبدون شك ولا مبالغة مضرب المثل، وكانت على نحو لم يطمع فى الوصول إلى مثله أحد من الناس ومهما أوتى من الكمال فى هذا الخصوص. ولنكتف فى الاستشهاد على هذه المثالية فى السياسة المحمدية الرشيدة السديدة بذكر مسائل معينة منها:

1 – إذنه ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة بعد أن اشتد أذى المشركين لهم، حيث علم أنه لا يقدر على دفع الأذى عنهم، وأن بالحبشة ملكاً صالحاً كريماً، سيكرم وفادة أصحابه، ويحسن جوارهم وهو أصحمَة النجاشى، فكان هذا الإذن بالهجرة تدبيراً سياسياً جديراً بالتقدير والاحترام(2).

2 – اتخاذه دار الأرقم بن أبى الأرقم مركزاً للدعوة الإسلامية أيام اضطهاد المشركين لها، وتثقيف أصحابه فيها، وتربيتهم، وتعليمهم ـ كان تدبيراً حكيماً دل على رشد فى السياسة، وحسن فيها، مع حكمة التصرف، وكمال التدبير.

3 – عقده اتفاقيتى العقبة ـ وهما بيعتان بايع فيهما رجالاً من أهل المدينة لتأمين الهجرة إليها، وحماية المهاجرين فيها، ثم أمْرُه أصحابه بالهجرة، وبالتالى هجرته هو ﷺ إليها، مما جعلها فى

---

(1) روى مسلم عن البراء قوله: «كنا والله إذا احمر البأس نتقى به» (5/ 168).

(2) ذكر البخارى رحمه الله الهجرة إلى الحبشة فى (5/ 62-64). وراجع البداية والنهاية (3/ 66)، وما بعدها، وسيرة ابن هشام (1/ 330)، وما بعدها.

بضعة أعوام دار إسلام، وعاصمة خلافة في الأرض، ومنطلق فتح، وهداية لكافة البشر(1).

4- معاهداته لطوائف اليهود الثلاث بالمدينة، وما حققته تلك المعاهدات من فوائد للدعوة الإسلامية، وما وفرته من حماية لها أيام حاجتها الملحة إلى الحماية والتأمين، وذلك لضعفها، ومناوأة كل الناس لها.

5- مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار، تلك المؤاخاة التي لحمت ما بين المهاجرين النازحين وأهل البلاد المواطنين فجعلتهم كجسم واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائره بالحمى والسهر، تلك المؤاخاة التي لم يتم نظيرها على وجه الأرض قط، تحققت بفضل الله تعالى، ثم بتلك الحنكة السياسية والرشد المنقطع النظير فيها.

6- زواجه ﷺ من خديجة وهي بنت أربعين سنة، وهو شاب لم يتخط الخامسة والعشرين من عمره، ثم زواجه من عدة أرامل من النساء المسنات، وزواجه من أم المؤمنين عائشة بنت الصديق وسنها لم يتجاوز التاسعة من عمرها، كل ذلك دال على بُعْد نظر، وعمق سياسة، وحسن تصرف، وكمال تدبير ؛ حيث أعطى به لدعوة ربه الإسلامية دفعاً قوياً إلى النصر، والتقدم، والانتشار، ما لم تكن لتصل إليه وتحققه لولا تلك السياسة الحكيمة الرشيدة.

7- سراياه وغزواته العديدة، والتي تجلت في جميعها الخبرة العسكرية، والقيادة المثالية الحكيمة، والأمر الذي اعترف به الصديق والعدو على حد سواء، ويكفي في تقرير ذلك أنه في خلال عشر سنوات من جهاده المقدَّس انتظم الإسلام أرض الجزيرة العربية كلها، واستنارت بنوره كل ديارها، وأن قتلى تلك الحروب والمعارك الهائلة التي دارت رحاها مدة عشر سنوات تقريباً، ودانت نتيجة لها أرض شبه الجزيرة كلها بالإسلام - لم يتجاوزوا الألفين والخمسمائة ما بين شهيد وقتيل.

رحمته:

إن الرحمة التي كان يحملها قلب محمد النبي ﷺ لَرحمةٌ مثالية، لا تتأتى لغيره من بني الناس، وإذا أردنا أن نذكر بعض مظاهرها ؛ تقريراً لها، فماذا عسانا أن نذكر منها بعد أن قال الله تعالى فيه: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ (التوبة:128).

ومع هذا فلنشر إلى بعض المظاهر للرحمة المحمدية والتي منها:

1 - رُفع إليه ولده إبراهيم ابن مارية القبطية ﷺ، وهو مريض يجود بنفسه، فوضعه بين يديه

---

(1) بيعتا العقبة مذكورتان في البخاري (5/ 69،70)، وابن هشام (2/ 47-56)، والبداية والنهاية (3/ 147/ 158).

وبكى ﷺ ، وقال: «**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون!**»[1].

2 ـ زار مرة قبر أمه بين مكة والمدينة، وقف عليه وبكى طويلاً، وانصرف وهو يقول: «**استأذنت ربى فى أن أستغفر لها فلم يؤذن لى، واستأذنته فى أن أزور قبرها فأذن لى ..** »[2].

3 ـ ولما فتح رسول الله ﷺ القموص حصن بنى أبى حُقيق (من خيبر) أتى رسول الله ﷺ بصفية بنت حيى بن أخطب وبأخرى، فمر بهما بلال على قتلى يهود، فلما رأتهم الجارية التى مع صفية صاحت، وصكت وجهها، وحَثَت التراب على رأسها، فلما رأى رسول الله ﷺ بتلك الجارية ما رأى قال: «**أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟**»[3]. ولم تكن رحمته ﷺ قاصرة على بنى الناس فحسب بل تعدتهم إلى الحيوانات، فكان يقول ﷺ : «فى كل ذات كبد رطبة أجر»[4]، ويقول: «**عذبت امرأة فى هرة أوثقتها فلم تطعمها ولم تسقها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت**»[5]. وأخبر مقرراً الرحمة وآثارها فى أهلها فقال: «**بينما كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش ؛ إذ رأته بغى من بغايا بنى إسرائيل، فنزعت موقها فسقته، فغفر لها به**»[6].

كـرمـه:

إن الكرم النفسى الذى كان يتحلى به محمد رسول الله ﷺ لا يأتى عليه الوصف، وكيف يوصف كرم من لم يسأل شيئاً طول حياته وهو فى حوزته وقال: لا قط ؟ خرج يوماً وعليه حلة من أجمل الحلل، فرآه أحد أصحابه، فعزم أن يطلبها ليلبسها فتمس جلده بعد أن مست جلد الرسول ﷺ ، فقال: يا رسول الله، أعطنيها. فدخل رسول الله ﷺ بيته، فخلع الحلة وأتاه بها .

جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: «يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء لا يخشى الفاقة»[7].

وبايع مرة جابر بن عبد الله فى جمل له كان قد كَلَّ فى السفر، فباعه إياه بكذا مائة درهم، ولما جاء يتقاضاه الثمن أعطاه الثمن والجمل[8].

---

(1) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (3/ 103).
(2) أخرجه مسلم (3/ 65).
(3) ذكر هذا ابن كثير عن ابن إسحاق فى البداية والنهاية (4/ 197).
(4) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (3/ 75).
(5) متفق عليه واللفظ لمسلم. اللؤلؤ والمرجان (3/ 73)، مسلم (8/ 35)، وقوله: «حتى ماتت» فى رواية أخرى لمسلم فى الصفحة المذكورة.
(6) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (3/ 75).
(7) رواه مسلم (7/ 74).
(8) متفق عليه بمعناه. اللؤلؤ والمرجان (2/ 185).

اللّه أكبر ماذا يُذكر عن كرم محمد ﷺ؟ إنه فى هذا الباب كما فى غيره المثل الأعلى فى الكرم النفسى.

عـدلـه:

إن المثالية فى عدل محمد ﷺ تتجلى فى مواقف عديدة، نقتصر منها على موقفين لم يقفهما غيره ﷺ قط، أولهما: حينما سَرقت المخزومية، وجاء أسامة بن زيد مدفوعاً برجالات قريش يشفع لها فى إسقاط الحد عنها، فقال له الرسول ﷺ وهو فى غضب شديد: «**أتشفع فى حدٍّ من حدود اللّه يا أسامة ؟ واللّه لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها**»[1]، وثانيهما: أن رسول اللّه ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر وفى يده قدح يعدل به القوم، فمر سواد بن غذية حليف بنى عدى بن النجار وهو مستنتل ـ أى متقدم ـ من الصف فطعن فى بطنه بالقدح وقال: «**استو يا سواد**» فقال: يا رسول اللّه أوجعتنى، وقد بعثك اللّه بالحق والعدل فأقدنى **!!** فكشف رسول اللّه ﷺ عن بطنه فقال: «**استقد..**»[2].

عفـوه وحلـمـه:

إن الاستقصاء للشمائل المحمدية غير محتمل أبداً وأحسن من قال:

إنما مـثَّلوا صـفـاتـك للنـاس كـمـا مـثَّـل النجـوم المـاءُ

ولذا فإننا نكتفى دائماً بنماذج لذلك الكمال المحمدى فى كل مظهر من مظاهره. ومن شمائل الحلم والعفو عنده ﷺ نذكر الأمثلة التالية.

1 ـ صح أنه كان ﷺ فى غزاة فأعطى رجاله فرصة للاستراحة فيها، فانتشروا فى واد يستريحون تحت ظلال أشجاره، وأتى هو شجرة فعلق سيفه فى أحد أغصانها ونام، فجاء أعرابى من المشركين فاخترط السيف وقال للرسول: من يمنعك اليوم منى يا محمد ؟ فرفع إليه رسول اللّه ﷺ رأسه وقال: «**اللّه**» فارتاعَ الرجلُ، وسقطَ السيفُ منْ يده، فتناولهُ الرسول ﷺ وقال: «**من يمنعك أنت الآن منى؟**» فقال الأعرابى: لا أحد، فعفا عنه الرَسول وانصرف[3].

إنه عفو بعد مقدرة، وهو من العفو الكريم الذى يستحق صاحبه كل إجلال وتقدير.

2 ـ قسم ﷺ مالاً بين الناس فجاءه أعرابى فجذبه من طرف ردائه وقال: هذه قسمة ما أريد بها وجه اللّه: فغضب رسول اللّه ﷺ وما زاد أن قال: «**فمن يعدل إذا لم يعدل اللّه ورسوله؟**

---

(1) متفق عليه بمعناه. اللؤلؤ والمرجان (2/ 185، 186).

(2) البداية والنهاية (3/ 271)، وسيرة ابن هشام (2/ 301).

(3) متفق عليه بمعناه. اللؤلؤ والمرجان (2/ 162)، واللفظ المذكور قريب من لفظ البخارى (5/ 146، 147).

رحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر»[1].

3 ـ دخل أعرابى مسجده ﷺ، واضطرته الحاجة إلى البول، فانتحى ناحية من المسجد وأخذ يبول، فانتهره أصحاب الرسول ﷺ وصاحوا فيه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**دعوه لا تزرموه**»[2]، فتركوه حتى قضى حاجته من بوله، ثم أمر رسول الله ﷺ بدلو من ماء فصُبَّ عليه، فحلُمُ الرسول ﷺ أنطق الأعرابى فقال: اللهم ارحمنى ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً، فقالَ الرسَول ﷺ: تحجرت واسعاً»[3].

كانت هذه نماذج من المثالية المحمدية، وهى أحد مؤهلات ثلاثة تقدم اثنان منها وبقى الثالث، وهو شرف النسب، وطيب الأصل. فلنلق نظرة على تلك الأرومة الطاهرة، وذلك المحتد الشريف، فنقول: إن من ينظر بإنصاف فى النسب النبوى الشريف يجده بحق أشرف نسب وأطيبه، وأطهره، وأزكاه على الإطلاق، إنه لم يعرف التاريخ البشرى نسباً كان أوضح وأنصع، ولا أطيب، ولا أطهر من نسب النبى محمد ﷺ؛ إذ قريش كانت أشرف القبائل العربية بلا منازع ولا مدافع، وبنو هاشم كانوا أشرف قبائل قريش أيضاً بلا منازع، والأنبياء يبعثون دائماً فى أشرف أقوامهم هذه كلمة قالها هرقل ملك الروم وعظيمها[4].

ولنستمع إلى الرسول ﷺ نفسه وهو يقرر هذه الحقيقة فيقول: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم**»[5]، فكان ﷺ خياراً من خيار من خيار.

وأخيراً فهذه مؤهلات النبوة كلها قد توفرت لمحمد رسول الله ﷺ وبصورة لا أكبر منها، ولا أوضح، فهل يصح فى العقول نفى نبوته، أو جحود رسالته ؟ اللهم، لا. إلا أن يكون ذلك من جاهل متعصب، أو من مُغرض ذى طمع فاسد، يجاحد ويعاند، و مع هذا فسنورد طرفاً من الأدلة العقلية والنقلية ما نؤكد به نبوته ﷺ، ونقرر به وجوب الإيمان به، وبكل ما جاء عن الله من الهدى والخير، وتحتم اتِّباعه، واتِّباع دينه، توخياً للحق، وطلباً للنجاة من العذاب، وفوزاً بالنعيم الأخروى فى الملكوت الأعلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

(1) متفق عليه بقريب من هذا اللفظ. اللؤلؤ والمرجان (1/ 229، 230).

(2) لا تزرموه: أى لا تقطعوا عليه بوله.

(3) متفق عليه بمعناه. اللؤلؤ والمرجان (1/ 64)، وزيادة «اللهم ارحمنى ومحمداً...» إلخ عند أبى داود فى أول الحديث مثل مسألة البول. متن (1/ 91).

(4) راجع حديث أبى سفيان فى البخارى (1/ 7).

(5) مسلم (7/ 58)، ورواه الترمذى أتم منه (2/ 281).

وجوب الإيمان بنبوة محمد ﷺ
وأدلة ذلك

إن تلك المؤهلات العقلية والشرعية الدينية، وقد توفرت كاملة للنبى محمد ﷺ لكافيةٌ فى إيجاب الإيمان بنبوته ورسالته ﷺ، بيد أنه لا مانع من المزيد من ذكر الأدلة والبراهين ؛ تأكيداً لنبوته ﷺ، وتقريراً لها ؛ حتى تجعل الإيمان بها اضطرارياً لا يمكن دفعه إلا على ضرب من التمحل والمكابرة والعناد والمجاحدة.

ومن تلك الأدلة ما يلى:

(أ) **شهادة الكتب السابقة له على نبوته، وتبشير الأنبياء السابقين بها**، فقد جاء فى إنجيل يوحنا:

1 ـ إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى، وأنا أطلب من (الأب) فيعطيكم معزياً (فارْقليط) آخر ليمكث معكم إلى الأبد[1].

فالفارقليط ترجمته: محمد أو أحمد. وبقاؤه معهم إلى الأبد هو بقاء دينه وكتابه وسنته ؛ إذ هذه محفوظة بحفظ اللّه، وباقية ببقاء هذه الحياة وهذا معنى إلى الأبد فى قوله: «يبقى معكم إلى الأبد».

2 ـ لكنى أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن أنطلق، لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم المعزى (الفارقليط) ولكن إن ذهبت أرسلته إليكم[2]. فالفارقليط هو محمد ﷺ ولو لم يذهب عيسى ﷺ برفع اللّه تعالى له لما بعث محمد ﷺ ؛ إذ بعثة النبى محمد ﷺ كانت على فترة من الرسل كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (المائدة: 19).

3 ـ «والفارقليط روح القدس الذى يرسله الأب، باسمى هو يعلمكم كل شىء، وهو يذكركم بكل ما قلته لكم»[3].

فالفارقليط روح القدس هو محمد ﷺ الذى يرسله اللّه إلى الناس كافة ومن بينهم اليهود والنصارى كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ (النساء: 170).

---

(1) الباب الرابع عشر الفقرتان (15-16).
(2) الباب السادس عشر الفقرة (7).
(3) الباب الرابع عشر الفقرة (26).

فجاء فى هذه الآية القرآنية لفظ الرسول معرفاً بالألف واللام، وهى وإن دلت على تفخيم الرسول ﷺ وتعظيمه فى كماله فإنها دالة على العهدية، فهى إشارة إلى ما فى الكتابين ـ التوراة والإنجيل ـ من البشارة بالرسول محمد ﷺ كما ذكرنا ونذكر، وكما اعترف به الصالحون والمنصفون من علماء الطائفتين ـ اليهود والنصارى ـ.

وجاء فى سفر التثنية من التوراة قوله: «جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير، واستعلن من جبال فاران ومعه ألوف الأطهار»(1).

فهذه شهادة صريحة من التوراة واضحة لمحمد ﷺ بنبوته ورسالته؛ إذ معنى هذا اللفظ: أن الله تعالى ناجى موسى وأوحى إليه بسيناء، وأرسل عيسى وأوحى إليه بساعير وهى من أرض الجبل بالقدس، وبعث محمداً ﷺ رسولاً معلناً كلمة «لا إله إلا الله» مستعلنا بها من مكة الواقعة بين جبال فاران كجبل أبى قبيس وحراء وغيرهما من جبال مكة المحيطة بها.

ب ـ شهادة علماء أهل الكتابين:

جاء من سورة الشعراء قوله تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ (الشعراء:197). فقد وبخ الله العرب الكافرين على عدم إيمانهم برسالة محمد ﷺ مع وجود آية عظيمة تدل على صدق نبوته، وثبوت رسالته، وهى معرفة علماء بنى إسرائيل وشهادتهم له بأنه نبى الله، وما جاء به هو من عند الله.

قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** ﴾ (البقرة: 146، 147).

فقد أخبر تعالى فى هذه الآية أن الذين أوتوا الكتاب ـ التوراة والإنجيل ـ يعرفون نبوة محمد ﷺ وصدقه فيها معرفة مثل معرفتهم لأولادهم، كما أخبر أن فريقاً كبيراً منهم يكتمون الحق بعد معرفتهم له، ولذا لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ بعد معرفتهم لها تمام المعرفة.

ونكتفى بشهادة عبد الله بن سلام رضي الله عنه عن غيرها من شهادة كثير من علماء اليهود وأحبارهم، روى البخارى فى صحيحه من كتاب الأنبياء عن أنس بن مالك: «أن عبد الله بن سلام بلغه مَقدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه فقال: «إنى أسألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى، قال:

ما أول أشراط الساعة ؟

---

(1) الباب الثالث والثلاثين، هذه النصوص الأربعة من التوراة والإنجيل نقلت عن العقيدة الإسلامية وأسسها ثم صححت على التوراة والإنجيل.

وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟

ومن أى شىء ينزع الولد إلى أبيه ؟

فقال رسول اللّه ﷺ : **أخبرنى بهنَّ آنفاً جبريل**، قالَ عبدُ اللّه بن سلام: ذاكَ عدوُ اليهود منْ الملائكة، فقال رسولُ اللّه ﷺ : «**أما أول أشراط الساعة: فنارَ تحشر الناس من المشرق إلى المغربَ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه فى الولد: فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها**. قال عبد اللّه بن سلام: أشهد أنك رسول اللّه، ثم قال: يا رسول اللّه إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم بهتونى عندك. فجاءت اليهود، ودخل عبد اللّه البيت، فقال الرسول ﷺ : **أى رجل فيكم عبد اللّه بن سلام** ؟ قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، وأخيرنا وابن أخيرنا، فقال رسول اللّه ﷺ : **أفرأيتم إن أسلم عبد اللّه** ؟ قالوا: أعاذه اللّه من ذلك. فخرج عبد اللّه إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا اللّه وأشهد أن محمداً رسول اللّه، فقالوا: أشرنا وابن أشرنا ووقعوا فيه **!!**»(١).

وبعد: فإن شهادة عبد اللّه بن سلام هذه تُعد من أكبر الشهادات بعد شهادة اللّه ورسوله ﷺ لمحمد بالنبوة والرسالة، ولذا لم نذكر بعدها من شهادات علماء اليهود شهادة غيرها.

أما علماء النصارى فإن لهم من الشهادات برسالة محمد ونبوته ما لا يسعه المقام، فلذا فإنا نكتفى من كل ذلك بشهادة عظيمة أقرها القرآن، وسجلها فى صفحاته، ألا وهى شهادة الملك الصالح أصحمة النجاشى ؛ إذ جاء قول اللّه تبارك وتعالى: ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (المائدة:82، 85).

فقد أجمع علماء التفسير والأخبار والسير على أن هذه الآيات نزلت فى النجاشى وأصحابه المؤمنين، فقولهم: ﴿ **وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ** ﴾. قولهم هذا يعد شهادة عظيمة بالإسلام، ونبيه، وكتابه، وأمته، ولنستمع إلى شهادة النجاشى رحمه اللّه تعالى من خلال رده علَى كتاب رسول اللّه ﷺ الذى ورده وهو فى دار ملكه، وحاضرة بلاده، إذ جاء فيه:

(١) البخارى (4/ 160).

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر

«سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته. لا إله إلا الله هو الذي هداني إلى الإسلام، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقرّبنا ابن عمك (جعفر) وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين. وبعثت إليك يا نبي الله بأريحا بن الأصحم بن أبجر، فإني لا أملك إلا نفسي. وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله»[1].

جـ ـ شهادة بلايين من المسلمين:

إن إيمان بلايين البلايين من المسلمين الذين شهدوا لمحمد ﷺ بنبوته ورسالته وآمنوا به حق الإيمان، واتبعوا ما جاء به من الحق والهدى، وجاهدوا دونه، وبينهم العلماء والحكماء، والصلحاء الصادقون الذين يفوق عددهم الحصر، ويتعذر الإحاطة بهم علماً ـ لهو من أعظم الشهادات، وأقواها، وأكثرها إقناعاً للعقول، وجلباً للطمأنينة والسكون في نفوس المؤمنين بنبوة محمد ورسالته ﷺ.

د ـ شهادة الحق عز وجل وملائكته:

إن شهادة الله عز و جل و شهادة ملائكته للنبي محمد ﷺ بالنبوة والرسالة لشهادة مغنية عن كل شهادة. قال تعالى: ﴿ **لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً** ﴾ (النساء: 166).

ولولا كزازة النفوس، ورعوناتها[2]، وظلمات الجهل بالله تعالى التي تغشى كثيراً من قلوب الناس لما ذكرنا مع شهادة الله تعالى لمحمد ﷺ بالرسالة شاهداً أبداً، ولكن نظراً لما ذكرنا أوردنا تلك الشهادات السابقة وقفَّينا عليها بشهادة الله تعالى التي لا يردها عاقل أبداً.

وشهادة الله تعالى تنقسم إلى قسمين: شهادة إخبار، وشهادة معجزات. فشهادة الإخبار هي: إخباره تعالى في كتابه عن وحيه واصطفائه لرسوله وإرساله، ونصرته إياه، وشهادة المعجزات هي: ما أظهره الله تعالى على يد نبيه من خوارق العادات ؛ إذ كل خارقة تقول بلسان حالها عن

---

(1) البداية والنهاية (3/ 84)، وجاء في أبي داود أن النجاشي قال: أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم (2/ 189).

(2) الكزازة: القبح والانقباض، والرعونة: الحمق.

اللّه تعالى: صدق محمد عبدى ورسولى فيما أخبر عنى من أنى أرسلته وهو رسولى.

ومن شهادة الإخبـــار ما يلـى:

- قوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾ (الفتح: 29).
- قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف: 158).
- قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (البقرة: 119).
- قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (النساء: 163).
- قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (الأحزاب: 45، 46).
- قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (المائدة: 67).
- قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ (النساء: 170).

ومن شهادة المعجزات ما يلى:

1 ـ نزول القرآن الكريم عليه وحياً أوحاه اللّه تعالى إليه، فإنه أكبر معجزة عرفها الوجود البشرى ؛ إذ العادة قاضية بأن أمياً لم يقرأ ولم يكتب ولم يجلس بين يدى أستاذ أو مرب أو معلم قط، قاضية باستحالة تكلمه بالعلوم والمعارف ومعرفته لها وتفوقه فيها، فضلاً عن أن يأتى بما لم يأت به غيره من كل معاصريه وممن يأتى بعدهم إلى انقراض الحياة ونهاية الكون.

فالقرآن الكريم وقد حوى أعظم تشريع، واشتمل على قدر من العلوم الإلهية، وعلى أثبت الحقائق العلمية كنظام الزوجية[1] والقوانين الكونية[2]، كما تعرض لبدء الخليقة، وذكر من قصص الماضين وأخبار السابقين الشيء العجب، وأخبر بمغيبات عديدة فكانت كما أخبر حرفياً بلا زيادة أو نقصان[3] هذا الكتاب يأتى به أمي يتحدى كل الخلق على الإتيان بمثله، أو بعشر

---

(1) يشير إلى هذا القانون قوله تعالى من سورة يس: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الآية: 36).

(2) كعملية إنزال المطر المشار إليها بقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ (الروم: 48).

(3) كالإخبار بنهاية حرب الروم مع فارس، وغلب الأولى للأخيرة بعد أن كانت قد غلبت وانهزمت، وذلك فى قوله تعالى من سورة الروم: ﴿الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ (الآيات: 1-3).

سور من مثل سوره، أو سورة واحدة[1]؛ فتعجز البشرية ومعها الجن كلهم، وتطأطئ رأسها وتسكت عن المعارضة لأكبر معجزة أوتيها محمد ﷺ لتدل على صدق نبوته، وثبوت رسالته، عرف هذا فداه أبى وأمى حين قال: «**ما من الأنبياء من نبى إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيت وحياً أوحى إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»[2].

وهذه صورة التحدى قائمة إلى يوم القيامة تحويها آية واحدة هى قوله تعالى: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ (البقرة: 23، 24).

فقوله تعالى: ﴿ **وَلَن تَفْعَلُوا** ﴾ أى الإتيان بسورة قرآنية من أمى مثل محمد ﷺ فى أميته، هذا التحدى وهو نفى الإتيان بسورة من أمى مثل محمد فى أميته ما زال قائماً، وقد مضى عليه الآن قرابة الألف والأربعمائة سنة، ولا يؤمل أبداً أن يأتى أحد فيبطله بأن يأتى بسورة قرآنية من رجل أمى لم يقرأ ولم يكتب قط، هيهات هيهات أن يأتى أحد بمثل هذا القرآن والله يقول: ﴿ **وَلَن تَفْعَلُوا** ﴾.

2 ـ فيضان الماء من بين أصابعه بالحديبية حتى سقى وروى جيشاً كاملاً قوامه ألف وأربعمائة رجل وامرأة[3].

3 ـ تكثير الطعام يوم الخندق حتى أطعم بصاع من شعير وجدى صغير جيشاً كاملاً تعداده ألف رجل أو يزيدون[4].

4 ـ حنين الجذع إليه ﷺ ونطقه وسماع مئات الرجال الأخيار له، وعدم سكوته إلى أن أتاه الرسول وهدهده كما تهدهد الأم طفلها فسكت[5].

5 ـ رده ﷺ عين قتادة حيث خرجت حتى تدلت على وجنته بسبب ضربة أصابته يوم أحد فردها ﷺ، ومسح عليها فكانت أحسن منها قبل إصابتها[6].

---

(1) يقول الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: 88)، ويقول: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ (هود: 13). ويقول عز وجل: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ (يونس: 38).

(2) متفق عليه واللفظ لمسلم. اللؤلؤ والمرجان (1/ 30)، ومسلم (1/ 92)، والبخارى (6/ 224).

(3) رواه البخارى (4/ 234، 5/ 156، 157).

(4) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (3/ 20، 21). وكان هذا فى غزوة الخندق.

(5) رواه البخارى بمعناه (2/ 11).

(6) سيرة ابن هشام (3/ 33).

6 ـ تسبيح الطعام بين يديه ﷺ وأصحابه يسمعون، وهم عدد كبير من خيار البشر[1].

7 ـ انشقاق القمر له ﷺ[2] حين طلبت قريش ذلك استدلالاً على نبوته ﷺ فانشق القمر فكان فلقتين على جبل أبى قبيس وأهل مكة كلهم يشاهدون، ويعجبون، أُثبتت هذه الحادثة فى القرآن بقول اللّه تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ (القمر: 1).

8 ـ تسليم الشجر والحجر عليه على مرأى من الناس ومسمع، عشرات المرات[3].

9 ـ الإسراء به ﷺ، والعروج من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم إلى السماء السابعة حيث سدرة المنتهى عند جنة المأوى، فبلغ مستوى سَمَعَ فيه صريف الأقلام، وناداه ربه، وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس[4]، كل هذه المعجزات وغيرها كثير قد ثبت بما هو أشبه بالمتواتر من الأخبار.

10 ـ إخباره بالمغيبات الكثيرة[5] فكانت كما أخبر. ونذكر منها على سبيل المثال خبراً واحداً من أعجب الأخبار، وهو قوله فى رواية أحمد بسند صحيح: «**سيكون فى آخر أمتى رجال يركبون على السروج كأشباه الرحال، ينزلون بها على أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات على رؤوسهن البخت العجاف، العنوهن فإنهن ملعونات**»[6].

---

(1) رواه البخارى (4/ 235).

(2) حديث الانشقاق ثابت فى الصحيحين. اللؤلؤ والمرجان (3/ 280).

(3) حديث تسليم الحجر عليه ﷺ بمكة وإخباره بهذا ثابت فى مسلم (7/ 58)، وتسليم الأحجار والأشجار عليه ﷺ وسماع على رضى الله عنه هذا فى الترمذى فى المناقب برقم (3630)، من كتاب المناقب، باب (3،6).

(4) راجع تعليقات الصفحات السابقة من الكتاب تجد آيات وأحاديث الإسراء والمعراج.

(5) من ذلك قوله فى الحسن بن على رضى الله عنه فيما أخرجه البخارى (5/ 32): «**إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين** «**عظيمتين**» **من المسلمين**» فكان كما أخبر، وقوله فى عمار بن ياسر وهو يحمل اللبن لبناء المسجد: «تقتلك الفئة الباغية» فكان كما أخبر كذلك، فقد قتل عمار فى حرب على ومعاوية قتله جيش الشام، والحديث ثابت فى مسلم (8/ 186).

(6) رواه أحمد، والطبرانى فى الثلاثة، ورجال أحمد رجال صحيح، هكذا قال الساعاتى فى شرحه على الفتح الربانى (17/ 301، 302).

فما هذه المركوبات يا ترى التى أخبر أنها سيركبها رجال من أمته ؟ إنها كسرج الفرس، وليست بفرس وإنها لتشبه رحل البعير ولكن ليست على البعير، إنها قَطْعاً السيارة بنت القرن التاسع عشر الميلادى، فهل كانت البشرية تحلم يومئذ بالسيارة التى تقطع مئات الأميال فى بضع ساعات حاملة الركاب وأمتعتهم ؟ والجواب: لا. ولكن الوحى المحمدى أخبر بقدر ما يمكن أن يفهمه السامعون يومئذ، وانتظر المؤمنون حتى يتم هذا الخبر، وتمضى الأجيال جيلاً بعد جيل إلى القرن الثالث عشر الهجرى حيث ظهر ما أخبر به ﷺ، وركب الناس على السروج كأشباه الرحال، ونزلوا بها على أبواب المساجد .. ثم هل عرفت الدنيا يوم أخبر الرسول ﷺ عن (المينى جيب) ؟ وهل يعقل أن امرأة مؤمنة تمشى فى الشوارع بين المسلمين وهى كاشفة عن فخذيها وكل جسمها ما عدا بطنها وظهرها إلى ركبتيها؟ وهل عرفت النساء وكل النساء كفكفة الشعر على الرأس حتى يكون كذروة البعير الهزيل فى غير القرن العشرين؟ وهل يعقل أن امرأة مسلمة تفعل بشعرها هكذا، وتخرج بارزة فى الشوارع والطرقات؟ والجواب: لا. ولكن ما أخبر به محمد الرسول ﷺ قد تحقق وهو من الغيب البعيد فى أعماق المجهول، فكان ذلك آية أن محمداً رسول الله ﷺ اللهم صلى على محمد وآله وصحبه والمؤمنين به، الناهجين نهجه، المستقيمين على صراطك المستقيم إلى يوم الدين.

* * *

ختم النبوات

والكلمة الأخيرة فى مبحث الإيمان بالرسل عليهم السلام نتناول فيها أمرين هامين:

أولهما: ختم سائر النبوات.

وثانيهما: النبى الخاتم.

أما عن الأمر الأول فنقول: إن الله تعالى قد ختم سائر النبوات بآخر نبوة، وهى نبوة محمد رسول الله ﷺ، فلم يبق من مطمع لأحد فى أن يدعى النبوة، أو يُؤتاها بعد نبوة محمد النبى الأمى أبداً، ومن جهل هذه الحقيقة، أو تجاهلها تضليلاً وخداعاً وادعى النبوة فقد كذب على الله، وأعظم الفرْية عليه، وكذبه فى قوله، وكذب على خلقه، ولم يلبث طويلاً حتى يفتضح شر فضيحة ويُلعنَ بين الناس كما حصل لعدد من الدجالين الكذابين مثل مسيلمة الكذاب فى الأولين، وأحمد مرزا غلام[1] فى الآخرين عليهما لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وذلك لأن الله تعالى قد أخبر بختم النبوات بنبوة محمد ﷺ فى قوله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾ (الأحزاب:40).

وبهذا كان الإيمان بمحمد ورسالته والعمل بها ضرورياً للنجاة من عذاب يوم القيامة، وللفوز بالنعيم المقيم فيه، وأيما عبد لا يؤمن بهذه الرسالة ولا يعمل بمحتواها فى حدود طاقته وما يستطيع إلا وهو من أهل الخسران يوم القيامة، ولا ينفعه إيمان بالله ولا بأنبيائه، وذلك لعدم عمله برسالة محمد الختامية، التى جعلها الله تعالى مزكية للنفوس، مطيبة للأرواح، فلا تزكو نفس امرئ إلا على الإيمان بها والعمل بما جاء فيها، وزكاة النفس هى المؤهل للفرد لأن ينجو من النار ويفوز بالجنة دار الأبرار، وذلك لقوله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ (الشمس:9-10). وعن الأمر الثانى نقول: إن خاتم الأنبياء قطعاً هو النبى محمد ﷺ، لقول الله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾ (الأحزاب: 40).

وإن الواجب على كل إنسان فى هذا الوجود البشرى أن يؤمن به ويتبع ما جاء به من الحق والهدى، وذلك لأمر الله تعالى بالإيمان به وباتباع ما جاء به فى مثل قوله: ﴿ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا** ﴾ (التغابن: 8).

ولتخصيص الرب تبارك وتعالى رحمته وهى الفوز بالجنة بعد النجاة من النار بمن آمن به واتبعه فيما جاء به ﷺ قال تعالى: ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ**

---

(1) غلام أحمد بن غلام مرتضى القاديانى هو صاحب القاديانية الباطلة الكافرة.

الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: 156، 157).

ولتعليق الله تعالى هداية الإنسان إلى الكمال البشرى، وحصوله على مؤهلات الفرد للسعادة فى الدنيا والآخرة على الإيمان به واتباعه إذ قال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: 158).

وأخيراً فإن من الأدلة السمعية على ختم النبوة، وأن محمداً هو خاتم الأنبياء حديث الصحيحين الذى فيه يقول الرسول الخاتم ﷺ: «**إن مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة ! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**». [1]

ومثل هذا الحديث فى الدلالة على ختم النبوة بنبوة محمد ﷺ وأنه الخاتم للأنبياء قبله ـ قوله فداه أبى وأمى فى رواية الصحيحين: «إنه سيكون فى أمتى كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبى، وأنا خاتم النبيين، لا نبى بعدى». [2]

وقوله: «**إن لى أسماء أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب الذى ليس بعده أحدٌ**». [3]

ومن أقوى الأدلة وأعظم البراهين على ختم نبوة محمد ﷺ لسائر النبوات أن يمضى الآن ما يقرب من ألف وأربعمائة سنة على الإعلان بختم النبوات بنبوته ﷺ. ولم تأت نبوة حق، ولا نبى صدق، فى كل هذه الحقبة من الزمن الطويلة، فى حين أنه كان قبل نبوة محمد ﷺ تظهر النبوات فى كل عصر ومصر، وقد يوجد العدد من الأنبياء فى الأمة الواحدة، والبلد الواحد[4]، كما هو معلوم من التاريخ البشرى وفى جانبه الدينى بالخصوص.

(1) اللؤلؤ والمرجان (3/ 94).

(2) رواه أحمد والترمذى وأبو داود واللفظ له (2/ 414)، وهو متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (3/ 309)، ورواه البخارى بلفظ: «**ولا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريباً من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله**» (4/ 243)، وكذا مسلم (8/ 189).

(3) متفق عليه واللفظ لمسلم، وفى رواية لمسلم: «**وأنا العاقب، والعاقب الذى ليس بعده نبى**» (7/ 89)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 110)، والبخارى (4/ 225).

(4) كما وُجد داود وسليمان فى عصر واحد، وكما وجد زكريا ويحيى وعيسى فى بلد واحد وأمة واحدة. والأمثلة كثيرة وما هناك حاجة إليها.

الركن الخامس من أركان عقيدة المؤمن

الإيمان باليوم الآخر

تعريف:

ما المراد باليوم الآخر؟

إن المراد من اليوم الآخر أمران: الأول: فناء هذه العوالم كلها وانتهاء هذه الحياة بكاملها، والثاني: إقبال الحياة الآخرة وابتداؤها. فدل لفظ اليوم الآخر على آخر يوم من أيام هذه الحياة وعلى اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية ؛ إذ هو يوم واحد لا ثاني له فيها البتة، فالإيمان باليوم الآخر مقتض للتصديق بأخبار الله تعالى بفناء هذه الحياة الدنيا، وبما يسبقه من أمارات وما يتم فيه من أحوال واختلاف أحوال، كما هو مقتض كذلك لتصديق الله تعالى فى إخباره عن الحياة الآخرة، وما فيها من نعيم وعذاب، وما يجرى فيها من أمور عظام، كبعث الخلائق، وحشرهم، وحسابهم، ومجازاتهم على أعمالهم الإرادية الاختيارية التى قاموا بها فى هذه الحياة الدنيا.

إمكان الفناء:

هل الفناء ممكن ؟

والجواب: نعم. الفناء ممكن ؛ لأن العالم ليس أزلياً أبداً، وما لم يكن أزلياً فهو حادث، وما كان حادثاً فالفناء من صفاته اللازمة له، والتى لا تنفك عنه بحال، وطروء الفناء على الحادثات مُشاهَد فى هذه الحياة لا يحتاج إلى دليل. إنه قد ثبت بالبراهين العقلية والمادية معاً حدوث العالم، إن التغير الجارى والمستمر على العوالم دالٌ على حدوثها، وإن حدوثها دالٌ على فنائها، كما إن قانون الطاقة المتاحة ـ وهى نظرية علمية فى غاية الصحة ـ قد أثبتت حدوث العالم، وبالتالى قد أثبتت وجود الله تعالى الأزلى الموجد لكل موجود، وكما أثبتت حدوث العالم أثبتت إمكان فنائه أيضاً ؛ إذ حقيقة هذا القانون العلمى الهائل هى أن الحرارة تنتقل دائماً من وجود حرارى إلى آخر غير حرارى، واستمرار هذه العملية سيترتب عليها أن تتساوى حرارة جميع الموجودات، وحينئذ لا تبقى أية طاقة مفيدة للحياة والعمل؛ فتنتهى العمليات الكيماوية الطبيعية، وعندها تنتهى الحياة تلقائياً، وبهذا بطلت أزلية العالم أى قدَمُه اللاابتدائى ؛ إذ لو كان أزلياً لفقد طاقته منذ زمان بعيد وانتهت بذلك الحياة.

وثبت أيضاً إمكان فنائه اللازم له، والذى هو فى طريقه إليه، لأن عملية انتقال الطاقة من الأجسام الحرارية إلى خلافها مستمرة، ولابد أن يأتى عليها يوم تتساوى فيه حرارة جميع الأجسام، وعندها تتوقف العمليات الكيماوية الطبيعية، وتنتهى الحياة، ويعم الفناءُ هذا الكون كله.

ودليل آخر: أن العالم كلٌّ له أجزاء، ونحن نشاهد الفناء يجرى فى أجزائه باستمرار. فالإنسان كالحيوان كالنبات كلها تفنى أمامنا، وتحت سمعنا وبصرنا وتفقد وجودها باستمرار ودون انقطاع، وهى قَطْعاً أجزاء من هذا العالم، كما أننا نرى الزلزال من الفينة إلى الفينة يدمر مدناً وقرى كبيرة، ويغير معالم الأرض فى كثير من البلاد فى العالم، فظاهرة الفناء هذه لأجزاء العالم دالة على فناء العالم كله ؛ إذ ما أمكن الفناء فى أجزائه أمكن فناه كله.

وبناء على هذا فاليوم الآخر ممكن الوقوع وهو مرتقب جداً ومنتظر أنبائه، وهو اليوم الذى لا يأتى بعده يوم من أيام هذه الحياة، وذلك لخراب العالم وفنائه.

إمكان المعاد:

هل المعاد ممكن ؟

ولِمَ لا يكون ممكناً وإثباته لا يوجب أى تناقض عقلى أبداً، وكل ما لا يُوجب تصورُ وقوعه تناقضَاً عقلياً فهو من قبيل الجائز الإمكان.

وهل تصور وقوع الحياة بعد فنائها كما كانت وأفضل مما كانت يوجب تناقضاً عقلياً ؟ وإذا كان الجواب: لا، أبداً. فالمعاد إذاً وهو بعث الخلائق أحياء بعد فنائهم الذى طرأ على حياتهم الأولى ممكن وجائز.

وشيء آخر وهو إذا كان المعاد غير مستحيل ولا واجب ؛ إذ المستحيل ما أوجب تصور وقوعه تناقضاً عقلياً كتصور وقوع الشيء موجوداً غير موجود، والواجب ما أوجب عدم تصور وقوعه تناقضاً عقلياً كتصور وجود مصنوع بدون صانع، أو مخلوق بدون خالق، أو معلول بدون علته، فهو - أى المعاد - إذاً ممكن جائز، وهكذا ثبت بالقياس العقلى، والبرهان المنطقى إمكان البعث وجواز وقوعه.

أدلة البعث (1)

لقد سلك القرآن الكريم فى إثبات المعاد والحياة الثانية مسالك عقلية هى غاية فى الوضوح والسهولة منها:

- أن الشيء إذا لم يكن ثم كان وأعدم كانت إعادته أيسر وأهون على من بدأه أول مرة ثم أعدمه وأفناه. فالذى بنى داراً، ثم هدمها لا يستحيل عليه ولا فى حقه إعادة بنائها كما كانت أو خيراً مما كانت.

(1) البعث والمعاد واليوم الآخر ألفاظ مختلفة ومدلولها واحد، وهو وجود حياة ثانية بعد فناء الأولى.

والذي يصنع آلة من الآلات مخترعاً لها لا يستصعب عليه أن يُعيدها كما كانت إذا هو كسرها بإرادته واختياره ؛ ليحولها إلى آلة أفضل منها قبلُ، ورد هذا المسلك من الاستدلال في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الروم:27). وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (يس: 79). وقوله: ﴿ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (يس: 78).

● الاستدلال بنوم الإنسان والحيوان واستيقاظهما، فالنوم يعتبر موتاً مصغراً، والاستيقاظ يعتبر حياة مصغرة أيضاً، فكما تتم عملية النوم للإنسان والحيوان، وعملية الاستيقاظ لهما تتم عملية الموت والحياة الكاملة لهما. جاء هذا الاستدلال في قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام:60).

● الاستدلال بالأرض الميتة بسبب المَحْل، والجدب، والقحط حيث تنعدم فيها الحياة تماماً، ثم ينزل بها الغيث، أو تسقى بالماء فتعود إليها كما كانت وخيراً مما كانت نماء وازدهاراً. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فصلت:39). وقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الحج:5، 6).

● الاستدلال بالقدرة الكافية التي بها خُلق آدم من تراب، وذريته من نطفة على إمكان المعاد والبعث وتقرير وقوعهما، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ (الحج: 5).

● الاستدلال بالقدرة على خلق العوالم على إمكان إعادة حياة الناس بعد موتهم، وفناء أجسامهم، قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (غافر:57). وقال عز وجل: ﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝٢٩ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝٣١ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۝٣٢ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ (النازعات:27 ـ 33). وقال تعالى ـ رداً على من قال: ﴿ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ

الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ (يس:78-81).

●الاستدلال باختلاف سلوك الناس فى هذه الحياة بالخير والشر والصلاح والفساد على وجود حياة أخرى يُجزى فيها كل عامل بما عمل من خير وشر ؛ لعدم استكمال المجازاة فى هذه الحياة، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران: 185). وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (يونس: 4). وقال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (1) ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ (الليل: 4 ـ 11).

●الاستدلال بالتكاليف الشرعية على وجود حياة أخرى يتم فيها الجزاء على القيام بتلك التكاليف، وعلى تركها وإهمالها ؛ إذ لم يتوفر جزاء كاف فى هذه الحياة الدنيا على تلك التكاليف قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (الملك: 1، 2). وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا (2) وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: 115). وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى(3)﴾ (القيامة: 36).

أدلـــة أخـــرى:

1 ـ شعور كل أفراد البشر فى جميع العصور والدهور ـ وسواء منهم المتحضرون، أو المتبدون ـ شعور الجميع بوجود حياة ثانية يلقى فيها الإنسان جزاء عمله الذى قام به فى هذه الحياة الدنيا من خير أو شر وصلاح وفساد، هذا الشعور العام دال على وجود المعاد والحياة الثانية ؛ إذ لا يمكن أن يعم هذا الشعور كل أفراد البشر ولا يكون له حقيقة فى نفس الأمر، ولا صورة له فى الخارج، وهو شعور كشعور الإنسان بالحاجة إلى الطعام والشراب الذى دل بوجوده وعمومه على وجود غذاء للإنسان لجوعه وماء لعطشه.

---

(1)شتى: متنوع ومختلف.
(2)عبثاً: أى لا نأمركم ولا ننهاكم، إذ فعل الأمر وترك المنهى هو العبادة التى خُلق الإنسان من أجلها.
(3)سدى: أى مهملاً لا يؤمر ولا يُنهى ولا يبعث ليحاسب ويجزى.

2 ـ ما تأكد لدى الناس اليوم من مناجاة الأرواح. ومخاطبتها ورؤيتها ـ دال على أن وراء هذه الحياة المادية حياة أخرى روحية وجثمانية(1).

3 ـ رؤى الناس المتعددة التى واكبت الحياة الإنسانية ولم يخل منها زمان ولا مكان، هذه الرؤى لأموات الناس فى المنام، والحديث معهم، ومعرفة أحوالهم وسؤالهم، وإخبار الأموات من رآهم فى منامه بأمور غيبية فتكون طبق ما أخبروا به دلالة قطعية على الحياة الثانية.

آخر الأدلة:

وآخر الأدلة وأعظمها على البعث، والجزاء، والحياة الآخرة أخبار الله تعالى، وأخبار رسوله ﷺ إن من آمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله لا يجد داعياً للشك، ولا مثاراً للجدل والنزاع فى ثبوت المعاد، وكل ما يتم فيه من حساب وجزاء ؛ إذ أخبار الله تعالى كلها صدق وحق، فقد أخبر تعالى بآلاف الأخبار فلم تكن إلا وفق ما أخبر، كما أخبر رسوله بآلاف الأخبار فلم يتخلف منها خبر واحد عن مدلوله، فكيف يُعقل إذاً أن يخبر الله تعالى ويخبر رسوله بمئات الأخبار عن ثبوت الحياة الثانية، وعن كل ما يجرى فيها من بعث، وحساب، وجزاء، ثم لا يصح شىء من ذلك ولا يثبت ؟ اللهم إن هذا باطل لا يصح، ومحال لا يُقبل ولا يعقل.

إن حتمية الفناء ووجود معاد كامل، وحياة أفضل تحوى نعيماً للمحسنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وجحيماً للمسيئين الذين أشركوا وعملوا السيئات مما أخبر الله تعالى به، وقرره فى كل كتبه، وعلى ألسنة جميع رسله فالشك فيه ضرب من المرض العقلى والهبوط الشخصى، والعياذ بالله تعالى من ذلك.

الحكمة من المعاد:

إن الحكمة من المعاد الأخروى الذى هو بعث الخلائق أحياء بعد موتهم وفنائهم، أحياء كما كانوا يوم بدأ الله تعالى خلقهم، هو مجازاة المكلفين منهم بحسب كسبهم الإرادى الاختيارى الذى كسبوه فى هذه الدنيا ؛ لأن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء قال تعالى: ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** ﴾ (آل عمران: 185).

فالناس يعيشون فى هذه الحياة الدنيا متفاوتين تفاوتاً كبيراً فى أرزاقهم، وآجالهم،

(1) أصحاب هذه الفكرة يعتقدون أنهم يناجون أرواح البشر، والحق أنها أرواح لبعض الجن والشياطين، وليست أرواح من مات من البشر، وذكرنا هذا لما فيه من إثبات عالم الغيب وحياة روحية تخالف هذه الحياة المادية.

وأعمالهم، وفى سعادتهم، وشقائهم، فمنهم الظالم الغشوم، ومنهم المظلوم المهضوم، ومنهم الصحيح السليم، ومنهم المريض السقيم، ومنهم الغنى الثرى، ومنهم الفقير الشقى، ومنهم العزيز، ومنهم الذليل، ومنهم المحسن، ومنهم المسىء، إلى غير هذا من التفاوت والاختلاف، فلو أنهم يموتون بانقضاء آجالهم ولا يبعثون لكان ذلك منافياً للحكمة، مجانباً للعدل والرحمة، ومن هنا قضى الله تبارك وتعالى بالبعث والجزاء، وحكم بهما، فهما كائنان لا محالة، فقد أمر رسوله محمداً ﷺ أن يقسم عليهما في قوله: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (التغابن: 7). وقال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (النحل: 38-40).

وجوب الإيمان باليوم الآخر

إن الإيمان باليوم الآخر هو عبارة عن التصديق الجازم بانقلاب هائل يتم فى الكون، ويكون انتهاء هذه الحياة الدنيا بكاملها، وابتداء حياة أخرى، وهى الدار الآخرة بكل ما فيها من حقائق مدهشة، من بعث الخلائق وحشرهم، وحسابهم، ومجازاتهم.

هذا الإيمان ليس واجباً فحسب بل هو أحد أركان ستة عليها تبنى عقيدة المؤمن، فلا تتم إذاً عقيدته إلا به، ولا تصح إلا عليه، قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (البقرة: 177).

ولأهمية هذا المعتقد فى حياة المؤمن، ولآثاره الكبرى فى استقامة الفرد وصلاحه عُنى القرآن الكريم به عناية لا تقل عن العناية بالإيمان بالله سبحانه وتعالى، فقد ذكره فى عشرات السور منه، وفى مئات الآيات: مرة بوصفه والحديث عنه، كقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩)

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (34) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (35) وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (36) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ ﴾ (الحاقة: 13-37).

ومرة تقريره وتأكيد مجيئه، كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ (الحج: 6، 7) وقوله تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (التغابن: 7).

ومرة بتعليق الاستقامة على الإيمان به، كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (الطلاق: 2). وقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ (الأحزاب: 21).

ومرة بإثبات الهداية والفلاح للموقنين به، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة: 4، 5).

ومما يؤكد أهمية هذا المعتقد، ويجعله كالصمام لحياة الاستقامة والطهر، والخير هو ذكره مقروناً بالإيمان باللّه تعالى، وذلك كقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: 62). وكقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (الطلاق: 2). وقوله تعالى: ﴿ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (النساء: 38). وقوله: ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (النور: 2). فى عدة آيات من كتاب اللّه تعالى.

فدلت هذه العناية القرآنية بهذين الركنين من أركان الإيمان على أنهما قوام حياة الروح، وعليهما مدار استقامة المرء فى هذه الحياة، وأن الإيمان بدونهما ليس شيئاً، وأن من عدمهما قد عدم كل خير، وأن من افتقدهما فقد افتقد كل عناصر الخير والفضيلة فى نفسه وأصبح من شر البرية.

وبالجملة فإن معتقد الإيمان باللّه واليوم الآخر هو رأس كل عقيدة، وأساس كل إيمان، وعليه مدار استقامة الإنسان، وصلاح خُلقه، وطهارة روحه، وبدونه فالإنسان مخلوق لا خير فيه لا لنفسه، ولا لغيره، وهو شر كله، لا يُؤمَن جانبُه، ولا يُطمأن إليه، ولا تسكن النفوس عنده، وذلك لما انعدم عنده، من أصول الخير وينابيع الفضيلة والكمال البشرى.

ظواهر الانقلاب الكونى

أو أشراط الساعة

إن لكل كائن حى كالإنسان والحيوان، أو نامٍ كالأشجار والنباتات علامات تظهر له عند دنو أجله، وقرب ساعة هلاكه.

فالإنسان يشيب ويهرم، ويمرض ويضعف، ويكون ذلك علامة دنو أجله، وقرب ساعة موته، والحيوان فى غالب أحواله كالإنسان يعتريه الهرم والضعف، ويتنابه المرض ؛ فتخور قواه، وتنحلّ بنيته ويهلك، والنبات كالزرع مثلاً يصفر وييبس، ثم يَذوى، ويسقط ويبيد.

هذه أجزاء من الكون يسبق هلاكَها وفناءها علاماتٌ، تؤذن بقرب ذلك، والكون وهو كلٌّ له (حتماً) علامات تدل على قرب فنائه، ووقت دماره وخرابه، قد جاء الوحى الإلهى بذكر تلك العلامات وبيانها، ونبَّهت الرسل عليها، ولفتت النظر إليها ؛ تحذيراً وتعليماً، ففى القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿ **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ** ﴾ (محمد: 18).

● ومن أشراطها التى جاء الوحى بذكرها: بعثة النبى محمد ﷺ وانشقاق القمر آية له عليه الصلاة والسلام، أما بعثته ﷺ فقد كانت شرطاً من أشراط الساعة ؛ لأن نبوته ختم الله تعالى بها سائر النبوات، فلا نبى بعده، وهذا إيذان بقرب نهاية الحياة حيث لم تتطلب الفترة المتبقية من عمر الحياة لقصر زمنها، لم تتطلب تجديد التشريع ببعثة أنبياء آخرين ؛ ولذا قال الرسول ﷺ فى الصحيحين: «**بُعثتُ أنا والساعة كهاتين**» وأشارَ إلى أصبعيه السبابة والوسطى وقرنَ بينَهُما(1).

● وأما انشقاق القمر: فقد كان شرطاً من أشراط الساعة ؛ لأن الله تعالى ذَكَرَهُ مقروناً بالإخبار باقتراب الساعة، فقال تعالى: ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ** ﴾ (القمر: 1-3).

وقد انشق القمر فعلاً على عهد النبى ﷺ حيث طلبت منه قريش آية تدل على نبوته فدعا الله، فانشق القمر فلقتين على جبل أبى قبيس على مرأى من أهل مكة، وهم ينظرون إليه(2). ونزيد هذه الحقيقة توضيحاً فنقول: إن الله تعالى ما زال يبعث بالأنبياء ويرسل بالرسل لهداية

(1) متفق عليه بمعناه. اللؤلؤ والمرجان (3/ 314)، البخارى (6/ 206)، ومسلم (8/ 208، 209).

(2) جاء هذا فى حديث متفق عليه كما تقدم. اللؤلؤ والمرجان (3/ 208)، والبخارى (4/ 251)، ومسلم (8/ 132، 153).

الناس، وإصلاحهم، وإعدادهم للكمال الذى خُلقوا له فى الدنيا والآخرة حتى ختم الرسالات برسالة نبيه محمد ﷺ، وأتم الشرائع بشريعته، وجعله خاتم الأنبياء، وأخبر أنه لا نبى بعده، فدل ذلك على أن الوقت الباقى من عمر هذه الدنيا قصير، وأن الرسالة الأخيرة تُتَمّمها إصلاحاً وهداية، فلا يحتاج معها البشر إلى وحى جديد، وإلى رسالة ناسخة أو مجددة للشرائع والأحكام، كما كانت الحال قبل هذه الرسالة الختامية، ولهذا كانت بعثته ﷺ علامة من علامات قرب الساعة، وانتهاء هذه الحياة الدنيا.

● ومن الظواهر الكونية الخارقة للعادة التى ستظهر وتكون علامات الساعة وأشراطاً لها ما جاء فى الوحى الإلهى (القرآن الكريم) من نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض حكماً عدلاً، فقد جاء قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ (الزخرف: 61). وذلك بعد الحديث عنه فى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (الزخرف: 57 ـ 61).

● ومن تلك الظواهر أيضاً ظهور دابة عجيبة الخلق، تخرج إلى الناس، فتكلمهم، فيفتنون بها أيما افتتان، فقد جاء قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ ﴾ (النمل: 82).

● ومنها انكسار سد يأجوج ومأجوج، وخروج تلك الأمة المفسدة المدمرة لتعيث فى الأرض فساداً وتروع الناس أيما ترويع ؛ إذ جاء قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (الأنبياء: 96، 97).

هذا فى الكتاب، و أما فى السنة وهى من وحى الله فقد أخرج مسلم من رواية حذيفة بن أسيد الغفارى ﷺ قال: «اطلع النبى ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «**ما تذاكرون؟**» قالوا: نذكرُ الساعةَ. قال: «**إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشرَ آيات**»، فذكرَ الدُّخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس منْ مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسفٌ بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»(1).

(1) مسلم (8/ 179).

وهذه من علامات الساعة الكبرى، وستسبقها علامات صغرى وهى كثيرة جداً، وقد ظهر منها من يوم الإخبار بها إلى الآن عدد كبير، وقبل ذكر بعضها ننبه إلى أن العلامات الكبرى إذا ظهرت آية منها تتابعت حتى لكأنها خرزات فى خيط، متى سقطت واحدة تتابع باقى الخرزات حتى تسقط عن آخرها فى زمن وجيز محدود وبرهة من الزمن قصيرة ـ كما أن العلامات الكبرى أولها ظهوراً طلوع الشمس من مغربها، لحديث مسلم فى «أن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً»(1).

هذا ولنعلم هنا أن هذه العلامات الكبرى إذا ظهرت منها علامة أغلق باب التوبة على الناس، فلم يقبل إيمان عبد بعدها لم يكن قد آمن من قبل، كما لم يقبل منه خير لم يقدمه قبل رؤية الآية وظهورها ؛ وذلك لقول الله تعالى من سورة الأنعام: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**﴾ (2)، وهذا جدول بالآيات الصغرى ما ظهر منها حتى الآن وما لم يظهر منها بعد، نقدمه كما ورد عن رسول الله ﷺ .

1 ـ قوله ﷺ فى رواية الصحيحين: «**لا تقومُ الساعةُ حتى تقتتل فئتان عظيمتان، وتكون بينهما مقتلة عظيمة، ودعواهما واحدة**»(3)، هذه العلامة قد ظهرت كما أخبر بها رسول الله ﷺ ؛ إذ المراد من الفئتين عليّ ومن معه، ومعاوية ومن معه رضي الله عنهم أجمعين، والمقتلة العظيمة كانت بصفين.

2 ـ قوله ﷺ فى رواية مسلم: «**لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج، قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: القتل القتل**»(4). وقد ظهرت هذه العلامة فعلاً فإن الحروب التى تقع فى هذه الظروف قتلاها لا يعدون بالعشرات ولا بالمئات، ولا حتى بالألوف بل بعشرات الألوف ومئاتها، فى حين أن قتلى حروب الإسلام الأولى التى كانت على عهد رسول الله ﷺ ـ والتى دامت زهاء

---

(1) مسلم (8/ 202).

(2) الآية (158)، وروى مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض**» (1/ 95، 96)، وروى البخارى: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها ما لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً**» (7/ 132)، واللؤلؤ والمرجان (1/ 31).

(3) اللفظ لمسلم (8/ 170)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 303)، والبخارى (4/ 243).

(4) مسلم (8/ 170، 171).

عشر سنوات ـ لم تتجاوز ألفين وخمسمائة قتيل حسب إحصائية وثيقة ذكرها غير واحد»[1].

3 ـ قوله ﷺ في رواية الصحيحين عن أبي هريرة: «**لا تقوم الساعة حتى ينحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه**»[2]، هذه العلامة لم تظهر بعد.

4 ـ قوله ﷺ في صحيح مسلم: «منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مديها ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم .. الحديث»[3].

وهذه العلامة قد ظهرت كاملة، فقد ذهبت الخلافة الإسلامية منذ زمن واستقل أهل العراق بعراقهم، وأهل الشام بشامهم، وأهل مصر بمصرهم، وانقطع ما كان يأتى أهل الحجاز من تلك البلاد من خراج وغيره، وعاد الأمر فى الحجاز كما كان قبل فتح تلك البلاد، وفى هذا الحديث آية من أعظم الآيات على صدق نبوة محمد ﷺ، وثبوت رسالته ؛ إذ أخبر بهذا الغيب والإسلام لم يتجاوز أرض الجزيرة العربية، فأخبر بأن العراق والشام ومصر ستفتح وتكون دار إسلام، ويأتى منها الخير الكثير لأهل الحجاز ثم بعد ذلك يطرأ عليها ما يجعلها تمنع ما كانت تعطيه لأهل الحجاز، فتم كل ذلك حرفياً، ولم يتخلف منه شيء قط، فصلى الله وسلم على محمد نبى الله ورسوله صدقاً وحقاً. ويالخيبة من كفر به، ولم يتبعه فيما جاء به.

5 ـ قوله ﷺ فى الصحيحين: «**لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى**»[4]. وقد ظهرت هذه العلامة كما أخبر ﷺ ؛ فقد احترقت الحرة الشرقية من المدينة النبوية، واستمرت النار ملتهبة فيها مدة طويلة، ولهبها يرى من بصرى الشام، وما زالت حجارتها سوداء محترقة كالفحم إلى الآن، وكان ظهور هذه النار ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة من عام (654هـ).

6 ـ قوله ﷺ فى الصحيحين: «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذى الخلصة، وكانت صنماً تعبدها دوس فى الجاهلية بتبالة**»[5]. وقد ظهرت هذه العلامة وفق إخباره ﷺ، فقد عادت الجاهلية إلى أرض الجزيرة قبيل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فعبدت الأشجار والأحجار، وانتشر ذلك فى شتى بلاد العالم الإسلامى فذبحت

---

(1) لقد سمعت هذا واستقيته من أخينا الشيخ أبى الحسن الندوى، وأكده لى مسنداً له بسند لا يتطرق إليه الشك.

(2) اللفظ لمسلم (8/ 114)، اللؤلؤ والمرجان (3/ 305)، والبخارى (9/ 73)، وللحديث تتمة.

(3) مسلم (8/ 175).

(4) اللؤلؤ والمرجان (3/ 305)، والبخارى (9/ 73)، ومسلم (8/ 180).

(5) متفق عليه. واللفظ لمسلم (8/ 182)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 306)، والبخارى (9/ 73).

الذبائح، وأوقدت الشموع، ونذرت النذور للمزارات والأضرحة والقبور بصورة عجيبة، وعلى مرأى ومسمع من كثير من علماء المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله، وفى هذا الخبر النبوى الشريف والذى تم طبق ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ ردٌّ على الذين يزعمون أن هذه الأمة لا يقع بينها الشرك، ولا يوجد بينها من يعمل به مستدلين بقوله ﷺ: «**إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب**».(1)

وفاتهم أن يفهموا أن يأس الشيطان ليس حجة فى عدم وجود الشرك فى الأمة الإسلامية، إن الشيطان يئس من أن يُعبد فى الجزيرة العربية لما رأى أعلام التوحيد منشورة على ربوعها، وأهل كلمة التقوى الذين هم أحق بها وأهلها من أصحاب رسول الله ﷺ يملأون كل أجوائها وأرجائها تهليلاً وتكبيراً، وتحميداً وتسبيحاً فيئس اللعين، ولكن ما إن ذهب ذلك الجيل الذى رباه القائد الأعظم محمد ﷺ وما تلاه من أجيال، وجاءت أجيال أخرى لم تذق طعم تلك التربية النبوية، ولم تعرف بحق هدى الله الذى جاء به رسوله ﷺ، فخالط أعمالها الشرك، وداخل بعض معتقداتها الزيغ والضلال حتى ذهب عن الشيطان يأسه الأول، وعاد إليه الأمل المفقود، وما زال يُحسّن لكثير من أفراد الإسلام الشرك والعمل به ،حتى أصبح الشرك أكثر فشواً فى الأمة من التوحيد، وكفى بالواقع شاهداً على ما نقول ودليلاً، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ (يوسف: 106).

7 ـ قوله ﷺ فى الصحيحين: «**لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه**»(2). وهذه العلامة لم تظهر بعد.

8 ـ قوله ﷺ فى الصحيحين: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود**»(3).

وقد بدت بوادر هذه العلامة تلوح فى الأفق، فقد قاتل العرب المسلمون اليهود فى عدة معارك فى أرض فلسطين، وسوف يستمر قتالهم لهم حتى يكتب الله النصر للمسلمين، ويستأصلوا اليهود من أرض القدس نهائياً.

(1) رواه مسلم (8/ 138)، وله تتمة، ورواه الترمذى بلفظ: «**ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد فى بلادكم هذه أبداً، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم وسيرضى بها**» «كتاب البر» «باب 25» وأحمد (2/ 368، 3/ 313، 354، 366، 384، 5/ 73). والترمذى فى الفتن أيضاً باب (2).

(2) اللؤلؤ والمرجان (3/ 307)، ومسلم (8/ 183)، والبخارى (9/ 73).

(3) متفق عليه. واللفظ لمسلم (8/ 188)، والبخارى (4/ 51)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 308).

9 ـ قوله ﷺ: «**بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم: يصبح الرجل مؤمناً، ويمسى كافراً، ويمسى مؤمناً، ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا**»[1] وقد أخذت هذه العلامة فى الظهور، ووقع لعدد كثير من الناس ما حمله هذا الخبر النبوى الصادق.

أيات قريبة جداً من قيام الساعة

هذه بعض آيات أخرى تدل على قرب الساعة، ولكنها قريبة جداً من قيام الساعة، ولذا لم يظهر منها شىء بعد، وهى:

1 ـ فى قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم: تعال صل لنا ! فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة**»[2].

2 ـ فى قوله ﷺ فى الصحيحين: «**تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة[3] فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم، والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم، والرجل يلوط[4] حوضه فما يصدر حتى تقوم**»[5].

3 ـ فى قوله ﷺ فى الصحيحين: «**والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، ولتتركن القلاص[6]، فلا يسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد**»[7].

4 ـ فى قوله ﷺ فى صحيح مسلم: «**إن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير فلا تدع أحداً فى قلبه ـ قال أبو علقمة ـ مثقال حبة من إيمان إلا قبضته**»[8].

---

(1) مسلم (1/ 76).
(2) (1/ 95)، وروى البخارى «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم» (4/ 204، 205) واللؤلؤ والمرجان (1/ 31)، ومسلم (1/ 94).
(3) اللقحة: الناقة ذات اللبن.
(4) لاط الحوض يلوطه إذا مدره بالطين لئلا ينشف الماء، وهذا اللفظ يروى بألفاظ أخرى: يلط، ويليط.
(5) اللفظ لمسلم (8/ 310)، وللبخارى معناه (9/ 74).
(6) القلاص: واحدها القلوص وهى الشابة من الإبل، الطويلة القوائم.
(7) متفق عليه، واللفظ لمسلم (1/ 94)، واللؤلؤ والمرجان (1/ 31)، والبخارى (3/ 101، 102)، بمعناه.
(8) صحيح مسلم (1/ 76).

5 ـ فى قوله ﷺ فى صحيح مسلم أيضاً: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس». (1)

(بداية الانقلاب الحقيقى)

إذا أذن الله جل جلاله وعظم سلطانه بانقراض الكون وانتهاء هذه الحياة الأولى، أمر ملكاً يدعى إسرافيل أن ينفخ فى الصور نفخة واحدة للفناء، فينفخ نفخة، فيصاب الكون كله بخلخلة عنيفة فتنحل بها كل الروابط التى كانت تربط بين أجزاء الكون، فترتج الأرض رجاً عنيفاً، وتتزلزل زلزالاً مروعاً(2)، وتندك مع جبالها دكاً، فتصير هباء منبثاً.

وتصاب السماء بانفطار عظيم يبطل معه قانون الجاذبية المعروف الآن، فتتناثر الكواكب، وتتكدر الشمس، ويذهب ضوء الكل، ويفقد الجميع كيانه، فتنصهر تلك الأجرام السماوية بجميع مجراتها فإذا هى كالنحاس المذاب تماماً(3)، وإذا العالم كله سديم وبخار كما كان قبل وجوده وخلق الله تعالى له.

تنبيه:

ولننبه هنا إلى أن كل هذا الذى ذكرناه من ظواهر الانقلاب الكونى لقيام الساعة لم يكن مُسْتقى من مجرد النظريات الكونية، ولا مستقى من تقولات الناس وتنبؤاتهم، ولا من تكهنات المعنيين بمثل هذه الأحداث الكونية، وإنما هو الحق اليقين الثابت بالوحى الإلهى، الواصل بواسطة جبريل الروح الأمين المنزل على قلب سيد المرسلين محمد ﷺ .

وها هى ذى آيات الله رب الكون وخالقه تنطق بكل ما سيجرى فيه وعليه، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج:1،2). وقال تعالى: ﴿ الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ

---

(1) (8/ 208) ورواه البخارى بلفظ: «من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء» (9/ 61)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 314).

(2) أما الإنسان الذى يزعم أنه سيد هذا الكون، ولم يبرح يتطاول ويتعالى حتى على خالقه جل وعلا فإنه عندما يشاهد هذه الأهوال بعينه. ويسمع دويها بأذنيه، يفقد كل رشده، وتخف أحلامه، ويطير لبه، ويفقد صوابه حتى يصبح كالفراش فى حمقه، وقلة تعقله هائجاً مائجاً سكران من شدة الفزع والهول، وما هو بسكران، مراضعه عما ترضع ذاهلة، وحوامله لما فى بطنها واضعة.

(3) مصداقه فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ (المعارج:8)، وقوله: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (الرحمن:37).

كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ (القارعة: 1 ـ 5). وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى﴾ (المعارج: 8 ـ 15). وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ (الزلزلة: 1 ـ 3).

وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ (الانفطار: 1 ـ 3). وقال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (التكوير: 1 ـ 6). وقال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ (الواقعة: 1 ـ 6).

نشوء الحياة الثانية
بعد انتهاء الأولى

إنه لا مجال للعقل البشرى فى معرفة الحياة الثانية وإدراكها، ولا فى بدء نشأتها، وكيفية وجودها، وكل ما فى الأمر أن العقل البشرى يجيز ولا يحيل وجود حياة كهذه الحياة، أو أرقى منها بالقياس إلى هذه الحياة، إذ القدرة الفاعلة المختارة التى كان بها هذا الكون ووجدت بها هذه الحياة فى إمكانها عقلاً أن تُحدث كوناً وحياة أرقى وأفضل من الكون السابق والحياة المتقدمة.

وبناء على هذا فإن نشأة الحياة الثانية مرد معرفتها إلى إخبار الله تعالى فى كتبه وإخبار رسله عليهم الصلاة والسلام، وأن مجمل ما عرفناه عن نشوء الحياة الثانية هو: أنه بعد فناء العالم بنفخة إسرافيل نفخة الفناء، كما تقدم آنفاً[1] ـ وبعد مضى أربعين سنة لا ندرى هل أيامها وشهورها مقدرة بأيام حياتنا هذه أو بأيام وشهور أخرى لا تخضع للنظام الشمسى الذى كانت به أيامنا وأعوامنا هذه؟؟ بعد مضى هذا الزمن ينزل من السماء ماء، فتنبت الأجسام تحت الأرض كما ينبت البقل، وذلك بواسطة تفاعل الماء مع بذرة الحياة التى هى عبارة عن عُظيم صغير يوجد فى آخر فقرات الظهر من كل إنسان وجد فى هذه الحياة الدنيا ويسمى عَجب

---

(1) فى ص (198)، فصل: بداية الانقلاب الحقيقى.

الذنب، فإذا تم الخلق، واكتمل النمو، وأصبحت الأجسام هياكل تامة التكوين تحت الأرض لا ينقصها إلا أن تحلها الأرواح، فتدب فيها الحياة وتتحرك وتقوم، أرسل الله الخالق سبحانه وتعالى الأرواح التى قبضها ملك الموت يوم وفاة كل إنسان فى هذه الحياة، وأودعت فى مستودعات بعضها فى العالم العلوى وهى الأرواح الطاهرة الطيبة نتيجة إيمان صاحبها، وعمله الصالح وتركه الشرك والمعاصى، وبعضها فى العالم السفلى وهى الأرواح الخبيثة نتيجة كفر صاحبها وارتكاب الجرائم والآثام. فتدخل تلك الأرواح الآتية من مستودعاتها الأجسام التى هُيئت لها فتحيا، ثم ينادى منادى الله تبارك وتعالى: أن قوموا لربكم، فتسمع وتجيب، وتنشق الأرض عنهم بسرعة ويقومون من قبورهم أحياء للحشر بعد أن تم النشر .

وهذه المعلومات اليقينية التى سقناها، وكشفنا بها عن كيفية المعاد وبدء الحياة الثانية، وطريقة نشوئها ـ جاءت بها آيات قرآنية وصحَّت بها سنن نبوته لا مجال أبداً لإنكارها، أو الشك فيها. وها نحن نوردها مجملين لها فيما يلى:

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ (الحاقة: 13 ـ 18).

وقال تعالى: ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ (ق: 41 ـ 44).

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ (القمر: 6 ـ 8).

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ (المعارج: 43 ـ 44).

وقال تعالى: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (الإسراء: 51 ـ 52).

وقال رسول الله ﷺ فى حديث البخارى ومسلم واللفظ له: «ما بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً ؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون

سنة ؟ قال: أبيت، ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل. قال: وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»(1).

الحشر
والموقف الصعب في عرصات القيامة

ما هو الحشر:

إن الحشر عبارة عن جمع الخلائق بعد بعثهم أحياء فى ساحة واحدة تدعى عرصات القيامة، وذلك لفصل القضاء، وهو الحكم فيما بينهم من أجل مجازاتهم، فالناس إذا بُعثوا من قبورهم أحياء، حفاة، عراة، غُرلاً، كما بدأ الله تعالى خلقهم أولاً يعيده ثانياً، قال تعالى: ﴿ **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾ (الأنبياء:104).

وقال الرسول ﷺ فى الصحيحين: «**يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد**»(2)، وقال فى الصحيحين أيضاً: «**يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً**»(3) قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال ﷺ: «**يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض**»(4). ويحشر الكافرون على وجوههم ؛ لقوله تعالى: ﴿ **وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا** ﴾ (الإسراء:97-98).

وقيل للرسول ﷺ: كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال: «**أليس الذى أمشاه على رجليه فى الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟**»(5).

وتُدنى الشمس فى ذلك اليوم من رؤوس الخلائق حتى تكون قريبة منهم جداً، فتشتد

---

(1) لم يجزم أبو هريرة راوى الحديث بتفسير لفظ الأربعين هل هو أربعون يوماً، أو شهراً، أو عاماً؛ غير أنه ورد فى رواية أخرى مفسراً بلفظ (سنة) قاله النووى فى شرحه على مسلم (5/ 813)، طبعة الشعب تحقيق وإشراف عبد الله أحمد أبو زينة. والحديث فى اللؤلؤ والمرجان (3/ 315)، والبخارى (6/ 158، 205)، ومسلم (8/ 210).

(2) اللفظ لمسلم (8/ 127)، والبخارى (8/ 135)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 275)، ومعنى عفراء بيضاء تميل إلى الحمرة قليلاً، وقرصة النقى الخبز الأبيض السالم من الغش، النقى من النخالة.

(3) الغرل جمع أغرل وهو من لم يختتن.

(4) اللفظ لمسلم (8/ 156)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 294)، والبخارى (8/ 136).

(5) متفق عليه، واللفظ لمسلم (8/ 135)، والبخارى (6/ 137)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 282).

الحرارة فى الموقف، ويعرق الناس لذلك حتى يذهب العرق سبعين ذراعاً، فقد جاء بهذا الحديث الصحيح، ففى مسلم عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق، فمنهم من يكون إلى كعبه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه[1]، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً» قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه[2].

فصل القضاء
والشفاعة فيه

ما هو فصل القضاء ؟

إن المراد من فصل القضاء هو أن الناس لما يحشرون إلى ربهم، ويبلغ العناء منهم مبلغاً عظيماً، وذلك من شدة الهول، وصعوبة الموقف، يرغبون فى أن يحكم الله تعالى فيهم أو بينهم بما هو أهله، وبما هم متهيئون له بحسب طهارة أرواحهم، أو خبثها، فيريحهم من شدة الموقف وأتعابه، ومصداق هذا فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ (المرسلات: 11 ـ 15). كما فى قوله عز وجل: ﴿ **هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ (المرسلات: 35 ـ 40).

ولما يطول موقفهم ويعظم كربهم يقول بعضهم لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ فيأتون آدم ليشفع لهم عند الله تعالى، فيعتذر لهم ويقول: «إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته، نفسى نفسى!! اذهبوا إلى غيرى، فيأتون المرسلين واحداً واحداً نوحاً، فإبراهيم، فموسى، فعيسى فيعتذر الكل، ويقول نفسى نفسى !! حتى ينتهوا إلى خاتم الأنبياء وإمام المرسلين محمد ﷺ فيقول: أنا لها فيأتى ربهُ فيخرُّ ساجداً تحتَ العرش، ويلهمهُ ربهُ تعالى محامداً يحمده بها، فلا يزال كذلك حتى يقول له الرب تبارك وتعالى: ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع، فيرفع رأسه ويقول: يا رب أمتى. فيقال له: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب

(1) الحَقو بفتح الحاء والجمع حِقاء كبناء هو الخصر، أو الإزار لأنه يشد على الحقو.
(2) مسلم (8/ 158).

الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب[1]»، ويجرى بعد ذلك القضاء مجراه فتعطى الكتب، وتوضع الموازين، ويحاسب الناس.

الحساب والميزان

إن الحساب يدور على محتويات الكتب التى يعطاها كل فرد من أفراد الناس فى ساحة فصل القضاء، ويقرؤها كل واحد من أهل الموقف، وسواء من كان يقرأ منهم ومن لم يكن يقرأ، ويختلف إعطاؤهم تلك الكتب، وتلقيهم لها ؛ إذ منهم من يعطى كتابه بيمينه ومن أمامه، ومنهم من يعطى كتابه بشماله ومن وراء ظهره، وبمجرد إلقاء نظرة على محتوى الكتاب يعلم صاحبه بمصيره، ويعلن على الفور عن فوزه وفرحه وسروره، أو عن خيبته وحزنه وخسرانه، قال تعالى فى بيان هذا وتقريره: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا** ﴾ (الانشقاق:7-12). وقوله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ** ﴾ (الحاقة: 19 ـ 37).

وبينما هم كذلك ؛ إذ توضع الموازين القسط، ويتقدم الناس واحداً واحداً للحساب، فمنهم من يحاسب حساباً يسيراً وهو العرض الذى قال الرسول ﷺ فيه لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها «**من حوسب يوم القيامة عذب**» فقلت: أليس الله عز وجل يقول: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ (الانشقاق: 8).

فقال لها: «**ليس ذاك الحساب إنما قال العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب**»[2].

---

(1) كل هذا الذى ذكرنا من بيان الموقف والشفاعة ثابت فى الصحيحين، وقد تقدم فى مبحث الشفاعة من هذا الباب فليرجع إليه.

(2) متفق عليه، واللفظ لمسلم (8/ 164)، اللؤلؤ والمرجان (3/ 299)، والبخارى (1/ 39).

ومنهم من يحاسب حساباً عسيراً، يستنطق الفرد، ويسأل عن كل صغيرة وكبيرة، فإن أجاب بالصدق والحق فبها ونعمت، وإن حاول الكذب أو الكتمان فإنه يختم على فمه، وتستنطق جوارحه، فتنطق بالذى عمل فى دنياه، ولا تخفى شيئاً، فيلومها على نطقها وشهادتها عليه، فيكون ردها عليه بقولها الذى حكاه القرآن الكريم: ﴿ **أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ (فصلت:21). وقال تعالى فى بيان هذه الحقيقة: ﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ (النور:24). وقال تعالى فى ذلك: ﴿ **الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ (يس:65).

ويجرى هذا الاستجواب والاستنطاق فى جو رهيب للغاية ؛ إذ تقوم فيه الأشهاد، ولا يؤذن للمرء فى الاعتذار فيعتذر، ولا تقبل من ظالم معذرة، وتعرض الأعمال عرضاً حياً ناطقاً، فيرى المرء عمله وهو يباشره ويا للفضيحة !! قال تعالى: ﴿ **يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ** ﴾ (الزلزلة:6 ـ 8).

ثم توضع الموازين العادلة ذات الدقة المتناهية، وتحصر الأعمال فلا يترك منها عمل وإن قل ودق، فتوضع فى موازين العدل، وتوزن، وبحسب نتيجة الوزن تكون السعادة، أو يكون الشقاء. قال تعالى فى بيان هذه الحقيقة: ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ (الأنبياء:47).

وقال تعالى: ﴿ **فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ** ﴾ (المؤمنون:102-105).

الصـــراط

وأخيـــراً الصــــراط :

إنه بعد وزن الأعمال والفراغ منها، وبيان السعيد من الشقى فى الجملة، يضطر الناس إلى المرور على الصراط، وهو جسر دقيق منصوب على ظهر جهنم وهى عقبة كأداء فى طريق الذاهبين إلى دار السلام، وممر خطير للغاية يشهد لخطورته أن الرسول ﷺ يقف على جنباته

والناس يمرون، وهو يدعو: «**رب سلم سلم**»(1). ويكون مرور الناس بحسب أعمالهم فى الدنيا، فمنهم من يمر بسرعة مدهشة حتى لكأنه البرق الخاطف، ومنهم من يمر دون ذلك إلى أن ينجو من ينجو ولو حبواً على يديه وركبتيه، ويهلك من يهلك بسقوطه فى جهنم دار الشقاء، والهوان، والبوار، والخسران.

وقد وصف رسول الله ﷺ الصراط فى معرض حديثه عن الشفاعة العظمى والمقام المحمود الذى وعده به ربه تبارك وتعالى فى قوله: ﴿ **عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ (الإسراء: 79).

فقال ﷺ: «**فيأتون محمداً ﷺ فيقوم فيؤذن له، وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتى الصراط يميناً وشمالاً فيمر أولكم كالبرق**» قال: قلت بأبى أنت وأمى أى شىء كمر البرق ؟ قال: «**ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع فى طرفة عين ؟ ثم كمر الريح، ثم كمر الطير وشد الرجال، تجرى بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجىء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً، قال: وفى حافتى الصراط كلاليب معلقة، مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج، ومكدوس فى النار**»(2)

* * *

---

(1) رواه مسلم (1/ 129-130)، وفى البخارى الحديث عن القيامة والصراط «**وكلام الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم**» (1/ 193، 194)، واللؤلؤ والمرجان (42-44)، ومسلم بلفظ: «**ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم**» (1/ 112، 114).

(2) أخرجه مسلم (1/ 129، 130).

القنطرة بين الجنة والنار

هل هناك قنطرة بعد الصراط ؟

نعم: إنه بعد أن يجتاز المؤمنون الصراط بسلام وأمان من الوقوع فى النار يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار، لتهذيبهم وتطهيرهم من كل ما كان بينهم من عداوات أو شحناء، أو حقوقهم لبعضهم على بعض، ثم بعد ذلك يؤذن لهم بدخول الجنة فيدخلون، وقد روى حديث القنطرة هذه الإمام أبو عبد الله البخارى فى صحيحه، وهذا نصه:

«يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة، فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزله كان فى الدنيا»[1].

دار السلام

إن من إتمام بحث عقيدة البعث والجزاء، وتوفية هذا الركن من أركان عقيدة المؤمن حقه فى الدرس والبحث أن يخص كل من دار السلام ودار البوار[2] بعرض خاص يجلى حقيقة كل منهما بما يبعث على الرغبة فى الفوز بدار السلام، ويبتعد عن الثانية باجتناب الشرك، وترك معصية الله تعالى، ورسوله ﷺ.

ولما كان الحديث عن دار السلام شيقاً ومحبباً إلى النفوس المؤمنة، فإن الإطناب فيه أولى من الإيجاز، والإسهاب أولى من الاختصار، ومن هنا فسيكون بحثنا لهذا الجزء من ركن عقيدة المؤمن فى البحث والجزاء ضافياً، يتناول الحديث عن سعة دار السلام، وأبوابها، وأنهارها، وخدمها، ومطاعمها، ومشاربها، وسائر ألوان النعيم فيها، كما سيكون مصدر استقائنا لكل المعلومات فى حديثنا عن دار السلام هو الكتاب والسنة ؛ إذ الأول كتاب من أوجدها، وأوجد نعيمها، وخلق أهلها، وهداهم، فأعدهم لها، وعرَّفهم بها، وأما السنة فإنها أخبار من دخلها، ووطئت أقدامه أرضها، وبلغ سدرة المنتهى فيها كما قال تعالى: ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ (النجم: 12 ـ 15).

---

(1) البخارى (8/ 138، 139، 3/ 158، 159).

(2) دار البوار: جهنم، لقوله تعالى: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ (إبراهيم: 28-29).

سعة دار السلام
وطيب ريحها

ما أوسع دار المتقين !! وما أطيب ريحها !!.

إن عرضها كعرض السموات والأرض، وإن ريحها ليوجد من مسيرة مائة عام ؛ إذ قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: 133).

وقال رسول الله ﷺ: «**إن ريحها ليوجد من مسيرة مائة عام**»(1).

(أبوابها)

إن للجنة دار النعيم لثمانية أبواب(2)، أحدها يسمى الريان، وهو خاص بالصائمين(3)، ومنها باب خاص بالذين لا يحاسبون من أمة محمد ﷺ(4).

وأبواب الجنة في غاية الوسع والكبر حتى إن ما بين مصراع الباب مسيرة أربعين سنة، ومع هذا الوسع فسوف تكتظ بأفواج الداخلين معها، وتزدحم، وقد علم أن حلق تلك الأبواب مكونة من ياقوت أحمر، قائمة على صفائح من ذهب، فقد روى مسلم فى صحيحه عن الصادق المصدوق ﷺ قوله: «**إن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة بينهما مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليها يوم وهى كظيظ من الزحام**»(5).

وقال ﷺ وهو يحدث عن أهل الجنة: «**وينتهون إلى باب الجنة فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب**»(6).

---

(1) النسائى بلفظ: «**وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين سنة**» (8/ 22)، والترمذى (ديات 11) وابن ماجه (ديات/ 32)، وأحمد (2/ 171-186، 5/ 27، 50، 51)، والموطأ بلفظ: «**وريحها يوجد من مسيرة خمسمائة عام**» (3/ 103).

(2) الحديث مسلم فى فضل التشهد بعد الوضوء (1/ 144، 145)، والبخارى (4/ 145).

(3) ورد هذا فى المتفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (2/ 19، 20).

(4) تقدم فى حديث الشفاعة من فصل القضاء، وهو مخرج فى الصحيحين. اللؤلؤ والمرجان (1/ 49-51).

(5) مسلم فى كتاب الزهد (8/ 215).

(6) رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى حديث طويل فى وصف الجنة، وصحح المنذرى وقفه على علىّ رضى الله عنه فى الترغيب والترهيب (4/ 494)، ولكنه فى حكم المرفوع، لأن مثله مما لا يقال بالرأى.

عند باب الجنة

ماذا عند باب الجنة ؟

إن عند باب الجنة شجرة عظيمة ينبع من أصلها عينان، قد خُصِّصت إحداهما لشراب الداخلين وثانيتهما لتطهيرهم، فإذا شربوا من الأولى جرت فى وجوههم نضرة النعيم فلا يبأسون أبداً، وإذا اغتسلوا من الثانية لم تشعث أشعارهم أبداً، وفى القرآن الكريم مصداق هذا قال تعالى: ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ (الإنسان: 21).

وفى الحديث يقول الرسول ﷺ: «**وإذا شجرة على باب الجنة ينبع من أصلها عينان، فإذا شربوا من إحداها جرت فى وجوههم نضرة النعيم، وإذا توضأوا من الأخرى لم تشعث أشعارهم أبداً**»[1].

استقبال أهل الجنة

إن دخول الجنة سيكون قطعاً فى فترات متتالية، وقد يبعد ما بين الفترة والأخرى ؛ إذ صح أن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل ذوى الحظوظ بخمسمائة عام[2]، وذلك لعدم ما يستلزم وقوفهم طويلاً فى ساحة فصل القضاء، وموقف الحساب بخلاف أهل الحظ والغنى. وفى القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ** ﴾ (الزمر: 73).

وفى الصحيحين من أخبار الرسول ﷺ: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة، لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون، ولا يتفلون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة[3]، أزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً فى السماء»[4]
إن هذا التفاوت بين أهل الجنة فى دخولهم وحسن هيئتهم وجمال وجوههم عائد إلى تفاوت أعمالهم فى الدنيا، فى كمياتها وكيفياتها، وهو أمر من الوضوح بحيث لا يخفى على ذى لب، ففى الدنيا تكتسب النفس البشرية حسنها وجمالها من إيمان صاحبها وأعماله الصالحة، وفى الآخرة يكتسب جمال الذات وكمال النعيم من نفس الزكاة الروحية التى كانت لها نتيجة إيمانها، وصالح أعمالها فى الحياة الدنيا.

---

(1) قال الحافظ المنذرى: «رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى وغيرهما عن عاصم بن حمزة عن علىّ موقوفاً عليه بنحوه وهو أصح وأشهر» الترغيب والترهيب (4/ 494-496).

(2) أبو داود (2/ 290). (3) العود يتبخر به.

(4) اللفظ لمسلم (8/ 146)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 289)، والبخارى (4/ 160).

وتستقبل الملائكة وفود الرحمن عند دخولهم إلى دار السلام، وأول المستقبلين هو رضوان خازن الجنان، ثم الملائكة الموكلون بنعيم الجنة وأهله، وفى القرآن الكريم: ﴿ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (الأنبياء: 103). وفيه أيضاً ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (الزمر: 73)، وفيه أيضاً: ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (الرعد: 23 ـ 24).

قصور دار السلام وتفاضلها

نكتفى بوصف قصور دار السلام، وبيان تفاضلها بما جاء فى رسالتى «الجنة دار الأبرار والطريق الموصل إليها» إذ قلت: من الذى يقوى على وصف قصورهم، أو يحسن التعبير عن نعيمهم وسرورهم والله مكرمهم والمنعم عليهم يقول: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ (الإنسان:20-22). وقلت أيضاً: إن الذى يمكن أن يحدثنا بعض الحديث عن قصور الجنة وما حوت من النعيم المقيم هو رجل واحد فقط، ذلكم هو النبى الأمى محمد رسول الله ﷺ؛ إذ هو الذى تشرفت دار السلام بقدومه عليها، ورؤيته لها فى هذه الحياة الدنيا يقظة مرة، ومناماً مرات أخرى، ورؤيا الأنبياء وحى، فلنستمع إليه ﷺ وهو يحدث عنها ويقول محدثاً عن آخر رجل يدخل الجنة: فيقول: **يارب ألحقنى بالناس .... فينطلق يرمل فى الجنة حتى إذا دنا من الناس رُفع له قصرٌ من درة، فيخر ساجداً، فيقال له: ارفع رأسك، ما لك ؟ فيقول: رأيت ربى .... فيقال له: ارفع رأسك إنما هو منزل من منازلك. قال: ثم يلقى رجلاً فيتهيأ للسجود له، فيقال له: مه. فيقول: رأيت أنك ملك من الملائكة، فيقول له: إنما أنا خازن من خزانك، وعبد من عبيدك ... فينطلق أمامه حتى يفتح له القصر، قال: وهو من درة مجوفة، سقائفها وأبوابها وأغلاقها ومفاتيحها منها، تستقبله جوهرة خضراء مبطنة بحمراء، فيها سبعون باباً، كل باب يفضى إلى جوهرة مبطنة، كل جوهرة تفضى إلى جوهرة على غير لون الأخرى، فى كل جوهرة سرر، وأزواج، ووصائف، أدناهن حوراء عيناء عليها سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء حللها، كبدها مرآته وكبده مرآتها، إذا أعرض عنها إعراضة ازدادت فى عينه سبعين ضعفاً، فيقال له: أشرف. فيشرف، فيقال له: ملكك مسيرة مائة عام ينفذه بصرك»** (1).

---

(1) قال الحافظ المنذرى: رواه ابن أبى الدنيا، والطبرانى، والحاكم هكذا عن ابن مسعود مرفوعاً.. وأحد طرق الطبرانى صحيح، واللفظ له، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وهو فى مسلم بنحوه باختصار عنه. الترغيب والترهيب (4/ 503-506).

هذا وأما تفاوت درجات أهل دار السلام وتفاضل ما بينهم بحسب كمال إيمانهم، وكثرة صالح أعمالهم فلنورد له الحديث الصحيح التالى ؛ إذ فيه يقول الرسول ﷺ: «**إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب ؛ لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول اللّه، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: بلى، والذى نفسى بيده رجال آمنوا باللّه، وصدقوا المرسلين**»(1).

وفى القرآن الكريم مصداق هذا فى قوله تعالى: ﴿ **سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ (الحديد: 21).

نظرة على أرض الجنة

وتحت هذا العنوان قلت فى رسالتى المشار إليها آنفاً:

«ما تظن أخى القارئ فى أرض الجنة؟

هل هى من تراب أبيض أو أحمر ؟

وهل حصباؤها من حجارة ملونة جميلة ؟

وهل جدران مبانيها من لبن فى غاية الحسن والجمال ؟

وهل الطين الذى يوضع بين اللبنات لرصفها وإحكامها من مزيج الرمل الأبيض، و (الأسمنت)(2) الأزرق الناعم ؟

اعلم أخى القارئ أنه لا يستطيع أحد أن يجيبك عن هذه التساؤلات كلها إلا أحد شاهدها، وعاش ساعة فيها كرسول اللّه محمد ﷺ وها هو ذا يسأله أحد أصحابه عنها فيقول له: «**إنها لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها(3) المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعمُ ولا يبأس، ويخلد لا يموت، ولا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم**»(4).

---

(1) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (2/ 288)، والبخارى (4/ 145)، ومسلم (8/ 145).

(2) الأسمنت: كلمة معربة لعل عربيها الجير أو الجص أو نوع منهما يخالفهما فى القوة والشكل لا فى الماهية والذات.

(3) الملاط: الطين.

(4) رواه الترمذى (جنة/ 2)، والدارمى (رقاق/ 100)، وأحمد (1/ 305، 445)، وقال عبد القادر الأرناؤوط فى تعليقه على جامع الأصول (10/ 497)، وابن حبان فى صحيحه، والطبرانى فى الأوسط.

جنة عدن بين الجنان

لجنة عدن بين سائر الجنات ميزة خاصة لم تكن لغيرها، ألا وهى أن إيجادها تم بخلق الله تعالى المباشر لها ؛ إذ ثبت أن النبى ﷺ أخبر أن الله تعالى قد خلق جنة عدن بيده، فقد أخرج ابن أبى الدنيا والطبرانى عنه ﷺ قوله: «**خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زبرجدة خضراء، وملاطها مسك، وحشيشها الزعفران، حصباؤها اللؤلؤ، ترابها العنبر، ثم قال لها: انطقى، قالت: قد أفلح المؤمنون ...**»[1].

تنبيه:

نحن نعلم أن الله تعالى هو خالق كل شىء، وليس فى الكون كله علويه وسفليه إلا خالق واحد هو الله رب العالمين، وإله الأولين والآخرين، وليس ثَمَّ غيره أبداً.

فعندما نذكر أنه تعالى خلق كذا بيده ؛ لإخباره تعالى بذلك كما فى قوله: ﴿**مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ (ص:75). أو لإخبار رسوله ﷺ بذلك كما فى الحديث السابق الدال على خلق الله تعالى لجنة عدن بيده سبحانه وتعالى، فإننا نعنى أن هذا الخلق قد تم على خلاف سنة الله تعالى فى خلق الكائنات، وأن ما أخبر تعالى عنه بأنه خلقه بيده يكون له مزيد شرف ورفعة بذلك الخلق الخاص وهو الخلق المباشر.

ومن باب تقريب هذه الحقيقة إلى الأذهان نقول: إنه عندما يأمر الملك أو ذو السلطان ببناء قصر مثلاً فيبنى، فإنه يقال: بنى الملك القصر، وإن لم يباشر البناء بيده، وذلك لأن البناء قد تم بأمره، وبسبب الإمكانيات التى وضعها تحت تصرف بانيه، كما أنه إذا تناول الملك حجراً ووضعه بيده فى زاوية من زوايا جدار القصر، يقال: وضع الملك حجر الأساس بيده، ومعنى ذلك أنه باشر وضعه بيده حقاً وصدقاً وليس من باب المجاز المرسل الذى علاقته السببية فى شىء.

ومن هنا قلنا: إن خلق الله تعالى لآدم بيديه هو خلق مباشر، وحقيقة لا ينبغى إنكارها.

ومثل خلق آدم: خلق جنة عدن، وكل ما ورد فى الكتاب والسنة أن الله تعالى خلقه بيديه هو من باب الحقيقة، ولا معنى لذكر المجاز فى ذلك ولا فائدة منه.

---

(1) الترغيب والترهيب (4/ 513، 514).

الخيام والأسواق فى دار السلام

بما أن الجنة فيها ـ بإخبار اللّه تعالى ـ ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ولأصحابها فيها كل ما يدَّعون ويطلبون، وفيها من النعيم العظيم المقيم ما لم تره عين، أو تسمع به أذن، أو يخطر لبشر على قلب، كما جاء ذلك فى الصحيحين فى قوله تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ «**أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[1]، وفى قوله تعالى من كتابه العزيز: ﴿**يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (الزخرف: 68 ـ 72). وفى قوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ**﴾ (فصلت: 30 ـ 31).

أقول بما أن الجنة حاوية لكل أوجه النعيم الروحانى والجثمانى، مشتملة على كل ضروب السعادة، وصنوف النعيم لا يستنكر أن يكون فيها خيام، ولا يستبعد أن يكون فيها أسواق ؛ إذ فى الخيام متع، وفى الأسواق سرور وحبور، وسنكتفى بعرض هذه الحقيقة، وتأكيدها بذكر كلمات قليلة جاءت فى رسالتى «**الجنة دار الأبرار**» تحت عنوان جانبى صغير:

فى الخيام ـ حيث قلت: فى الجنة خيام قَطْعاً، وكيف لا ؟ وخالقها عز وجل يقول: ﴿**حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ**﴾ (الرحمن:72).

والسؤال هو ما شكل تلك الخيام؟ ما نوعها؟ ما هى مادة تكوينها؟ وما مدى حسنها وجمالها؟

والإجابة الصحيحة عن هذه التساؤلات لا تتلقى إلا من فم النبوة الطاهر برهاناً ساطعاً، وحقاً قاطعاً؛ إذ يقول فداه أبى وأمى: «**إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها**

(1) رواه مسلم (8/ 143). والبخارى (4/ 143)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 286).

(فى السماء) **ستون ميلاً** (وعرضها ستون ميلاً)، **للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا»**[1].

وقلت: ومن الخيام إلى السوق، سبحان الله ؟ ! وهل فى الجنة أسواق ؟ وكيف لا يكون ذلك والله تعالى يقول لعباده من أهل الإيمان والاستقامة: ﴿ **نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ** ﴾ (فصلت: 31).

إنه ليس من المستغرب أبداً أن تتوق نفس المؤمن فى الجنة إلى دخول سوق من الأسواق وخاصة المؤمنين الذين تعودوا الضرب فى الأسواق، والأرباح الطائلة، كعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأمثاله ممن كانوا يتعاطون التجارة فى صدق وأمانة، ويربحون أعظم الأرباح، فقد تتوق نفس أحدهم إلى ذلك وهو فى دار السلام فيطلبه ويدعيه فيخلق الله تعالى لهم أسواقاً يدخلونها إتماماً للإنعام فى دار السلام.

وهذا مسلم يخرّج لنا حديث السوق فى الجنة فيقول: إن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن فى الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو فى وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً»**[2].

* * *

(1) رواه مسلم (8/ 148، 149)، وأما ما بين القوسين من الزيادات فهى فى مسلم أيضاً فى نفس الموضع ولكنها من أحاديث أخرى، ورواه البخارى أيضاً فى بدء الخلق باب صفة الجنة (4/ 143)، راجع اللؤلؤ والمرجان (3/ 289).

(2) مسلم (8/ 145).

أنهار الجنة وأشجارها

تحت هذا العنوان من رسالة «الجنة دار الأبرار» قلت: يا أخي القارئ هات يدك نتجول قليلاً بين أنهار الجنة وتحت أشجارها، ونمتع النفس ساعة قبل يوم الساعة !

هيا بنا إلى ذلك النعيم المقيم، هيا بنا إلى الأنهار الأربعة التي هي أصل كل أنهار الجنة، إنها نهر الماء، ونهر اللبن، ونهر الخمر، ونهر العسل كما جاء في قول الله عز وجل: ﴿ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ** ﴾ (محمد:15).

إن من بين هذه الأنهار العظيمة نهر الكوثر، وما أدراك ما الكوثر ؟!

إن الله سبحانه وتعالى خص به نبينا محمداً ﷺ وأمته، وهو أعظم أنهار الجنة، وأحسنها، جاء الوعد به في كتاب الله تعالى القرآن الكريم حيث قال: ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ** ﴾ (الكوثر: 1، 2).

ولنستمع إلى صاحبه ﷺ يصفه لنا فنمتع سمعنا بذلك، روى البخاري عنه ﷺ مرفوعاً قوله: «**بينما أنا أسير في الجنة ؛ إذ أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل ؟ قال: هو الكوثر الذي أعطاك ربك. قال: فضرب الملك بيده فإذا طينه مسك أذفر**»[1] كما روى الترمذي بسند صحيح عنه ﷺ قوله: «الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج»[2].

قلت: ومن الأنهار إلى الأشجار. فلنصغ إلى البخاري يروي لنا طرفاً من أخبار الأشجار، فإنه أصح رواية، وأدق عبارة في هذا الشأن. قال: قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، واقرأوا إن شئتم: ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (30) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (31) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (32) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (33) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾**»[3] (الواقعة:30 ـ 34).

ويحدث ابن عباس عن هذا الظل فيقول: «الظل الممدود» شجرة في الجنة على ساق قدر ما يسير الراكب المجد في ظلها مائة عام في كل نواحيها، فيخرج أهل الجنة ـ أهل الغرف وغيرهم ـ فيتحدثون في ظلها، فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا، فيرسل الله تعالى ريحاً من الجنة فتحرك

---

(1) البخاري (8/ 149).

(2) ذكر هذين الحديثين المنذري في الترغيب الترهيب (4/ 517)، راجع الترمذي (6/ 84).

(3) رواه البخاري في (6/ 183)، ومسلم في (8/ 144)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 287)، وراجع الترمذي (7/ 209).

تلك الشجرة بكل لهو كان فى الدنيا[1]. ويقول: «نخل الجنة جذعها من زمرد خضر، وكَرَبها ذهب أحمر، وسعفها كسوة لأهل الجنة، منها مقطعاتهم وحللهم، وثمرها أمثال القلال والدلاء أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد، ليس فيها عجم»[2].

المطاعم والمشارب فى الجنة

لقد ضل قوم من الفلاسفة والنصارى فزعموا أن نعيم الجنة روحانى بحت، لا شيء فيه من النعيم للجسم بالمرة، وهذا المعتقد خطأ محض، وباطل لا شك فى بطلانه عند من يعرف عن الله تعالى وعن رسله عليهم السلام.

وهذه حجج عقلية وسمعية نوردها على صحة هذا المعتقد الحيوى الخطير فنقول:

أولاً: إن الأرواح التى يراد لها النعيم لا يتم لها التنعم الحقيقى إلا إذا كانت حالّة فى أجسام تلائمها، وتستقر فيها، وتقوم بها، ولذا فإنه لما أريد إنعام الشهداء وتكريمهم خلق الله لأرواحهم أجساماً خاصة تلائمها فتحل فيها، فتم لها التنعم بما أعد لها من نعيم طيلة حياتها فى البرزخ، فقد أخبر الرسول ﷺ: «**أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر ترعى فى الجنة، وتأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش**»[3]، ومصداق هذا فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ (آل عمران: 169، 170).

وثانياً: أن القدرة الكافية التى خلقت الإنسان اليوم ورزقه، وخلقت له ضروباً من النعيم الدنيوى -كأطيب المطاعم، وألذ المشارب، وأجمل الملابس، وأحسن المساكن، وأفره المراكب- قادرة على إيجاد ذلك فى الملكوت الأعلى وتوفيره بصورة أجل وأكرم.

وثالثاً: تفضيل الحياة الدنيا (التى وجدت على أساس الفناء) على الآخرة (التى وجدت على أساس البقاء) وتفضيل ما يفنى على ما يبقى مردود عقلاً، ومن هنا كان من غير المعقول أن يكون النعيم فى الحياة الدنيا جثمانياً روحياً ينال الجسم والروح معاً مع أن الدار دار كدر، وتنغيص، وفناء، كل ما فيها وجد على مبدأ الزمان المؤقت، والأجل المعدود، ويكون النعيم فى الآخرة وهى الحياة

(1) رواه الترمذى وحسنه، الترغيب والترهيب (4/ 520).

(2) رواه الحاكم وصححه، وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب (4/ 523)، والحاكم (2/ 76)، إلا أن فى الحاكم لفظ: «كرانيفها» بدل «كربها» وكلاهما بمعنى: أصل السعفة الغليظة العريضة.

(3) معنى الحديث مخرج فى الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبى (2/ 297، 298)، وقد رواه مسلم بقريب من هذا اللفظ (6/ 38، 39).

الباقية الخالدة روحياً بحتاً لا وجود للأجسام، ولا علاقة للأرواح بها، فى حين أن الحياة فى البرزخ وهو الفترة ما بين موت الإنسان إلى يوم أن يبعث لم تنقطع فيها علاقة الروح بالجسد، وإن فنى وكان تراباً، إذ سيبقى للروح تعلق بالقبر كامل، فيكون القبر لها أشبه بمحطة اللاسلكى متى أرادت الاتصال به اتصلت، ولهذا ورد أن الميت إذا سلم عليه زائره فى قبره عرفه ورد عليه السلام. (1)

هذا وكل ما ذكرنا من هذه الأدلة العقلية على أن النعيم فى الآخرة جثمانياً روحياً معاً ليس بشيء إلى جانب الأدلة السمعية الدينية الشرعية التى هى أخبار الله تعالى، وأخبار رسوله ﷺ، إذ لا أعلم بالخلق من الخالق، ولا من الرائى بما رأى وشاهد. فالله تعالى يقول مخبراً عما سيُنْعم به على عباده المسلمين الذين آمنوا وكانوا يتقون: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (الزخرف: 68 ـ 73).

والرسول ﷺ يحدث عن نعيم أهل الجنة، ويصفه كما رآه وعرفه فيقول: «**أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوطون**». قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «**جُشاءٌ ورشحٌ كرشح المسك، يُلهمُون التسبيح والتحميد كما تُلهمُون النفس**»(2). ويقول: «**إن أسفل أهل الجنة أجمعين درَجة لمن يقوم على رأسه عشرةُ آلاف خادم، مع كُل خادم صحفتان: واحدة من ذهب، والأخرى من فضة، فى كُلٍّ واحدةَ لونٌ ليس فى الأخرى مثلهُ، يأكل من آخرها مثل ما يأكل من أولها، يجد لآخرها من الطيب واللّذة مثل ما يجد لأولها، ثم يكون ذلك ريح المسك الأذفر لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون**». (3)

وما ذكرناه لم يَعدُ أن يكون شاهداً فقط، وإلا فإن هناك عشرات الآيات، والأحاديث الصحاح تصرِّح بنعيم أهل الجنة، وأنه روحانى جثمانى، وأنه ليس مقصوراً على المطاعم والمشارب بل يتعداه إلى لبس الحلل، والتحلي بالحليِّ، والجلوس على الأرائك، والتمتع بالنساء والطرب، وركوب الخيل، والزيارات الكريمة، واللقاءات الحبيبة.

(1) ورد هذا فى الحديث الذى صححه ابن عبد البر عن النبى ﷺ أنه قال: «**ما من رجل يمر بقبر الرجل الذى كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام**» عن أضواء البيان (6/ 426).

(2) رواه مسلم (8/ 147)، وفى البخارى معناه (4/ 43).

(3) رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى، قال المنذرى: رواته ثقات. الترغيب والترهيب (4/ 508).

وهذه أخبار الله تعالى، وأخبار رسوله ﷺ تتحدث بذلك فلنستمع إليها وهي تقول عن الحلى والحلل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ (الحج: 23 ـ 24).

وعن الأرائك والأسرّة:

تقول: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ (الواقعة: 10 ـ 16). وتقول: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ (الإنسان: 12 ـ 14).

وعن النساء:

تقول: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ (الصافات: 48، 49).

وتقول: «**ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينها ريحاً، ولأضاءت ما بينها، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها**».[1]

وتقول: «**لو امرأة من نساء أهل الجنة أشرفت لملأت الأرض ريح مسك، ولذهب ضوء الشمس والقمر**».[2]

وعن الطرب:

تقول: «**إن فى الجنة لمجتمعاً للحور العين يرفعن بأصوات لمْ تسمع الخلائقُ بمثلها يقلن:**

نحن الخالدات، فلا نبيدُ.

ونحنُ الناعماتُ، فلا نبأسُ.

ونحنُ الراضياتُ، فلا نسخطُ.

طُوبى لمن كان لنا وكنا لهُ».[3]

وتقول: «**إن فى الجنة نهراً طول الجنة، حافتاهُ العذارى قيامٌ متقابلاتٌ يُغنين بأحسن أصوات**

---

(1) البخارى بقريب من هذا اللفظ (4/ 20-21).

(2) رواه الطبرانى والبزار وإسناده حسن. الترغيب والترهيب (4/ 523).

(3) رواه البيهقى والترمذى ووسمه بالغرابة. الترغيب والترهيب (4/ 537).

يسمعها الخلائق، حتى ما يرون في الجنة مثلها»، قيل لأبي هريرة (راوي هذا الخبر): ما ذاك الغناء؟ قال: «إن شاء الله: التسبيح، والتحميد، والتقديس، والثناء على الرب عز وجل». (1)

وعن الخيل وركوبها:

تقول: قال عبد الرحمن بن ساعدة ﷺ: كنت رجلاً أُحبُّ الخيل فقلت: يا رسول الله، هل في الجنة خيلٌ؟ فقال: «**إن أدخلك الله الجنة يا عبد الرحمن كان لك فيها فرسٌ من الياقوت له جناحان يطيرُ بك حيثُ شئت**» .(2)

وتقول:

«**إن في الجنة لشجرة يخرج من أعلاها حُللٌ، ومن أسفلها خيلٌ من ذهب مسرجةٌ ملجمةٌ من دُرٍّ وياقوت، لا تروثُ ولا تبولُ، لها أجنحةٌ خطوها مدُّ البصرِ، فيركَبُها أهل الجنة، تطيرُ بهم حيثُ شاءوا**» .(3)

وعن تزاورهم:

تقول: «**إذا دخل أهل الجنة الجنةَ فيشتاقُ الإخوان بعضهم إلى بعض، فيسير سرير هذا إلى سرير هذا، ويسير سرير هذا إلَى سرير هذا حتى يجتمعا جميعاً، فيتكئ هذا ويتكئ هذا، فيقول أحدُهُم لصاحبه: أتعلم متى غفر الله لنا؟ فيقول صاحبه: يوم كذا، في الموضع كذا، فدعونا الله تعالى فغفر لنا**». (4)

وعن أعظم نعيم روحاني يتم لهم في دار السلام:

تقول: «**إذا سكن أهل الجنة الجنةَ أتاهم ملكُ يقول لهم: إن الله تعالى يأمركم أن تزوروه، فيجتمعون، فيأمر الله تعالى داود عليه الصلاة والسلام فيرفع صوته بالتسبيح والتهليل، ثم توضعُ مائدةُ الخلد**» قيل: يا رسول الله، وما مائدة الخلد؟ قال: «**زاوية من زواياها أوسع مما بين المشرق والمغرب، فيُطعمون، ثم يكسون، فيقولون: لم يبق إلا النظر إلى وجه ربنا عز وجل فيتجلى لهم فيخرون سُجداً، فيقال: لستُم في دار عمل إنما أنتم في دار جزاء**»(5)، وتقول: «بينما

(1) رواه البيهقي موقوفاً، الترغيب والترهيب (4/ 538، 539).

(2) رواه الطبراني ورواته ثقات. الترغيب والترهيب (4/ 545).

(3) رواه ابن أبي الدنيا وسكت عنه المنذري. الترغيب والترهيب (5/ 544).

(4) رواه ابن أبي الدنيا والبزار وسكت عنه المنذري الترغيب والترهيب (4/ 543).

(5) رواه أبو نعيم وسكت عنه المنذري، وسكوت المنذري معناه موافقة منه على سلامة الرواية. الترغيب والترهيب (4/ 546).

أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نورٌ، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فلا يلتفتون إلى شئ مما هم فيه من النعيم ما داموا ينظرون إليه تعالى حتى يحتجب عنهم، وتبقى فيهم بركته ونوره».(1)

وتقول: «**إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير فى يديك. فيقول: هل رضيتم؟ يقولون: وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يارب وأى شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً**».(2)

دار البـــوار

إن دار البوار هى نار جهنم مأوى الكافرين(3)، كما أن دار السلام هى الجنة دار المؤمنين المتقين(4) وقد تقدم لنا أنه من إتمام البحث لعقيدة المؤمن فى اليوم الآخر، أو البعث والجزاء أن يخص كل من دار السلام ودار البوار بعرض خاص يجلى حقيقة كل منهما بما يبعث على الرغبة فى الفوز بدار السلام، وعلى الرهبة من دار البوار، فتطلب دار السلام بالإيمان والتقوى، وتطلب النجاة من دار البوار باجتناب الشرك، وترك المعاصى، وقد استعرضنا الجنة دار السلام استعراضاً كافياً ـ والحمد لله ـ حتى لكأن القارئ عندما يُنهى آخر خبر عنها قد رآها بأم عينه، وعاش فيها بنفسه وبدنه، وها نحن نستعرض دار البوار -أعاذنا الله منها، وزحزحنا عنها- لننجو من عذابها، ونفوز بالجنة ونعيمها فنقول: إن الحديث عن دار البوار ليس كالحديث عن دار الأبرار، فإذا حسن الإطناب فى الحديث هناك فإنه يحسن الاقتضاب فى الحديث هنا، إذ النفس تنبسط عند سماع النعيم، وترتاح له، وتلذ، وتنقبض عند سماع الشقاء، وترتاع له، وترهبه. ولذا فسنسرع فى العرض لدار البوار، ونوجز فيه ما أمكن الإيجاز على خلاف استعراضنا لدار السلام، وما فيها من نعيم مقيم، وهذا هو العرض:

(1) رواه ابن ماجه وغيره وسكت عنه المنذرى (4/ 553).

(2) البخارى ومسلم واللفظ له (8/ 144)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 287)، والبخارى (8/ 142).

(3) يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ (إبراهيم: 28-29).

(4) قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ (يونس: 25)، وقال عز من قائل: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (الأنعام: 127).

مجئ جهنم للناس فى الموقف

وها هي ذي جهنم قد جيء بها، وبرزت للناس في عرصات القيامة قال تعالى: ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ﴾ (الفجر:23). وقال: ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ (الشعراء:91).

إن الانقلاب الكونى الذى يتم، وتتبدل فيه الأرض غير الأرض، والسموات غير السموات، ويبرز للناس فيه الله الواحد القهار، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (إبراهيم: 48) .

يُفاجأ فيه الناس من أهل الموقف بظاهرة غريبة وهى بروز جهنم لهم، ورؤيتهم لها، حيث يجاء بها تُجَرُّ بالأزمة كما تجر القاطرة، ولها تغيّظ وزفير كما قال الله تعالى: ﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ (الفجر: 23، 24).

وكقوله تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ (الشعراء:91-95).

وقوله ﷺ في الصحيح: «**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام، سبعون ألف ملك يجرونها**»(1).

أبــواب جهــنم :

إن دار البوار وهى عبارة عن عالم الشقاء ذات دركات، دركة تحت الأخرى إلى نهايتها، وهى سبع تتفاوت فى شدة عذابها، أخفها عذاباً أعلاها، وأشدها أسفلها، ولكل دركة اسمها الخاص بها، وبابها الخاص، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ (الحجر:43، 44). وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ (النساء:145).

وقد وردت أسماء دركات دار البوار فى القرآن الكريم، غير أنها وردت مفرقة فى عدة سور، ومذكورة فى عشرات الآيات بحسب سياق الحديث عنها، وقد يكون ترتيبها كالتالى: نار جهنم، لظى، الحطمة، السعير، سقر، الجحيم، والهاوية. هذه هى السبع الدركات، اللهم أجرنا منها، واصرف عنا عذابها ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ (الفرقان:65، 66).

---

(1) رواه مسلم (8/ 149)، ورواه الترمذى كتاب صفة جهنم (1).

كيف يدخلونها؟

إنه يؤتى بأهل النار يساقون إليها أفواجاً متتابعة، فوجاً بعد آخر، وزمراً متداركة زمرة بعد أخرى، وقد برّزت لهم، كما قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ (الزمر:71).

وما إن تراهم من مكان بعيد حتى سمعوا لها تغيظاً وزفيراً، كما قال تعالى: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ (الفرقان:12).

ثم يخرج منها عنق فيلتهم من شاء الله أن يلتهمهم من أهل الموقف من الجبارين والمشركين، فقد جاء هذا واضحاً في رواية الترمذي، إذ يقول ﷺ: «**يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق، يقول: إني وكلت بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين، وتساق تلك الزمر إلى جهنم حتى إذا وصلوها وجدوا أبوابها مغلقة، فتفتح لهم، ويدفعون إليها دفعاً عنيفاً، كما قال تعالى:** ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الطور:13-16).

ثم يلقون منها في أماكن ضيقة وهم مقيدون في الأصفاد، مكبلون بالسلاسل والأغلال كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ (الفرقان:13)، وكما قال تعالى: ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ (إبراهيم: 49، 50).

هذا طرف من بعض أحوال أهل النار عند دخولهم لها، ذكرناه بياناً لجانب من جوانب الحديث عن دار البوار، وسنواصل العرض والحديث في اقتضاب وإيجاز وفاء بما وعدنا والله المستعان.

عذابهم فيها وتلاومهم

وما إن تستقر تلك الجماعات الهالكة، والزمر الخاسرة في جهنم بعد أن ألقوا فيها مهانين، حقيرين، ذليلين حتى ينزل بهم عذاب نفساني أليم، مهين، ذلك هو عذاب التوبيخ، والتقريع، والتأنيب الذي يتلقونه من ملائكة العذاب الموكلين بهم مثل قولهم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ (الملك:8). ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ ﴾ (الزمر:71). ﴿ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (الطور: 14). ﴿ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الطور: 16). ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ (النبأ: 30).

كل هذا التوبيخ والتقريع والتأنيب جاء بيانه في كتاب الله عز وجل، وما ذكرناه قليل من كثير.

وأما تلاومهم فحدِّث ولا حرج، ويكفينا أن نصغى إلى بعض الآيات القرآنية التى سجلت تلاومهم بأمانة وصدق، فلنسمع خاشعين إلى قول الله تعالى وهو يخبر عنهم فيقول: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (الأعراف: 38، 39). ويقول: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سبأ: 31 ـ 33).

ويقول: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (الصافات: 27 ـ 33).

ويقول: ﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ (ص: 55 ـ 64).

خطبة إبليس فى أهل النار

ومن أغرب ما يعرف عن أهل النار من أحوال فى غاية العجب أن يخطب فيهم إبليس خطبة من أبلغ الخطب، وأفصحها، وأشدها أثراً ووقعاً فى نفوس سامعيها -أقمأهم الله وإياه سواء الخاطب والمخطوب-، فقد يُنصب لإبليس منبر من نار فيرقاه فيخطب أهل النار عليه، فيزيدهم فى كربهم، وطول محزنهم، وشدة إبلاسهم، وذلك لما يكسبهم خطابه من الندامة الممضة، والحسرة القاتلة، وقد سجل القرآن الكريم هذه الخطبة الإبليسية فلنستمع إليها كما جاءت من سورة إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (إبراهيم: 22).

درجة الحرارة فى جهنم

إن حر نار جهنم لشدته قد يصهر كل ما يُلقى فيه، وإن الاستعار والتأجج فى جهنم يزداد باستمرار، لقوله تعالى: ﴿ **مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ** ﴾ (الإسراء: 97 ـ 99) .

ولهذا فلن نستطيع أن نقدر حر نار جهنم بأية نسبة من النسب التى يعرفها الناس اليوم عندما يقيسون حرارة أى جسم حرارى، سواء كان مغلياً، أو ناراً ملتهبة، بيد أننا إذا أخذنا فى اعتبارنا حديث الصحيحين والذى يقول فيه رسول الله ﷺ : «ناركم هذه التى يُوقدُ بنو آدم جزءٌ من سبعين جزءاً من حرِّ جهنم. قالوا: إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: فإنها فُضِّلَتْ عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها»[1]. وإذا عرفنا درجة حرارة النار اليوم وضربناها فى النسب المذكورة فى الحديث أمكننا حينئذ أن نعرف درجة حرارة نار جهنم على وجه التقريب والمقايسة فقط.

لون نار جهنم

إننا نعرف أن النار جسم حرارى ملتهب مضىء، كما نشاهده عندما نوقد أى نار، ونضرمها لحاجتنا إليها، ولكن نار جهنم ليست معلومة عندنا، ولا يمكننا أن نعرف أى شىء عنها إلا من طريق الوحى فقط، فلو سُئلنا عن لونها لما أمكننا أن نجيب بشىء مقنع ما لم يكن لدينا وحى فنجيب له، غير أن مالكاً رحمه الله تعالى قد روى لنا فى موطئه حديثاً شريفاً صحيحاً أمكننا به أن نعرف لون نار جهنم، وأنه أسود، أشد سواداً من القار، لقوله ﷺ فى رواية مالك المشار إليها آنفاً: «أترونها ـ نار جهنم ـ حمراء كناركم هذه؟ لهى أسود من القار»[2]. ويروى لنا الترمذى فى جامعه عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «**أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثُمَّ أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهى سوداء مظلمة**»[3]. فمن خلال هذا الوحى عرفنا لون نار جهنم، وبلغنى وأنا أكتب هذا البحث أن

(1) متفق عليه، واللفظ لمسلم (8/ 149، 150)، واللؤلؤ والمرجان (2/ 110)، والبخارى (4/ 147)، والموطأ (3/ 155-156).

(2) القار: الزفت المعروف. راجع الموطأ (3/ 156).

(3) الترمذى (صفة جهنم / الباب الثامن) وابن ماجه (الزهد/ الباب الثامن والثلاثين)، وقال الترمذى فيه: «حديث أبى هريرة فى هذا موقوف أصح» وذكره عنه المنذرى فى الترغيب والترهيب (1/ 464)، قلت: ولكن هذا الكلام مما لا مجال للرأى فيه فهو فى حكم المرفوع.

علماء الكون اليوم قد أقروا هذه الحقيقة للون النار حسب مشاهداتهم للشموس الهائلة فى هذا الفضاء الكبير والذى هو دون السماء الدنيا.

عمق جهنم وبُعْد غورها

إن جهنم وهى إحدى دركات دار البوار ليس من الممكن بغير الوحى الإلهى أن نعرف مدى عمقها، ولا بعد غورها بحال من الأحوال ؛ لأنها لا تقاس بفرن من أفران الدنيا اليوم مهما كان عظيماً، وحتى فى عصر أفران الذرة والهيدروجين، وذلك لاختلاف ما بين الدنيا والآخرة، وبُعد ما بين طبيعتهما، وللفرق الهائل الكبير بين صنع الخالق عز وجل وصنع المخلوق الضعيف.

ولكى نعرف على وجه التقريب عمق جهنم، وبُعْد غورها نورد قول رسول الله ﷺ «**إن الصخرة لتلقى من شفير جهنم فتهوى سبعين عاماً وما تفضى إلى قرارها**»(1). وقوله ﷺ فى صحيح مسلم من رواية أبى هريرة قال: «كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة(2)، فقال النبى ﷺ: **تدرون ما هذا ؟** قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: **هذا حجر رمى به فى النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوى فى النار الآن حتى انتهى إلى قعرها**»(3). ومما يؤثر عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه كان يقول فى خطبه: «أكثروا ذكر النار، فإن حرها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامعها حديد»(4).

أودية جهنم

إن دار البوار لعالم كبير، لا يعرف له مدى ولا منتهى، غير أننا لو أردنا أن نستشف منه وسعه وكبره لأمكننا ذلك من خلال ما صح عن النبى ﷺ: «**من أن ناب الكافر فى جهنم يكون كجبل أحد الذى يزيد طوله عن خمسة أميال، وارتفاعه عن ميل كامل**»(5).

إن عالم الشقاء: ـ دار البوار ـ لاشك أنه مكون من أودية وجبال: لورود الوحى بذلك، ففى التنزيل الكريم وردت ألفاظ مقرونة بما يدل على أنها ألوان من العذاب، وفسرها فى الجملة كثير من السلف بأنها أودية فى جهنم، ومن ذلك: ﴿ **الغى** ﴾ فى قوله تعالى: ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا** ﴾ (مريم:59). و﴿ **الأثام** ﴾ فى قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا** ﴾ (الفرقان: 68). و ﴿ **الويل** ﴾ فى قوله تعالى: ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ** ﴾ (المطففين: 1).

---

(1) رواه الترمذى (جهنم/ 2) وأحمد (3/ 174). (2) صوت سقوط الحجر.
(3) مسلم (8/ 150). (4) رواه الترمذى فى صفة جهنم، الباب الثانى.
(5) رواه مسلم بلفظ: «**ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث**» (5/ 153، 154).

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (إبراهيم: 2). كما قد صح عن النبى ﷺ: «تفسير الويل بواد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره»(1).

سلاسل جهنم وأغلالها

إن من لوازم العذاب الشديد عادةً السلاسل والأغلال، والكبول والأنكال(2)، حتى إنه قد لا يتصور عذاب أليم لا يغل فيه صاحبه ولا يكبل، أو لا يوضع فى سلسلة.

ومن هنا كان فى جهنم السلاسل والأغلال، والكبول والأنكال، وقد جاء ذلك وبيانه فى كتاب اللّه عز وجل مفرقاً فى عدة سور منه كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً ﴾ (الإنسان: 4). وقوله: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (المزمل: 12، 13). وقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (70) إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (71) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ (غافر: 70 ـ 72). وقوله: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (الحاقة: 30 ـ 34)(3).

وقد روى بأسانيد جياد عن كثير من السلف أن هذه السلسلة تدخل فى فم الكافر، وتخرج من دبره، فينظم فيها كما تنظم السمسمة فى الخيط، والخرزة فى السلك.

الحيات والعقارب فى جهنم

إذا كانت جهنم ـ أجارنا اللّه تعالى منها ـ هى دار العذاب، وعالم الشقاء، كان العذاب أنواعاً متنوعة، وصنوفاً مصنفة حتى فى عالمنا الأرضى هذا، وحياتنا الدنيا هذه، فما بالنا بعالم الشقاء، ودار البوار !! إن فيها من صنوف العذاب، وضروب الشقاء ما لم تره عين، ولم تسمعه أذن، ومن هنا فلا يستغرب أبداً وجود حيات ناهشة، ولا عقارب لاذعة مميتة فى جهنم، يعذب بنهشها ولسعها أهل دار العذاب وكيف، وقد فسر الخبر ابن عباس رضي الله عنهما، قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ (النحل: 88).

فسر زيادة العذاب بأنها عقارب تلسعهم، العقرب كالبغلة الموكفة(4). ولا يبعد أن يكون هذا

---

(1) رواه الترمذى (تفسير سورة الأنبياء) وأحمد (3/ 475)، والحاكم وصححه (4/ 596).

(2) الكبول: جمع كبل: القيد الشديد، وكذا النكل الذى جمعه أنكال.

(3) راجع ابن جرير الطبرى فى تفسيره (11/ 63).

(4) راجع ابن جرير فى تفسير سورة النحل (6/ 160). والموكفة: الضخمة الغزيرة اللبن.

التفسير من ابن عباس مرفوعاً إلى النبي ﷺ لاسيما وقد روى الحاكم وصححه عن النبي ﷺ قوله «**إن في النار حيات كأمثال أعناق البخت**[1]**، تلسع إحداهن اللسعة فيجد حرها سبعين خريفاً، وإن في النار عقارب كأمثال البغال الموكفة، تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموتها**[2] **أربعين سنة**»[3].

طعام أهل النار

هل لأهل النار من طعام ؟ وهل حياتهم تمكنهم من أن يأكلوا أو يشربوا ؟

نعم، إن لأهل النار مطاعم كثيرة ومشارب ؛ إذ الطعام والشراب من لوازم الحياة، وأهل النار أحياء فيها لا يموتون ؛ إذ لو ماتوا لاستراحوا من العناء والعذاب، ولكنهم لا يموتون كما قال تعالى: ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** ﴾ (النساء: 56).

وقد يسألون الموت بالفعل، ويطلبونه ولكن لا يستجاب لهم، جاء طلبهم الموت في القرآن في قوله تعالى: ﴿ **وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ** ﴾ (الزخرف: 77).

وقد أخبر تعالى عن عدم موتهم بقوله: ﴿ **لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا** ﴾ (فاطر: 36).

كما أخبر تعالى أن من يَصْلَى النار الكبرى لا يموت فيها ولا يحيا، جاء ذلك في قوله: ﴿ **وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى** (١١) **الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ** (١٢) **ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ** ﴾ (الأعلى:11-13).

بعض أنواع طعامهم:

١ ـ الزقوم:

هو ثمر يخرج من شجرة تنبت في أصل الجحيم، مذاقه مر شديد المرارة، يغص في الحلق فلا يسوغ إلا بالماء الحميم، ومن خواصه أنه يغلي في البطن غليان الماء فهو شبيه بالجير، الذي إن صب عليه الماء فار وغلا، قال تعالى في بيانه: ﴿ **أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ** (٦٢) **إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ** (٦٣) **إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ** (٦٤) **طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ** (٦٥) **فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ** (٦٦) **ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ** ﴾ (الصافات:62،67). وقال: ﴿ **إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ** (٤٣) **طَعَامُ الأَثِيمِ** (٤٤) **كَالْمُهْلِ**[4] **يَغْلِي فِي الْبُطُونِ** (٤٥) **كَغَلْيِ الْحَمِيمِ** ﴾ (الدخان:43،46).

---

(1) البخت: الإبل الخراسانية. (2) الحموة: سَوْرَة وشدة الألم.

(3) الحاكم وقال فيه: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (4/ 593).

(4) المهل: الزيت العكر أو الرصاص أو الفضة إذا أذيبت.

وقرأ النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ (آل عمران: 102).

وقال: «**لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامهم؟**»[1].

٢ ـ الغسلين:

وهو ما تجمع من عصارة أهل النار من قيح وصديد وعرق، وما يخرج من فروج الزناة، وما يسيل من لعاب شاربى الخمور، والمغتابين، والكذابين، وقائلى الباطل، وشاهدى الزور.

ورد ذكر الغسلين فى قوله تعالى: ﴿ **فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ** ﴾ (الحاقة: 35ـ37).

والمراد من الخاطئين الذين كسبوا السيئات فأحاطت بهم خطاياهم فدخلوا النار بذلك، قال تعالى: ﴿ **بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ (البقرة: 81).

٣ ـ الضريع:

وهو شوك مر متناه فى المرارة، ينشب فى الحلق، يسيغه الآكل بالحميم، فيسبب له إسهالاً فظيعاً، فلذا هو لا يسمن آكله، ولا يغنيه من جوع، كما قال تعالى: ﴿ **لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ (٦) لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ** ﴾ (الغاشية: 6، 7).

بعض أنواع مشاربهم:

الشراب لازم لكل ذى كبد رطبة، وأهل النار ذوو أكباد، فلابد لهم من ماء يشربون، كما لابد لهم من طعام يأكلون ؛ إذ الأكل والشرب ضروريان لبقاء الحياة، واستمرار نمائها، وقد قدر لأهل النار البقاء فيها، فلذا هم يأكلون ويشربون ولم يكن الأكل والشرب ليدفع عنهم غائلة الجوع والعطش، ولكن ليزيد فى محنتهم وطول عذابهم، وقد سبق بيان بعض مآكلهم، وهذا بيان بعض مشاربهم:

(1) رواه الترمذى وصححه (صفة جهنم / 4)، وابن ماجه (زهد/ 38)، وأحمد (1/ 301، 338).

١- الحميم :

وهو ماء حار يجرى من عين آنية(1)، ومن خواصه أنه يصهر به ما فى بطونهم، ويقطع أمعاءهم، قال الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ (الغاشية: 2 ـ 5). وقال تعالى: ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ (محمد: 15). وقال تعالى: ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۝ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (الحج: 19-22).

٢ ـ ماء الصديد:

وهو ماء كدر، يحوى كميات من الصديد، يُغص به شاربه حتى لا يكاد يسيغه، يعانى شاربه منه آلاماً لا يعلم مداها إلا الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ (إبراهيم: 15 ـ 17).

٣ ـ ماء المهل:

وهو ماء ثخين حار حتى لكأنه النحاس المذاب بحيث إذا أدناه أحدهم من فمه ليشربه، شوت حرارته جلدة وجهه، قال تعالى فيه: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (الكهف: 29).

٤ ـ ماء نهر الغوطة:

وهو ماء متجمع مما يسيل من فروج الزوانى من النساء فقد روى أحمد بسند صحيح أن النبى ﷺ سئل عنه فقال: «**نهر يجرى من فروج المومسات يؤذى أهل النار ريح فروجهم**»(2)، هذا وننهى الكلام على مطاعم أهل النار ومشاربهم بحديث تفصيلى رواه الترمذى موقوفاً عن أبى الدرداء رضي الله عنه، حيث قد استعرضت فيه أحوال أهل النار بصورة وافية عجيبة، يقول: «**يلقى على أهل النار الجوع، فيعدل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غصة، فيتذكرون أنهم يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب، فيستغيثون بالشراب، فيدفع إليهم بكلاليب من الحديد، فإذا دنت**

(1) آنية: أى درجة حرارة الماء قد انتهت إلى ما لا مزيد عليه أبداً.

(2) أول هذا الحديث: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر، ومن مات مدمن الخمر سقاه الله جل وعلا من نهر الغوطة، قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: نهر .. إلخ**»، أحمد (4/ 399).

من وجوههم شوت وجوههم، فإذا دخلت بطونهم قطعت ما فى بطونهم، فيقولون: ادعوا خزنة جهنم، فيقولون: ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا: بلى، قالوا: فادعوا، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال» قال: «**فيقولون: ادعوا مالكاً، فيقولون:** ﴿**يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ**﴾ (الزخرف:77)، **!!**. قال: الأعمش: نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام، قال: فيقولون: ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم، فيقولون: ﴿**رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ**﴾ (المؤمنون:106-107)، قال: «فيجيبهم: ﴿**اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ**﴾ (المؤمنون:108)، قال: فعند ذلك يئسوا من كل خير، وعند ذلك يأخذون فى الزفير، والحسرة، والويل»[1].

فحش أجسام أهل النار وقبح منظرهم

ماذا عسى أن نقول فى فحش أجسام أهل النار وقبح منظرهم ؟ وهل فى الإمكان تصور ذلك فى الذهن، أو تصويره للناس ليدركوه، ويفهموا حقيقته لولا أن الوحى الإلهى الذى نطق به رسول الله ﷺ قد رسم لنا صورة واضحة نستشف من خلالها مدى فحش أجسام أهل النار وقبح منظرهم ؟ ولنستمع إلى كل من الشيخين يروى لنا حديثاً فى هذا الشأن يقول البخارى ومسلم فى صحيحه يقول الرسول ﷺ: «**ما بين منكبى الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع**»[2] ويقول مسلم: قال رسول الله ﷺ: «**ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث**»[3]. ويقول أحمد بن حنبل فى مسنده: قال رسول الله ﷺ: «ضرس الكافر مثل أحد، وفخذه مثل البيضاء[4]، ومقعده من النار كما بين قديد ومكة، وكثافة جسده اثنان وأربعون ذراعاً بذراع الجبار ..»[5]، ويروى لنا أحمد وغيره بسند لا بأس به: «**أن الكافر ليجر لسانه يوم القيامة وراءه قدر فرسخين يتوطؤه الناس**»[6].

وما أحسب أن هناك منظراً أقبح من هذا المنظر، لولا ما أخبر به الله تبارك وتعالى عن كلوح أهل النار كقوله: ﴿**تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**﴾ (المؤمنون: 104).

---

(1) الترمذى صفة جهنم (5).

(2) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (3/ 293)، والبخارى (8/ 142)، ومسلم (8/ 154).

(3) مسلم (8/ 153، 154). (4) البيضاء: جبل.

(5) الجبار: ملك من ملوك اليمن له ذراع معروف المقدار، والحديث فى أحمد (1/ 334، 537).

(6) أحمد (2/ 92)، ورواه الترمذى (صفة جهنم/ 3) بلفظ: «**إن الكافر ليسحب لسانه الفرسخ والفرسخين يتوطؤه الناس**».

حيث فسر الرسول ﷺ ذلك بقوله: «**تتقلص شفةُ الكافر العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته**» روى هذا التفسير للكلوح عن رسول الله ﷺ أحمد والترمذى والحاكم رحمهم الله تعالى أجمعين(1).

تفاوت عذاب أهل النار

إن تفاوت العذاب بين أهل النار فى دار البوار ثابت مقطوع به، صرَّحت بذلك الأحاديث النبوية الصحاح، وهو تابع لتفاوت أعمالهم، وما كسبوا من خير وشر فى هذه الحياة الدنيا، كما هو مقتضى العدل الإلهى القاضى بأن تُجزى كل نفس بما عملت، لها ما كسبت من خير، وعليها ما اكتسبت من شر، وها هى ذى الأحاديث المصرحة بتفاوت أهل النار فى العذاب بحسب كسبهم الإرادى الاختيارى فى الحياة الدنيا، روى مسلم فى صحيحه أن النبى ﷺ قال: «**أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، وهو منتعل بنعلين يغلى منهما دماغه**»(2)، وخف عذاب أبى طالب إلى هذه الدرجة من أجل ما قدمه من خدمات للإسلام فى شخص نبيه محمد رسول الله ﷺ، كما روى البخارى قوله ﷺ: «**إن أهون أهل النار عذاباً رجل على أخمص قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل بالقمقم**»(3). كما روى مسلم أيضاً قوله ﷺ: «منهم ـ من أهل النار ـ من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجْزته، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه، ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته»(4). وفى هذا أظهر دليل وأوضحه على تفاوت العذاب بين أهل النار.

بكاء أهل النار وعويلهم

إن العويل والبكاء من لوازم معاناة المخاوف والآلام، ومقاساة الشدائد والأهوال، ودار البوار وسكانها لا يبرحون يتجرعون الغصص ويتذوقون مر العذاب، حزنهم دائم، وعذابهم لا ينقطع ولا يخف، ومن هنا لا يستغرب منهم البكاء والعويل، ولا يستنكر عليهم الصياح والنواح، فهم يتضاغون فيها، ويصطرخون، يدعون بالويل، والحسرة، والثبور.

---

(1) الترمذى (جهنم/ 5)، أحمد (3/ 88). (2) مسلم (1/ 135).
(3) متفق عليه، واللفظ للبخارى (8/ 144)، واللؤلؤ والمرجان (1/ 53)، ومسلم (1/ 135، 136).
(4) رواه مسلم (8/ 150)، إلا أن قوله: «ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه» ليس فى هذه الرواية إنما هو فى أخرى لمسلم أيضاً فى نفس الجزء والصفحة.

وهذا القرآن الكريم يقص علينا بالحق ما سوف يدعون به ويقولون، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ (الفرقان:13).

وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ (فاطر:37). وقال تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ ﴾ (الأنبياء:100). وقال تعالى: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (55) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ (الزمر:55، 56). وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (27) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ (الفرقان:27 ـ 29).

وأخيراً فقد روى الحاكم بسند صحّحه عن النبي ﷺ قوله: «**إن أهل النار يبكون حتى لو أجريت السفن فى دموعهم لجرت، وإنهم ليبكون الدم -يعنى مكان الدمع-**»[1]. فاللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك، وأجرنا من النار وأدخلنا الجنة مع الأبرار.

البـــرزخ

تعريف:

البرزخ فى عرف اللغة: ما حجز بين شيئين، أو ما فصل بين ماهيتين، كاليابس من الأرض يكون بين بحرين، أو نهرين فاصلاً بينهما، وقد يكون فاصلاً بين ماهيتين كالحد الفاصل بين ماهية الإنسان والحيوان، وهو النطق أو الكلام مثلاً، وقد يكون حتى بين الشك واليقين.

وفى عرف الدين: البرزخ هو الحياة المجردة عن النعيم أو الشقاء الجثمانى التى تستقل فيها الروح عن الجسد، إذ الحيوات ثلاث:

الأولى: الحياة الدنيا، والتى تسعد أو تشقى فيها الأرواح مع الأجساد القائمة بها، والحالة فيها.

الثانية: حياة البرزخ، وهى الحياة التى تنفصل فيها الأرواح عن أجسادها التى كانت تعمرها، ويستقل فيها الروح عن الجسد بالنعيم أو العذاب، وسواء وجد لها فى العالم العلوى هياكل تناسبها فتحلّ فيها مؤقتاً، أو لا يوجد لها ذلك[2].

---

(1) الترغيب والترهيب (4/ 493)، والحاكم وقال: صحيح الإسناد. ولم يخرجاه ووافقه الذهبى (4/ 593).

(2) فى هذه العبارة إشارة إلى ما صح عن النبى ﷺ وقد سئل عن حياة الشهداء التى أثبتها لهم القرآن فقال: «**أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة فى العرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل...**» مسلم (6/ 38، 39).

والثالثة: الحياة الآخرة، وهى التى تعود فيها الأرواح إلى أجسادها التى كانت لها فى الحياة الأولى، وانفصلت عنها بالموت، فالحياة الثانية بين الأولى والثالثة هى حياة البرزخ ؛ إذ هى حد فاصل بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وهى عبارة عن عملية تربص وانتظار، والغرض منها: اجتماع الأرواح، وتكاملها استعداداً للدخول فى الحياة الآخرة، وذلك أن الحياة الأولى قامت على أساس الإيجاد المتلاحق، فيخلق اللّه تعالى الجسد والروح على طريقة معينة فى الخلق، فيعيش ذلك المخلوق عاملاً بما خُلق له زمناً معيناً، ثم تجرى له عملية انفصال الروح عن الجسد وهى ما يسمى بالموت فيموت، ويحفظ له عمله فى ديوان خاص ليجزى به فى الحياة الآخرة إن كان قد مُكّن من العمل ببلوغه من حياته زمن التكليف وهو سن الرشد ببلوغه عاقلاً وسميعاً، بصيراً، ولما كان الخلق فى الحياة الدنيا يأتى متلاحقاً جيلاً بعد جيل، هذا يُوجَد وذاك يعدم إلى أن ينتهى الخلق الذى قدر اللّه خلقه وإيجاده فى الحياة الدنيا، ويومها يحدث الانقلاب الكونى العظيم الذى تنتهى فيه حياة، وتبتدئ فيه أخرى.

أقول: إنه لما كان الخلق يجرى على ما ذكر، كان لابد من وجود حياة وسط بين الحياتين، تجتمع فيها الأرواح بعد انتهاء مهماتها التى خلقت لها فى الحياة الدنيا، وعندما يتكامل جمعها يعيد اللّه تعالى لها أجسادها التى كانت لها، ويبعثها فيها لتتلقى جزاءها فى الحياة الآخرة من نعيم أو جحيم. فالحياة الدنيا إذاً هى حياة عمل، والحياة الآخرة هى حياة جزاء، والحياة الوسط بين الحياتين هى حياة البرزخ، وهى حياة تربص وانتظار، قال اللّه تعالى تقريراً لمبدأ أن الحياة الأولى حياة عمل لا جزاء، وأن الحياة الآخرة حياة جزاء لا حياة عمل: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ (آل عمران: 185).

والسؤال الآن هو: هل فى حياة البرزخ ـ وهى حياة عَلمنا أنها تستقل فيها الأرواح عن الأبدان ـ من نعيم يجرى على الروح فتسعد به فترة تربصها، أو عذاب تشقى به مدة حبسها وانتظارها ؟؟

والجواب: نعم، وهذا بيانه مفصلاً.

مراحل جريان النعيم أو العذاب
على الروح فى البرزخ

المرحلة الأولى عند الموت ونزع الروح:

إن نعيماً أو عذاباً يتم للروح عند نزعها بواسطة ملائكة رحمة أو عذاب كما جاءت الأخبار الصادقة الصحيحة بذلك ففى القرآن الكريم يقول الله تعالى: ﴿**وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ (الأنفال: 50، 51). ويقول عز وجل: ﴿**وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ**﴾ (الأنعام: 93، 94). فقوله: ﴿**بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ**﴾ دال على أن الملائكة تعذب المحتضر الكافر أو الفاجر بضربه على وجهه وظهره، كما هو صريح قوله تعالى فى آية الأنفال المتقدمة: ﴿**الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ**﴾ هذا العذاب عند الموت، وحال النزع هو بالنسبة إلى ذى الروح الخبيث من أهل الكفر والإجرام، وأما بالنسبة إلى ذى الروح الطيبة الطاهرة من المؤمنين المتقين فقد قال الرسول ﷺ: «**إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ويجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها الروح الطيبة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء**»..... الحديث.

وأما ذو الروح الخبيثة من الكافرين والمنافقين فقال عنه رسول الله ﷺ: «**وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضبه، فتفرق فى جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول**» .. الحديث[1].

---

(1) رواه أحمد، قال المنذرى: رواته محتج بهم فى الصحيح، الترغيب والترهيب (4/ 366، 367)، وأحمد (4/ 288، 396، 5/ 136)، والفتح الربانى (7/ 74، 78)، ورواه النسائى بلفظ قريب من هذا (4/ 7،8)، ومعنى حنوط: طيب، وفىُّ السقاء: فم القربة، والمسوح: ثياب خشنة، والسفود: الحديدة التى يشوى بها =

المرحلة الثانية: النعيم فى القبر أو العذاب:

القبر أول منازل الحياة الثانية وهو العتبة للدار الآخرة، ويجرى فيه النعيم والعذاب على الروح والجسد معاً فى الساعات الأولى منه، ثم تستقل الروح بهما دون الجسد، إن نعيم القبر أو عذابه ثابت بالدليلين العقلى القياسى، والنقلى الشرعى الدينى، فالدليل العقلى هو عدم استحالته، وما لم يكن مستحيلاً فهو جائز؛ إذ ثبوت النعيم أو العذاب للميت فى القبر لا يوجب تصوره تناقضاً عقلياً. وثانياً: ما علمه كل إنسان، وعرفه من نفسه المرات العديدة من رؤى منامية يرى فيها نفسه فى نعيم كامل لا يؤسفه إلا أن ينقطع عنه بالاستيقاظ. أو عذاب شديد لا ينهيه عنه إلا استيقاظه، بل يبقى أثر الرؤيا فى نفس المرء فترة من الزمن خيراً كان أو شراً.

وأما الدليل النقلى الدينى فقد صح عن النبى ﷺ: «**إن ملك الموت إذا أخذ روح العبد المؤمن لم تدعها الملائكة فى يد ملك الموت طرفة عين حتى يأخذوها، ويضعوها فى ذلك الكفن، وذلك الحنوط** (تقدم الحديث عنهما) **ويخرج منه كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض**»، ثم قال: «**فيصعدون بها فلا يمرون على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلانٌ ابنُ فلان بأحسن أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون لهً، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل: اكتبوا عبدى فى عليين (فى أعلى درجة فى الجنة)، وأعيدوه إلى الأرض فى جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان: من ربك؟ فيقول: ربى الله، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام، فيقولان: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، وآمنت به، وصدقته، فينادى مناد من السماء: أن صدق عبدى، فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له باباً فى الجنة، قال: فيأتيه من روحها ورائحتها وطيبها، ويفسح له فى قبره مد بصره**». قال: «**ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب، طيب الريح فيقول: أبشر بالذى يسرك، هذا يومك الذى كنت توعد ... فيقول: من أنت؟! فوجهك الوجه الحسن يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى**»(1).

= اللحم، والمراد من سيل الروح كسيل القطرة من فىِّ السقاء: كناية عن سهولة خروجها من جسد المؤمن. والمقصود بنزعها كما ينزع السفود من الصوف المبلول: كناية عن شدة وصعوبة خروجها من جسد الكافر والفاجر، والمراد من تفرق روح الكافر فى جسده: كناية عن شدة الخوف والفزع وكأنها تريد الهرب عند سماعها ذلك الكلام. والله أعلم.

(1) هذا اللفظ والذى سبق كلاهما حديث واحد، وقد تقدم أنه أخرجه أبو داود وأحمد، وأن رواة أحمد كلهم محتج بهم فى الصحيح كما قال الحافظ المنذرى. راجع ص (413).

وفيه أيضاً أنه قال: «**إن ملك الموت إذا أخذ روح العبد الكافر لم تدعها الملائكة فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح**[1]. وتخرج منها كأنتن جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملإ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون: فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له. وقرأ رسول اللّه ﷺ: ﴿ **لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ** ﴾ (الأعراف: 40).

فيقول اللّه عز وجل اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى، ثم تطرح روحه طرحاً، ثم قرأ ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ (الحج: 31).

فتعاد روحه فى جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك ؟ فيقول: هاه هاه[2] لا أدرى، قال: فيقولان له: ما دينك ؟ فيقول: هاه هاه لا أدرى، قال: فيقولان له: ما هذا الرجل الذى يبعث فيكم ؟ فيقول: هاه هاه لا أدرى، فينادى مناد من السماء أن كذب فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول له: أبشر[3] بالذى يسوؤك، هذا يومك الذى كنت توعد فيقول: من أنت فوجهك الوجه القبيح يجىء بالشر ؟ فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة، ثم يقيض له أعمى، أصم، أبكم فى يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً، ثم يعيده اللّه كما كان، فيضربه ضربة أخرى، فيصيح صيحة يسمعه كل شىء إلا الثقلين». قال البراء: «**ثم يفتح له باب من النار، ويمهد له من فرش النار**». وصح عنه ﷺ أن اسم أحد الملكين يقال له: منكر، وأن اسم الثانى يقال له: نكير، وأنهما يثيران الأرض بأنيابهما، ويلجفان[4] الأرض بشفاههما، أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف، فيجلسانه .. الحديث»[5].

---

(1) المسوح: جمع مسح بكسر فسكون ثوب من شعر غليظ.

(2) كلمة (هاه، هاه) فى صوت الضاحك وهى هنا التوجع والحيرة لعدم علمه بما يقول.

(3) كلمة «أبشر» هنا المراد بها التهكم والتوبيخ والتقريع والتهديد.

(4) يلجفان: يضربان الأرض بشفاههما، ويحفرانها بهما.

(5) رواه أحمد، وقال الحافظ المنذرى: إسناده حسن. الترغيب والترهيب (4/ 369).

المـرحلـة الثالثـة:

نعيم الروح أو عذابها وهو فى برزخ بعيد عن القبر، متصل به

إنه بعد انتهاء فترة القبر التى تتم فيها فتنة الإنسان، وبها ينكشف أمره، وتظهر حاله، فيسعد أو يشقى نتيجة لما يجيب به عن سؤال الملكين، حيث يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، ويضل الله الظالمين.

بعد انتهاء الفترة هذه تودع الروح البشرية فى مستودع للرحمة أو العذاب فى عليين، أو فى سجين، وتبقى هكذا مرهونة محبوسة فى ذلك المستودع إلى يوم يبعثون، حيث يعيد الله تعالى الأجسام بعد فنائها ويأذن للأرواح أن تدخلها.

بيد أن للأرواح ـ سواء كانت فى عليين مستودع الأخيار، أو فى سجين مستودع الأشرار ـ اتصالاً مباشراً بالقبر الذى ضم رفات: صاحبها، وأودعت جثته فيه، وهو اتصال مباشر شبيه بالاتصال اللاسلكى الذى يتم اليوم بين محطتى الإرسال والاستقبال. وبذلك يتم معرفة الزائر للقبر، والمسلِّم على صاحبه[1]، بل ذلك الاتصال تجد الروح معه لذة النعيم، أو ألم الجحيم فى القبر، ولا يستثنى من هذه الحقيقة إلا أرواح الشهداء، فإن القرآن والسنة قد صرحا بأن أرواح الشهداء تكون بعد الاستشهاد فى حواصل طير خضر ترعى فى الجنة، وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش، قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ (آل عمران: 169، 170).

وقال رسوله ﷺ: «أرواحهم ـ الشهداء ـ فى جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل. فاطلع إليهم ربهم اطلاعة ـ فقال: هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا: أى شيء نشتهى، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسامنا حتى نُقتل فى سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»[2].

---

(1) روى ابن عبد البر وصححه عن ابن عباس مرفوعاً: «**ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد عليه روحه حتى يرد عليه السلام**»، وقد مر فى المطاعم والمشارب فى الجنة فليرجع إليه.

(2) مسلم (6/ 38، 39).

الركن السادس من أركان عقيدة المؤمن

الإيمان بالقضاء والقدر

إنه ما تزال العقيدة الإسلامية منذ إحداثها في العالم ذلك الانقلاب العظيم، وهزتها العنيفة لأركانه المتداعية، وخلخلتها للكيان البشري المهزوز، منذ ذلك الانقلاب الهائل العظيم الذي أطاح بصروح الباطل ودك عروش الشر والكفر والفساد، ما تزال العقيدة الإسلامية، تُستَهدف للطعن الشديد، وتتعرض للنقد القاسي المرير من خصومها الألداء، وأعدائها الأشداء من يهود ونصارى، ومجوس وملحدين على حد سواء، علماً منهم أن سر ذلك الانقلاب العظيم الذي وقع في الكون على أيدي أصحاب رسول الله ﷺ وأتباعهم من التابعين المؤمنين المحسنين إنما كان في العقيدة الإسلامية، فلهذا لم يبرح أولئك الخصوم يشككون فيها، ويطعنون حتى زلزلوها في نفوس أكثر المسلمين، ويومها فقط تسنى لهم[1] أن يوقفوا تيارها، ويقطعوا أسلاك أنوارها ؛ فتعود الظلمة إلى العالم الإنساني، وتصاب البشرية بنكسة كبيرة أدت بها إلى مهاوي الرَّدى، وأسقطتها في جحيم لا يطاق.

ولنذكر في هذا وعلى سبيل المثال فقط أن عقيدة القضاء والقدر وهي أحد أجزاء العقيدة الإسلامية، وليست كلها أبداً قد تعرضت لطعن عنيف، وتشكيك سخيف، بصورة تدعو إلى العجب والاستغراب، إنه لم تكد تذهب آثار شمس النور المحمدي المتخلف مع البقية الباقية من أصحاب رسول الله ﷺ حتى ظهر في المسلمين مبدأ نفي القدر، والقول بالجبر، ومذهب الاعتزال، والتشيع، ونَجَمَ[2] الشر واستطار، وطرق كل الأقطار، وتعرضت أمة الإسلام بعقائدها، وبلادها، وبكل وجودها إلى أعنف الهزات التي زلزلت كيانها، تتهاوى تحت ضربات الحانقين، وطعنات الناقمين.

ولما هوى ذلك النجم الذي أضاء المعمورة، وغمر الحياة بالهدى والخير قال الذين كفروا -تشفياً من الإسلام، وإمعاناً في الإجرام-: إن ما أصاب المسلمين من الانهيار والسقوط، بعد التفكك والضعف الكبير، كان نتيجة بعض العقائد عندهم، وخصوا بالذكر عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، وكان ذلك منهم إفكاً[3] مفترى، وكذباً مقلوباً، مشوِّهاً للحقيقة ؛ إذ الواقع هو

---

(1) تسنى: تهيأ وتيسر. (2) نجم: ظهر.

(3) الإفك: الكذب المقلوب وهو أسوأ الكذب.

أن الذى أحل بالمسلمين ما أحل بهم من ضعف وهوان ودون لم يكن نتيجة إيمانهم بالقضاء والقدر على الوجه الصحيح المطلوب، وإنما كان نتيجة إيمانهم بالقضاء والقدر على وجه غير صحيح ولا مطلوب، وذلك بما دس فيها الأعداء، وما شوهوها به من تأويل باطل، وتحريف سخيف قضى عليها، وأماتها فى نفوسهم أو كاد.

وهذا من أشد ما يملأ النفس أسى وحزناً، إن أعداء المسلمين ما زالوا يفسدون عليهم عقائدهم، ويشككونهم فيها حتى تخلوا عنها، فضعفوا لذلك، وهانوا، ثم انبرى أولئك الأعداء يقولون: إن ضعف المسلمين كان من جراء عقائدهم التى يعيشون عليها معتقدينها، منفعلين بها، مستجيبين لها، ومن المؤسف حقاً أن أكثر المسلمين ما زالوا إلى اليوم لم يصرفوا داءهم، ولا ما كادهم به أعداؤهم ؛ إذ إننا نرى كثيراً منهم يلوك بلسانه عقيدة القضاء والقدر، ويحتج بها مرة على فسقه وتهربه من مسئولياته، ومرة يتجنى بها على الله تعالى ربه وخالقه ومدبر أمره، وميسره إلى ما خلقه له. فينسب إليه تعالى الظلم، ويعترض عليه فى قضائه، ومجارى أقداره، وعادل أحكامه.

ومن هنا رأيت العناية ببحث هذا الجزء من عقيدة المؤمن واجبة، لما عسى أن ينفع الله به من يقرؤه أو يسمعه ممن هم فى بلبلة فكر، واضطراب نفسى من عقيدة القضاء والقدر، فينقطع بلبال أفكارهم، ويزول اضطراب نفوسهم، فيؤمنون ويرضون، ويعملون بطاعة الله ورسوله فينجون ويسعدون.

وبين يدى بحث هذا الجزء من عقيدة المؤمن وهو القضاء والقدر أقدم ثلاث كلمات تمهيدية قد تساعد على فهم هذا المعتقد، وتسهل الوصول إلى إدراك حقيقته.

* * *

الكون ومظاهر التنظيم فيه

إن كلمة الكون تعنى هذا الوجود من العوالم العلوية والسفلية كالأرض والسماء وما فيهما وما بينهما، وهو كون هائل عظيم يحوى عوالم كثيرة لا تحصى عداً ولا يحاط بها حداً، كل عالم منها يقف العقل البشرى أمامه حائراً مشدوهاً، ففى سمائنا الدنيا هذه وحدها بلايين الكواكب والنجوم، تختلف فى أحجامها وأبعادها وقوانين سيرها، كما تختلف فى أجرامها، ومحتوياتها، وخصائصها.

وفى أرضنا هذه التى نعمرها، ونعيش عليها عوالم لا تقل عظمة وروعة عن العوالم العلوية. ففى عالم الإنسان، كعالم الحيوان، كعالم النبات عجائب كثيرة فى الخلق، وعجائب فى العدد والكثرة، وعجائب فى الخصائص والطباع.

وكل هذا الكون الضخم العجيب قد ربطت بين أجزائه كلها العلوية والسفلية أنظمة من السنن الإلهية الدقيقة المدهشة، فسار الكون كله متحداً متناسقاً إلى غاية لم ينته إليها بعد، إذا ما وصلها يكون قد استنفد طاقته وانتهى. قال اللّه تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ (الأنعام: 2).

هذا الكون المدهش المحير تجرى فيه حوادث هائلة عظيمة، كل حادثة منها لها عواملها، وأسبابها، ومقتضياتها الخاصة بها، فدورة الأفلاك، وسير الكواكب، وهبوب الرياح، واختلافها، وتراكم السحب، وسقوط الأمطار، ونبات الزروع، وتوالد الإنسان والحيوان، وما يتجدد من موت وحياة ـ كل هذا خاضع لسنن تحكمه فتقوده لحكم عالية، وأغراض صالحة سامية، فليس بين هذه الأحداث والحوادث الجارية فى الكون ما هو عار عن حكمة متوخاة ولا ما هو جار على غير قانون ثابت يربطه بكل أجزاء الحياة.

ومن أجل هذا التنظيم السارى فى كل أجزاء هذا الكون ما شك الذين أوتوا العلم فى أن رب هذا الكون جل جلاله وعظم سلطانه قيد علمه قبل خلقه كلاً وتفصيلاً، ووضع هذا النظام الذى يحكمه قبل وجوده، ثم ربطه به بعد أن أوجده فهو يسير فيه، لا يتخلف عنه ولا يخرج، وهذا النظام هو سر اطراد الحياة الدنيا، وبقائها إلى أجلها الذى تنتهى إليه ـ وهو بالتالى نظام القضاء والقدر الذى دعت رسل اللّه جميعاً إلى الإيمان به والرضى بكل مجاريه خيره وشره على حد سواء.

الثانية: كيف كان الكون موجوداً ؟

الوجود قائم لا معنى لإنكاره، ولا حاجة إلى إقامة الدليل على وجوده، وإنما المسألة التى شغلت أذهان الباحثين فيه قديماً وحديثاً هى مسألة قدم العالم وحدوثه، أى هل الوجود قديم أزلى أو حادث سبقه عدم، وطرأ عليه وجود ؟

إن أكثر علماء البشر قد أطبقوا على حدوث العالم ؛ وذلك لعلة التغير، والكون أو الوجود متغير فهو إذاً حادث غير أزلى قطعاً، هكذا كان استدلال العلماء على حدوث العالم، واستمر كما هو إلى القرن التاسع عشر الميلادى، وحتى اكتشف قانون الطاقة المتاحة والذى أثبت بما لا مجال للشك فيه ـ كما يقول علماء الكون اليوم ـ أن العالم لم يكن أزلياً أبداً وإنما هو حادث مخلوق كما لم يكن أبدياً بل لابد له من نهاية حتماً، وسر ذلك أن الطاقة الحرارية المتاحة تنتقل دائماً من جسم حرارى إلى آخر على خلافه، ولا يمكن أن يكون العكس، فهذه الطاقة المتاحة لابد وأن يكون هناك من أتاحها أولاً ؛ إذ العدم السابق لا ينتج شيئاً فتعين أن يكون خالقه أزلياً، وبهذا يبطل أن يكون الوجود أزلياً كما ادعى بعض الفلاسفة الملحدين ولزم أن يكون حادثاً له بداية، ولما كان له بداية كان له نهاية حتماً.

وعند تقرير هذه الحقيقة العلمية يقول أحد علماء الغرب: وهكذا أثبتت البحوث العلمية دون قصد أن لهذا الكون بداية، فأثبتت تلقائياً وجود الإله ؛ لأن كل شىء ذى بداية لا يمكن أن يبتدئ بذاته، ولابد أن يحتاج إلى المبدئ الأول وهو الإله الخالق سبحانه وتعالى، وفى القرآن الكريم مصداق هذا حيث جاء فيه قول الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: 53).

بحكم هذا القانون السابق الذكر وهو انتقال الطاقة من الأجسام الحرارية إلى غيرها، وهى عملية مستمرة فإن هذه الطاقة ستنفد فى يوم من الأيام وعندها تنتهى هذه الحياة، هكذا يقول علماء الكون، وهى نظرية سليمة، غير أن نهاية الحياة أخبر عنها خالقها بأنها تكون عند نهاية الأجل المسمى لها، ولا تكون بفقد الطاقة الحرارية، ولكن باختلال الأفلاك، كما قال تعالى فى كتابه العزيز: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ (الواقعة: 1 ـ 6). و ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ (التكوير: 1 ـ 3). و ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ (الانفطار: 1، 2). بيد أن أولئك العلماء حسبهم أنهم قد أثبتوا بطريقتهم

العلمية الخاصة حدوث العالم، وعدم أبديته، وأنه لابد من فنائه، ونهاية هذه الحياة الدنيا.

وبعد هذا فإن السؤال الملحّ هو كيف كان بدء الوجود ؟ أو كيف كان هذا الكون ؟ وعند الجواب عن هذا السؤال انقطعت ألسنة الماديين من كونيين ومن غيرهم، فلم يحاروا جواباً، وأنَّى لهم أن يجيبوا بشيء سوى الهوس، والتخمين، والحدس، أو الظن، والكذب، والخرص، ومن تلك الظنون والتخرصات قول بعضهم: إن الأرض قد انفصلت عن الشمس شرارة ملتهبة، ثم بردت بعد ملايين السنين، وتحجرت، وأصبحت ذات قشرة ترابية، فتهيأت بذلك للخلق، والحياة عليها.

وأما الحياة فإنهم يقولون: إنها بدأت خلية بسيطة، ثم أخذت تتطور وتتكاثر حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن، ثم لو سئلوا وقيل لهم: إذا كانت الأرض قد انفصلت عن الشمس، والشمس وسائر الكواكب والنجوم ـ وهي ملايين بتقديراتكم أنفسكم ـ عمَّ كان انفصالها ؟

وخلية الحياة، وهم يقولون: إنه لا يبعد أن تكون قد جاءت في شكل جرثومة من بعض الكواكب الأخرى، لم لا تكون خلية أخرى إذاً قد وقعت على كوكب آخر كالقمر مثلاً، ونمت فيه كما نمت على الأرض، وأصبح في ذلك الكوكب عالم من الأحياء كعالمنا هذا ؟ مع أنهم يقولون: إن القمر خال من الحياة تماماً بناء على ما ادعوه من مشاهدة سطح القمر عند نزولهم على سطحه كما يزعمون !! والحمد لله القائل: ﴿ **مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا** ﴾ (الكهف: 51).

فقد أغنى الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عن هذه الهواجس، والوساوس، والظنون، والتخرصات حيث أخبر تعالى وهو الخالق عن كيفية خلق الكون، وكفى بمن خلق مخبراً وكيف لا يعلم ما خلق وهو اللطيف الخبير ؟ إذ يقول تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (30) وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (31) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (32) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ (الأنبياء: 30 ـ 33).

وقال: ﴿ **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ**

سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت: 9 ـ 12).

هذا خبره تعالى عن خلق الكون، وأما عن خلق الإنسان، والجان، والحيوان، والنبات فيقول تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ (الرحمن: 14، 15). ويقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ (الحجر: 26، 27). ويقول: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور: 45). ويقول: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ (عبس: 24 ـ 32).

أين هذا الإيمان الواقى، والقول الشافى، والنبأ اليقين فى خلق الإنسان والكون، من ذلك الهراء الخواء، والخرص والتخمين، بل الكذب والإفك المبين ؟؟ إن ما بينهما كما بين الوجود والعدم، والسمع والصمم !!

وأين هؤلاء من أولئك ؟ !!

هؤلاء هُدوا بإيمانهم لمعرفة الحق فعرفوه، وقبلوه، وسكنت له نفوسهم، وآثروه، وأولئك ضلوا بكفرهم، فآثروا العمى على الهدى، فعارضوا العلم الحق بالشبهات، وردوا اليقين بالشك والمين[1].

المؤمنون أضاء لهم نور الوحى المبين، فرأوا فى نوره أهل الظلمات فى آرائهم يعمهون، وفى ضلالاتهم يتهوكون[2]، وفى ريبهم يترددون. والكافرون لاح لهم فى بيداء الهوى سراب، فجروا وراءه ظانين أنه الحكمة وفصل الخطاب، ولما انتهوا إليه بعد كلال، وجدوه خيبة آمال وسوء مآل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (النور: 39، 40).

---

(1) المين بفتح الميم، وسكون الياء: الكذب، ومنه قولهم: أكثر الظنون ميون.

(2) العمه والتهوك: كلاهما بمعنى التحير والتردد.

الثالثة:

لقد أصبح معلوماً بالضرورة لدى العالمين بأحوال الكون أن الكون كله علويه وسفليه مربوط بنظام دقيق هو غاية فى الدقة، فمن أكبر حجم فيه -كوكب الشمس مثلاً- إلى أصغر شيء -كنواة الذرة- الكل مشدود بقوانين عجيبة، ومحكوم بسنن ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، كما صرح بذلك القرآن الكريم فى قوله: ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ (فاطر: 43).

ولو فرض أن سنة من تلك السنن التى تربط الكون قد اختلت لخرب العالم أجمع.

ففى العالم العلوى مثلاً لو أن خللاً طرأ على النظام الشمسى بخروج بعض الكواكب عن مسارها، واصطدامها ببعض الكواكب الأخرى لكانت نهاية العالم حتماً، ولو أن حرارة الشمس زادت نسبتها على ما هى عليه الآن بعض الزيادة، أو نقصت على ما هى عليه بعض النقصان لما أمكن الحياة على الأرض للاحتراق الذى يصيبها فى الحالة الأولى، أو التجمد الذى يصيبها فى الحالة الثانية.

هذا فى العالم العلوى، وفى العالم السفلى لو أن نسبة الأكسجين وهى واحد وعشرون فى المائة (21%) زادت على نسبة الهواء فكانت خمسين مثلاً لاحترق كل شيء قابل للاحتراق.

كما أنها لو نقصت عن هذه النسبة المحددة لاختنق البشر، وهلك الناس، هذا مجرد مثال سقناه للأنظمة العامة التى أوجدها الله سبحانه وتعالى فى هذا الكون وربط بها الحياة، وجعلها متوقفة عليها. وأما النظام الخاص والموضوع لكل كائن فى الحياة فهو نظام مدهش جداً، إنه يوجد لكل كائن سنن خاصة به فى وجوده ونشأته، وتطور حياته، وفى طرق معاشه، واكتساب رزقه، وسنن تناسله، وحفظ نوعه، وكيفية موته وفنائه، وأكثر هذه السنن الخاصة بالأحياء معلومة لمن تأملها، وفكر فيها. ومن هذه السنن أذكر على سبيل المثال ثلاث سنن من سنن اللقاح فى الإنسان والحيوان، والنبات، فأقول:

إن الميل الفطرى الذى يجده الرجل إلى امرأته، والمرأة إلى زوجها، وذلك الغشيان الخاص للنسل، وحفظ النوع عمل يتم وفق سنة موضوعة للإنسان لحفظ نوعه.

ومن أجل تحقيق تعاون بين الزوجين ينتج عنه حفظ الأولاد، وتربيتهم توجد الظاهرة التالية، وهى أن الرجل يبقى فى حاجة إلى غشيان المرأة حتى فى حال حبلها، بخلاف الحيوان ؛ فإنه إذا حبلت أنثاه عافها وتركها مما يدل على أنه مفطور على إتيانها لا لغريزة الشهوة المركبة فيه كما هو الظاهر فقط، وإنما للنسل، والذى بواسطته يتوفر للإنسان غذاؤه من اللحم، واللبن

ومشتقاته، والصوف والوبر، والشعر لفراشه ولباسه، فى حين أن الحيوان ينصرف عن أنثاه فى حال حبلها، وتنقطع المودة بينهما، وذلك لعدم الحاجة إلى التعاون بينهما على تربية الولد، وحفظه كما هى الحال فى الإنسان فى تربية أولاده وحفظهم، ولعل هذه الظاهرة قد توجد فى الحيوان الذى يفتقر إليه ولده فى تربيته وحفظه إلى أمد معين، فسبحان من أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، هذا فى الإنسان والحيوان، وإنه ليبدو معقولاً، مقبولاً. أما فى النبات فإنه لم يأخذنى العجب من شىء فى ظواهر هذا الكون كما أخذنى من ظاهرة كيفية عملية لقاح شجر التين، وحقاً إنها لظاهرة جد عجيبة، تأخذ بلب المتأمل فيها، وبكل مشاعر الناظر إليها:

إنه يوجد فى نوع شجر التين شجر منه يعرف بذكر التين، وفى أوساط الربيع وبعدما يورق كل من ذكره وأنثاه يُخرج كل منهما حباً صغيراً هو ثمره المعتاد، غير أن الملاحظ فى ذلك أن حب الذكر يكبر بسرعة حتى إذا ما تهيأت الأنثى للقاح حسب سنة الله تعالى فيه كان حب الذكر قد ينع، فيأخذ الفلاح ثمرة الذكر اليانعة فيعلقها بأغصان الشجرة الأنثى، فيخرج من حبة الذكر المعلقة ذباب صغير فى غاية الصغر، ويعرف ذلك الذباب طريقه إلى حبة الأنثى فيدخل فى مكان على سطحها قد أعد لذلك هو أشبه ما يكون بفرج حيوان، فيدخل ذلك الذباب حاملاً معه مادة بيضاء قد علقت بجسمه الصغير ثم يخرج منها بعد أن يكون أتم عملية التلقيح، ليدخل فى حبة أخرى ليلقحها وهكذا حتى يلقح عدداً كثيراً من حبات التين الصغيرة المهيأة للتلقيح، وبعدها يموت ذلك الذباب وقد أتم مهمته التى خلقه الله تعالى لها، هكذا تتم هذه العملية المعقدة العجيبة التى هى من أقوى البراهين على وجود الله تعالى، وقدرته، وعلمه، وتدبيره، فسبحان من أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

والآن ونحن فى غاية التأثر والإعجاب بهذه الظاهرة الكونية فى لقاح شجر التين لا يسعنا إلا أن نسجل كلمة نستودعها الله تبارك وتعالى ليردها علينا يوم القيامة فينفعنا بها وهى أن ظاهرة كهذه فى لقاح هذا الشجر الطيب المبارك يستحيل أن تتم بالضرورة، أو الصدفة، أو الطبيعة كما يقول الملاحدة والطبيعيون، وإنما تتم بخلق وتقدير، وتدبير خلاق عليم، مدبر حكيم، هو الله رب العالمين، رب السموات والأرض وما بينهما، ورب كل شئ ومليكه الذى أشهد شهادةَ علم ويقين: أنه الله الذى لا إله إلا هو القائم بالقسط، العزيز الحكيم. اللهم إنا نستودعك هذه الشهادة فهى لنا عندك وديعة تردها علينا يوم القيامة. وأخيراً فهذا النظام فى الكون كله علويه وسفليه لم يكن إلا نتيجة قدر وعلم سبقاه، فكان كل شىء فى هذا الكون يتم على مقتضى ذلك التقدير الأزلى القديم الذى هو القضاء والقدر، والذى لا يتم إيمان عبد إلا به والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

القضاء والقدر

ولكى يسهل علينا معرفة القضاء والقدر ينبغى أن نرجع بالذاكرة إلى تلك الكلمات الثلاث التى قدمناها تمهيداً لبحث القضاء والقدر، وما أوردنا فيها من كلام فى خلق الكون والنظام الذى رُبط به، والسنن التى تحكم كل أجزائه وما وقفنا عليه من عجيب الخلق والتدبير فى هذا الكون كله: فى الإنسان، والحيوان فى النبات والجمادات، لقد رأينا أن النظام الشمسى فى غاية الدقة إذ لكل كوكب بل لكل نجم من النجوم ـ وهى بلايين ـ مساره الذى يسير فيه، ومداره الذى يدور عليه، وذلك على مر هذه الحياة الطويلة، ولم يقع أن خرج كوكب عن مداره الذى يدور عليه، ولا نجم عن مساره الذى يسير فيه، إذ لو وقع ذلك لانتهى العالم من الوجود.

كما رأينا سنن الله تعالى فى حياة الإنسان، والحيوان، والنبات نشوءاً، وتطوراً، ونماء، وبقاء، وفناء، وأن ذلك مربوط بسنن لا تتبدل، وبذلك انتظمت الحياة فهى تسير إلى غاياتها المحدودة لها، وعرفنا أن هذا هو سر القدر وتفسيره.

ومن هنا صح لنا أن نُعرف القدر والقضاء بأنهما: علم الله تعالى الأزلى بكل ما أراد إيجاده من العوالم، والخلائق، والأحداث، والأشياء، وتقدير ذلك الخلق، وكتابته فى الذكر الذى هو اللوح المحفوظ، كما هو حين يقضى بوجوده فى كميته، وكيفيته، وصفته، وزمانه، ومكانه، وأسبابه، ومقدماته، ونتائجه بحيث لا يتأخر شىء من ذلك عن إبانه(1)، ولا يتقدم عما حدد له من زمان، ولا يتبدل فى كميته بزيادة أو نقصان، ولا يتغير فى هيئة ولا صفة بحال من الأحوال، وذلك:

أولاً: لسعة علم الله تعالى الذى علم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وعظيم قدرته عز وجل التى لا يحدها شىء، ولا يعجزها آخر، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وثانياً: لربطه تعالى الوجود كله بقانون السَّنن الذى يحكم كل أجزاء الكون علويه وسفليه على حد سواء، هذان هما القضاء والقدر اللذان لا ينكرهما إلا مكابر مجاحد، أو جاهل معاند، إذ هما يتجليان فى شكل قوانين ثابتة تشمل كل كائن فى هذا الوجود من الفلك إلى النور والحلك، ومن الإنسان إلى الحيوان، ومن النباتات إلى الجمادات.

ولنستمع بآذان صاغية إلى الخلاق العليم، والصانع الحكيم سبحانه وتعالى وهو يخبر عن قدرته وحكمته فيه(2)، ومشيئته له، وقضائه به: ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ**

---

(1) الإبان: بتشديد الباء الموحدة التحتية: الوقت والزمن الذى يوجد فيه الشىء.

(2) الضمير فى «فيه» عائد إلى القدر.

إلاَّ في كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (الحديد: 22). ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ⑲ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ⑳ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الحجر: 19-21)، ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر: 49). ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴾ (طه: 40). ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: 2)، ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ (الأحزاب: 38). ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ① الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (الأعلى: 1 ـ 3).

هذا ولمَ ينكر القدر؟ والإنسان المخلوق المحكوم بقوانين القدر التى لا يستطيع أن يخرج عنها بحالَ من الأحوال، لا ينكر عليه إذا أراد أن يبنى منزلاً أن يرسم له صورة كاملة على ورقة صغيرة، ثم يأخذ فى بنائه، فيخرجه إن كان ذا قدرة وعلم كافيين، صورة طبق الأصل، فلا يختلف شيء مما قدره فيه، ولا يختلف فيه شيء عما رسمه له.

إذا كان الإنسان على ضعفه وعجزه لا يُستغرب منه ذلك، بل يُحمد عليه، ويثنى عليه به، فكيف يستغرب مثل ذلك من الله الخلاق العليم ذى القوة المتين؟!!

وإذاً فكيف وجد من ينكر القدر ويجادل فيه؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نذكر هنا أن القدر قدران: قدر سلمه، وآمن به كل المؤمنين بالله تعالى، ولم ينكره أحد، أو يمار فيه آخر، وهذا النوع من القدر هو ما كان مثل خلق العالم، وما فيه من سنن، وما يجرى فيه من أحداث كالحياة والموت، والقحط والجدب، وما ينزل بالإنسان من مصائب لم يتسبب هو فيها، ولم يكن له قدرة بحال على دفعها، وذلك ككونه يولد جميلاً أو دميماً، وطويلاً أو قصيراً، وفى زمن كذا دون غيره من الأزمنة، وفى بلد كذا دون غيره من البلاد مثلاً.

وككون القضاء مضى بسعادة المرء أو شقائه، كما مضى بتحديد رزقه وأجله، فهذا النوع من القدر هو من مراد قوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (الحديد: 22).

وقول الرسول ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما **«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»**[1] وهذا النوع من القدر كما يجب الإيمان به،

(1) رواه الترمذى (قيامة/ 59)، وأحمد (1/ 293)، وابن أبى عاصم فى كتاب السنة.

يجب الرضى به، والتسليم لله تعالى فيه ـ فإنه على وفق رضى الله تعالى، وبناء على مشيئته وحكمته وواقع على أساس تدبيره لملكه وخلقه، وإنه ما من حادثة تحدث فى الكون إلا ولله تعالى فيها حكمة، عالية مقصودة، ومن هنا قبح بالمرء أن يتبرم من هذه الأحداث المقدرة له، كما جمل به أن يقابلها بكامل الرضى، ومطلق التسليم.

ثمرة الرضا بالقضاء

وللرضا بهذا القضاء نتائج سارة، وثمرات طيبة، ومن تلك النتائج السارة والثمرات الطيبة أنه يُكسب صاحبه قوة الشكيمة، ومضاء العزيمة ؛ إذ من اطمأنت نفسه إلى أن ما أصابه لم يكن ليخطَئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ـ خلت أعماله من الحيرة والتردد، وانتفى من حياته القلق والاضطراب ؛ لأنه بمجرد ما يترجح لديه الإقدام على أمر ما أقدم عليه فى غير ما خوف، ولا هيبة، ولا تردد، ومن هنا فإنه لا يحزن على ماض، ولا يغتم لحاضر، ولا يؤلمه هَمُّ المستقبل، وبذلك يكون أسعد الناس حالاً وأطيبهم نفساً، وأصلحهم بالاً، وأهدأهم خاطراً، ومنها أيضاً أنه يكون من أشجع الناس عقلاً وقلباً، وأكرمهم قولاً ونفساً ؛ إذ من عرف أن أجله محدود، ورزقه معدود فلا الجبن يزيد فى عمره، ولا الشح يزيد فى رزقه، نافس فى البطولات وسابق فى المكرمات.

ومما لاشك فيه أن هذه الصفات قد تجلت واضحة فى هذه الأمة، أمة الإسلام أيام كانت عقيدة القضاء والقدر واضحة فى نفوسهم، قوية فى قلوبهم فقد فاقوا الناس شجاعة وكرماً، وصبراً وحلماً، ومعرفة وعلماً، الأمر الذى تمكنوا به من سيادة العالم وقيادته مدة من الزمن طويلة غير قصيرة.

والآن يحسن بنا أن نجيب عن السؤال الذى أرجأنا الإجابة عنه وهو: كيف وجد من ينكر القدر ويجادل فيه ؟ فنقول: لقد علمنا من الكلمة التى استطردناها هنا عند إرجائنا الإجابة عن هذا السؤال أن القدر الذى وجد بين المسلمين من ينكره ويجادل فيه ليس هو القدر العام الذى يشمل الكون كله وما يجرى فيه من أحداث لا يد للإنسان فيها، ولا قدرة له على دفعها أو تغييرها ؛ إذ هى جارية على نظام السنن التى يقول الله تعالى فيها: ﴿**وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾ (فاطر: 43). وإنما هو القدر الخاص المتعلق بأفعال العباد، حسنها وسيئها، صالحها وفاسدها، وأول ما ظهر القول فيه على عهد عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى الراشد، وذلك فى حدود المائة الأولى من الهجرة، قال به وأظهره ودعا إليه غيلان الدمشقى حتى قتله هشام بن عبد الملك، وهذا لا ينافى ما روى من أن القول بنفى القدر كان فى أواخر أيام الصحابة ﷺ ؛

إذ ما قيل فى تلك الأيام لم يعدُ كونه مجرد قول قاله فرد، أو أفراد فأنكره عليهم من وجد من أصحاب رسول الله ﷺ كابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهم حتى قضوا عليه، وأخمدوا نار فتنته إلى حين. ونفى أولئك النفر للقدر معناه: أن الأمور المتعلقة بأفعال العباد لم تقض أزلاً، ولم تكتب فى كتاب المقادير[1] ولم يعلمها الله تعالى قبل وجودها، ويبدو أن الطائفة التى قالت بنفى القدر بهذا المعنى قد دُحضت حجتها، وذهب باطلها وانتهت نهائياً من الوجود؛ لأن نصوص الكتاب والسنة فى إثبات القدر الخاص والعام متكاثرة متضافرة بحيث يُعدّ منكرها كافراً لا مُقام له بين المسلمين، وها نحن نورد تلك النصوص تسجيلاً لها فى هذا المقام بهذه المناسبة ليرتادها القلب كلما رانت عليه آثار الشبه التى لا تبرح تمر بالقلب، وتُوجَد حوله للإغواء والفتنة، ومن تلك النصوص قوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ (القمر: 49). وقوله: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾ (الفرقان: 2). وقوله: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ**﴾ (الأعلى: 1 ـ 3). وقوله: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ (الحديد: 22).

وقول الرسول ﷺ فى رواية لمسلم: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء**»[2]، وقوله ﷺ فى رواية للبخارى: «**كان الله ولم يكن شىء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب فى الذكر كل شىء**»[3] وقوله ﷺ فى رواية أبى داود: «**أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب. فقال: رب ماذا أكتب ؟ قال: اكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة**»[4]، وقوله ﷺ لبعض أهل بيته وقد لاموا أنساً فى بعض تقصيره فى إحضار شىء طلبوه منه: «**دعوه فلو قضى شىء لكان**»[5] وقول ابن عمر رضي الله عنهما فى صحيح مسلم وقد أخبر بأن ناساً يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف[6]، قوله لمن أخبره بذلك: «**إذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أنى برىء منهم وأنهم براء منى، والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفق فى سبيل الله ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر**»[7]، وقد

(1) المراد من كتاب المقادير: اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه كل شىء.

(2) مسلم (8/ 51). (3) البخارى (9/ 152)، والمراد بالذكر اللوح المحفوظ.

(4) أبو داود (2/ 527، 528)، وكذا رواه الترمذى (قدر/ 17)، وأحمد (5/ 317).

(5) هذه الرواية ذكرها ابن القيم فى كتاب القدر وهى ضعيفة سنداً، والحديث رواه أحمد (3/ 231)، عن أنس رضى الله عنه بلفظ: «خدمت النبى ﷺ عشرين سنة فما أمرنى بأمر فتوانيت عنه أو ضيعته فلامنى فإن لامنى أحد من أهله إلا قال: «**دعوه فلو قدر – أو قال: قضى– أن يكون كان**».

(6) الأنف: المستجد الذى لم يسبق به علم الله ولا قدره. (7) مسلم (1/ 28).

تقدم حديث ابن عباس عند الترمذى وفيه قوله ﷺ: «**رفعت الأقلام، وجفت الصحف**». غير أنه قد وجد فيما بعد من يقول بنفى القدر عن أفعال العباد، فزعم أن العبد يخلق أفعاله بنفسه، وأن اللّه تعالى لا دخل له فى ذلك، ولا عمل، وأن أفعال العباد لم تقدر ولم يعلمها اللّه تعالى قبل وجودها، وقالوا: كيف يفعل اللّه القبيح وهو ينهى عنه ويحرمه، وهذا هو أساس شبهتهم التى بنوا عليها مذهبهم فى كون اللّه تعالى لم يخلق أفعال العباد ولم يقدرها لهم أو عليهم، وإنما العبد وحده هو الخالق لأفعاله. وأضافوا إلى شبهتهم هذه شبهة أخرى وهى قولهم: كيف يخلق اللّه أفعال العباد ثم يعاقبهم عليها ؟ وأصبحوا بهذا يعرفون بالقدرية، أى نفاة القدر، ولزمهم أن العبد ما دام يستقل بخلق أفعاله فقد أصبح رباً يخلق ما أراد أن يخلق من الأفعال، وبطل بذلك التوحيد الذى هو أصل الدين وأساسه، ومن هنا سموا بمجوس هذه الأمة ؛ لتعدد الخالقين بحسب مذهبهم فى أن الإنسان خالق أفعاله بمقتضى قدرته وعلمه لا بمقتضى قدرة اللّه وعلمه.

الجبر وحقيقته

وعلى العكس من نفاة القدر كانت طائفة الجبرية من المعتزلة، وأول من ظهر منهم الجعد بن درهم، وكان قد تلقى مذهب الجبر من يهودى من يهود الشام، وتلقاه عنه الجهم بن صفوان رئيس الطائفة الجهمية نفاة الصفات المعطلين.

ومما تجدر الإشارة إليه أن مذهب القدر كمذهب الجبر كليهما من صنع اليهود، لإفساد عقيدة المسلمين ؛ إذ سبق أن ذكرنا أن أول من قال بنفى القدر غيلان الدمشقى الذى قتله هشام بن عبد الملك فلا يبعد أن يكون غيلان هذا قد تلقاه من يهود الشام أيضاً.

وحقيقة الجبر: أن الإنسان لا يخلق أفعاله، ولا ينبغى أن تنسب إليه إلا على سبيل المجاز ؛ فهى نسبة فعل لا نسبة إرادة واختيار؛ إذ هى أفعال اللّه تعالى، أجراها على يد العبد بدون إرادة من العبد ؛ ولا اختيار ؛ ولازم هذه العقيدة أن العبد غير مؤاخذ على أفعاله، وأنه لا يعاب منه فعل، ولا يلام عليه، ولو كان فى غاية القبح والفساد، ولذا كان هذا المذهب أفسد وأشد شراً من سابقه الذى هو مذهب القدرية والذى ينبغى الإشارة إليه هنا هو أن عقيدة الجبر بالرغم من كونها أكثر ضرراً وفساداً من عقيدة نفى القدر فقد ظلت ظاهرة فى المسلمين، سارية فيهم وبدون إرادة منهم لها، ولا رغبة فيها، ولعل السبب يعود فى ذلك إلى أن عقيدة الجبر هذه تلقى

التبعة عن العبد فيما يرتكب من المعاصى، وفيما يقارف من الذنوب، وتجعله معذوراً أمام نفسه، حتى قال بعض ضحايا هذا المعتقد الخطير :

أصبحتُ منفعلاً لما يختاره منى فَفِعْلى كلُّه طاعاتُ

وكم قعد هذا المعتقد الخاطئ الفاسد بكثير من المسلمين عن العمل الجاد النافع فضعفوا، وهانوا، وأصيبوا بكل قاصمة للظهر، حتى أصبحوا المثل فى العجز والكسل، والتخلف فى ميادين العمل والإنتاج. ووجَد ـ بسببهم ـ العدو الكافر مجالاً للطعن فى عقيدة الإسلام والاحتجاج على المسلمين فيما أصابهم. ونزل بهم بسلوك هؤلاء الذين قتلهم مذهب الجبر، وأفسد عليهم دينهم ودنياهم، فأصبحوا يرون أحياءهم أمواتاً ويبررون موتهم وقعودهم عن كل خير يكسبه غيرهم، ويسعد به فى حياته يبررونه بمثل قول شاعرهم:

جرى قَلَمُ القضاءِ بما يكون فسيَّان[1] الترحُّلُ والسكونُ

جنون بك أن تسعى لرزقك ويرزق فى غيابته[2] الجنين

فلننظر كيف تحول مذهب الجبر إلى مذهب معطل قاتل، لا يقود أهله إلا إلى خسران الدنيا والآخرة. أرأيت لو أخذ الناس كلهم بهذا المذهب ماذا كان يحدث للحياة ؟ كانت تنتهى وكفى !!

فسبحان الله ! ماذا يفعل التضليل بالناس ! وهذا شأن كل المذاهب الهدامة التى هبطت بالإنسان إلى منزلة الحيوان، وبالتأمل يظهر لنا أن جميع المذاهب الهدامة، المدمرة فى العالم كانت من صنع اليهود الحاقدين على البشرية، الناقمين عليها، ومن هنا فإنى لا أشك أن مذهب الجبر كمذهب القدر، كمذهب التشيع كأكثر طرق التصوف الكل طبخ فى مطابخ اليهود، وقدم طعاماً مسموماً للمسلمين ليموتوا به، ويهلكوا عليه. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والآن حان لنا أن نعرض عقيدة القدر والقضاء عرضاً أكثر وضوحاً وتحديداً من ذى قبل وتحت عنوان:

(1) سيان: بمعنى مُسْتَو.
(2) غيابته: ظلمة الرحِم.

لا جبر ولا نفى للقدر
الإنسان فاعل مختار
والله خالق الإنسان وخالق أفعاله

إنه قد صعب على غير الموفقين من الناس التوفيق بين كون الإنسان فاعلاً لأفعاله، مريداً لها، مختاراً فيها، مهيأ للثواب عليها إن كانت خيراً، وللعقاب عليها إن كانت شراً، وبين كون الله تعالى هو خالقه وخالق أفعاله خيرها وشرها، مع اعتقاد الله، وتنزيهه عن الظلم.

ومن هنا انقسموا فرقاً فقالت فرقة منهم: إن العبد هو خالق أفعاله بنفسه، وليس لله تعالى فيها دخل البتة، واعتذروا بكون أفعال الإنسان منها ما هو شر وقبيح يُنزه الله تعالى عنه، ولا تجوز نسبته إليه، فالتزموا بناء على هذا المذهب بمبدأ نفى القدر عن أفعال العباد، أى لم يعلمها الله تعالى أزلاً، ولم يقدرها، ولم تكتب فى الذكر (كتاب المقادير) ؛ ولزمهم فى معتقدهم هذا أن يكون للكون غير خالق واحد، وهو رد صريح لقول الله تعالى: ﴿**أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾ (الأعراف:54). وقوله: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (الصافات:96). وقوله: ﴿**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ (الأنعام:102).

فكانوا بهذا مجوساً لإثباتهم خالقين مع الله تعالى فى الكون، وقد روى أحمد وأبو داود بسند حسن أن النبى ﷺ قال: «**القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم**»(1).

وقالت فرقة أخرى بعكس ما قالت الأولى، فكانوا على النقيض معهم: إذ قالوا: ـ

إن العبد لا إرادة له فى أفعاله ولا اختيار، وليس هو بالفاعل على الحقيقة أبداً، وإنما الفاعل هو الله عز وجل. وما ورد فى القرآن من نسبة الفعل إلى العبد كقوله تعالى: ﴿**وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ**﴾ (البقرة:197). وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ (النحل:91). إلى غير ذلك من الآيات التى تسند الفعل إلى العبد خيراً كان أو شراً، إنما هى نسبة مجازية علاقتها السببية ولم تكن نسبة حقيقية أبداً. إن هى إلا أفعال الله تعالى أجراها على يد العبد، والعبد مجبور عليها، غير مريد لها. ولا اختيار له فى فعلها أو تركها. ولزمهم بذلك أن لا يكون فى فعل العبد حُسن ولا قبح، ولا خير ولا شر، وبالتالى فلا حساب عليها ولا عقاب. وبناء على مذهبهم هذا فإنه

(1) أبو داود (2/ 24، 25)، وأحمد (2/ 86، 125)، والفتح الربانى (1/ 140، 141)، وابن ماجه (مقدمة/ 10).

لم يبق من معنى لبعثة الرسل، وإنزال الكتب، ووضع الشرائع، ومن هنا كان هذا المذهب ـ الجبر والتعطيل ـ أسوأ، وأفسد، وأقبح من القدرية «نفاة القدر».

وقال فريق ثالث: إنه ما دام الله تبارك وتعالى قد نفى الظلم عن نفسه في قوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا** ﴾ (النساء:40).

وحرمه على نفسه وعلى عباده في قوله في حديث مسلم القدسي: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**»(1).

فكيف يجوز إذاً عقلاً أن يكتب على العبد أزلاً أعماله ليقوم بها حتماً، ثم يؤاخذه عليها ؟ بل ذهبوا إلى أكثر من هذا القول بشاعة وقبحاً فقالوا: ما دام الله تعالى قد علم مصير العبد، وقرره، حيث قدره بكتابته في كتاب المقادير العام (اللوح المحفوظ)، وأصبح العبد لا محالة صائراً إليه شاء أم أبى، أحب أم كره، فكيف يؤمر العبد إذاً وينهى، ويُطالب بفعل الطاعات، وترك المعاصي، والأمر قد بُت فيه، وفرغ منه، إنما يؤمر وينهى من لم يحدد له مصير، وتقرر له نهاية، فمثل هذا يؤمر وينهى ليتقرر مصيره بحسب استجابته لما أمر به ونُهي عنه، وعدمها.

(الإبليسية)

هذا ملخص هذا المذهب الثالث، وإنه ليبدو أن أصحابه مترددون بين إثبات القدر ونفيه، والقول بالجبر وعدمه، ولزمهم في مذهبهم هذا ما أصبحوا به شراً من إبليس ألا وهو الاعتراض على الله تعالى، ونسبة الظلم إليه وهو المنزه عن الظلم، البعيد عن كل نقص سبحانه لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وأخيراً ينبغي أن تسمى هذه الفرقة الحيرى المترددة (بالإبليسية) وإن كانت شراً من إبليس .

وهدى الله أهل الإيمان والتقوى إلى الحق الذي اختلفت فيه تلك الفرق فضلت عنه وجانبته، وعاشت بعيدة عنه، وهي ما بين مجوسية نافية لأقدار الله تعالى، مثبتة باطلاً خالقين متعددين في العالم، في حين أنه لا خالق إلا الله سبحانه وتعالى.

وبين جبرية معطلة للشرع، منكرة للعقل، وبين إبليسية معترضة على الله تعالى في قدره، نافية لمشيئته، وحكمته شاكة في عدله ورحمة قضائه.

هداهم ـ أهل الإيمان والتقوى ـ إلى الحق بإذنه فآمنوا بقضاء الله وقدره، وعدله ورحمته،

---

(1) مسلم (8/ 17).

وإرادته ومشيئته، وحكمته وحسن تدبيره، وقالوا لا يتم إيمان عبد حتى يؤمن بقدر الله تعالى.

ذلك القدر الذى هو سر نظام الحياة، وهو علم الله الأزلي، وتقديره لكل شيء، وكتابته فى اللوح المحفوظ، والمعبر عنه أحياناً بالإمام المبين كقوله تعالى: ﴿ **وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ** ﴾ (يس:12).

فلا يزيد شيء عما كتب ولا ينقص، الأحداث الصغار التى تجرى فى هذا الكون كالأحداث الكبار، والأعراض والصفات كالأجسام والذوات، كل شيء كان منذ كان الكون أو سيكون إلى انقراض الكون، قد جرى به العلم، ومضى فيه التقدير، وكتب فى الذكر حتى عجْز الخاملين ؛ وكيس النابهين. روى مسلم فى صحيحه عن النبى ﷺ قوله: «**كل شيء يقدر حتى العجز والكيس**»[1]، وأخرج الشيخان عن عليّ أن النبى ﷺ قال: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة**». قالوا: يا رسول الله: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له. أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة». ثم قرأ: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ** ﴾ (الليل:5-6) الآيات[2] كما روى البخارى أن النبى ﷺ قال لأبى هريرة: «**جف القلم بما أنت لاق فاختص على ذلك أو ذر**»[3].

آمن هؤلاء الموفقون بالقضاء والقدر، والعدل والإرادة، والمشيئة والحكمة، ولم يصعب عليهم كما صعب على غيرهم التوفيق بين كون فعل العبد قد قدره الله تعالى، وكتبه عليه، وسبق به علمه قبل التقدير والقضاء، وبين كون العبد فاعلاً لفعله مريداً له، مختاراً فى فعله وفى تركه، يحاسب به، ويجزى عليه. ولا بين كون العبد فاعلاً لفعله، وبين كون الله خالقاً للعبد وخالقاً لفعله. ولا بين كون الله يقضى للعبد ما شاء من قضاء، ثم يأمره وينهاه، ويجزيه حسب عمله الذى قُدر له، وكتبه له أو عليه، فقالوا: إن الله تعالى لما قدر ما للعبد وما عليه من خير أو شر، وسعادة أو شقاء قد قدره مربوطاً بأسبابه، فللخير أسبابه، وللشر أسبابه، كما قدر أن العبد يأتى تلك الأسباب، ويعمل بها بمحض إرادته التى قدرها له، وحرية اختياره الذى قضى له به، فلا يصل العبد إلى ما كتب عليه وقُدر له من سعادة أو شقاء إلا بواسطة تلك الأسباب التى يفعلها غير مكره عليها. ولا مجبور على فعلها، والحجة فى ذلك قول الرسول ﷺ: «**إن الله إذا**

(1) مسلم (8/ 51، 52).
(2) متفق عليه بمعناه، اللؤلؤ والمرجان (3/ 209)، والآيات من سورة الليل (5، 6).
(3) البخارى (7/ 5).

خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله ربه الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله ربه النار»(1). ودلالة هذا الحديث الصحيح ظاهرة فى أن اللّه تعالى إذا كتب على العبد أزلاً السعادة، أو الشقاء كتب له كذلك أنه يعمل بالأسباب التى تُسعد أو تُشقى لتتم السعادة أو الشقاء على أساس نظام الأسباب، كما أن الاستدلال بنظام الكون العام له وجه أيضاً ؛ إذ الإنسان جزء من الكون كله، والكون جميعه مربوط بسنن وقوانين تحكمه إلى نهاية أجله فلم لا يكون إذاً الإنسان كذلك مبدؤه، وسعيه، ومصيره مربوط كذلك بسنن تحكمه لا يمكنه الخروج عنها بحال من الأحوال، وتلك هى نظام القضاء والقدر ؛ إذ أنه لا فرق بين الإنسان والكون إلا أن الإنسان منظور فى سعيه إلى إحدى غايتين: السعادة أو الشقاء، فهو واصل بسعيه إلى إحداهما لا محالة، فلذا اختلف سعيه عن سعى غيره من سائر الخلق، ومن أجل هذا أعطى قدراً زائداً عن سائر الخلق وهو الإرادة والاختيار فى سعيه، فالكون من غير الإنسان يسعى مسعاه الذى قدر له لا يخرج عنه لأنه غير منظور فى سعيه إلى إحدى الغايتين وإنما إلى غاية واحدة لا تتخلف فلذا لم يعط إرادة ولا اختياراً، وكان بعكسه الإنسان الذى أعطى الإرادة والاختيار فتحمل بهما الأمانة بعد أن رفضها الكون كله وأباها قال تعالى: ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** ﴾ (الأحزاب:72).

زيادة إيضاح:

ولمزيد التوضيح لهذه الحقيقة نقول: إن الإنسان مخلوق للّه تعالى، مربوب له كسائر الخلق كالشمس، والقمر والنبات والحيوان يقوم بفعله كما تقوم سائر المخلوقات بما أناط بها ربها تعالى من أفعال تقوم بها، وإنما الفرق بين الإنسان وسائر الخلق أن الإنسان أعطى إرادة واختياراً لعلة التكليف والجزاء عليه بخلاف غيره(2)؛ فإنه لا جزاء له على عمله الذى يقوم به لعدم منحه إرادة حرة، واختياراً كاملاً بحيث يكون إن شاء فعل وإن شاء ترك، فيصل إلى إحدى غايتيه بما أراده من عمله، واختاره لنفسه بمحض إرادته واختياره، ومن هنا لو أن العبد أكره على عمله، وأجبر عليه لم يترتب عليه حساب ولا جزاء بثواب أو عقاب لعلة فقده الإرادة الحرة، والاختيار التام.

(1) أخرجه مالك فى الموطأ (3/ 92، 93)، وأبو داود فى سننه (2/ 529)، والترمذى فى تفسيره سورة الأعراف (2)، وأحمد (1/ 45).

(2) ومن هنا كان المجنون والصبى والنائم والمكره والناسى لا مؤاخذة عليهم فى أفعالهم، لعدم وجود الإرادة والاختيار عندهم.

بهذا تم لأولئك الموفقين التوفيق بين كون فعل العبد قد قضاه اللّه تعالى أزلاً على العبد فهو فاعله لا محالة، وبين كون العبد مريداً لفعله مختاراً له يُثاب على حسنه ويعاقب على سيئه.

ولبيان حقيقة كون العبد فاعلاً لفعله قائماً به، واللّه خالقه، وخالق فعله نقول: إن الكون كله مخلوق للّه تعالى، وليس ثَمَّ من خالق غيره سبحانه وتعالى: ﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ** ﴾ (غافر:62).

والإنسان من جملة أجزاء الكون المخلوق ؛ فهو إذاً مخلوق، واللّه خالقه وخالق الكون كله، وهل المخلوق يخلق ؟ اللهم، لا.

إن الأفلاك تدور والكواكب تسير، والشجر ينمو، والحيوان يعمل عمله فيأكل، ويشرب، ويتوالد، فهل يقال لهذه المخلوقات من الكون إنها خالقة لأفعالها ؟ أم اللّه هو الذى خلقها وخلق أفعالها ؟ وإذا كان الجواب واحداً وهو أن اللّه تعالى هو الذى خلقها وخلق أفعالها، فبأى منطق تخرج أفعال العباد من هذا الحكم العام ؟ والإنسان من جملة أجزاء الكون مربوط بنفس السنن التى تربط الكون ! أمن أجل كون الإنسان مريداً لأفعاله، مختاراً لها ؟ فإن ذلك مُنحَه دون سائر الخلق لعلة أن يثاب على فعله، أو يعاقب فقط، فليس ذلك بمخرجه عن كونه عَبداً للّه مربوباً له، اللّه خالقه، وخالق أفعاله بالقوة التى أودعها فيه، وأقدره على الفعل بها، كما خلق غيره وخلق أفعاله، وكما خلق سائر المخلوقات فى الأرض والسموات بسنن الخلق والتكوين التى أودعها الكون، وربطه بها، فسبحانه من إله خلاق عليم !!

بهذا قد تقررت هذه الحقيقة وثبتت ناصعة وهى أن الإنسان فاعل لأفعاله ليس خالقاً لها. واللّه جل جلاله خالق للإنسان، وخالق لأفعاله.

ونزيد الأمر توضيحاً، والحقيقة تقريراً فنقول: أليس الإنسان ينطق، ويسمع، ويبصر ويعقل، واللّه هو الذى جعله كذلك ؟.

أليس الإنســان يذهب ويجىء، ويأخذ ويعطى واللّه هو الذى أقدره على ذلك ؟ أليس الإنسان يحب ويكره، ويريد ويشاء ويختار، واللّه هو الذى هيأه لذلك ؟ إذاً فما دام اللّه تعالى هو الذى جعله وأقدره، وهيأه لكل أفعاله تلك فهو خالقه، وخالق أفعاله بلا جدل ولا نزاع. وكل ما فى الأمر أن الإنسان مريد لأفعاله الإرادية، مختار لها، واللّه هو الذى جعله كذلك لعلة الابتلاء والجزاء.

وهنا يقال للذى لا تنتهى وساوسه فى هذا الباب: يا عبد اللّه اخسأ، ولا تعدُ قدرك ! ولا تعترض على ربك، إنك تسأل ولا يُسأل، خلقك، ولم تخلقه، كنت به ولم يكن بك، وكان ولم تكن.

وقال أولئك الموفقون فى كون الله تعالى قدَّر للعبد أزلاً ما شاء من قدر، وقضى به عليه، ثم هو يأمره، وينهاه، ويجزيه بحسب استجابته لأمره ونهيه، وعدمها قالوا:

أولاً: إن الله تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، له الملك، وله الحمد، ولا يُسأل عما يفعل، وذلك لكمال علمه، وعدله، وحكمته، ورحمته.

وثانياً: أن فعل الله تعالى، وتقديره، وحكمه كله عدل وخير، فليس فى أفعال الله تعالى، ولا تقديراته، ولا أحكامه ظلم أو شر قط. قضى بهذا العقل، وصح به النقل، فهو سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ** ﴾ (النساء:40). ويقول: ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ (فصلت:46).

ورسوله ﷺ يقول وهو يقرر هذه الحقيقة التى قدمنا: «**والخير كله فى يديك، والشر ليس إليك**»[1].

إن الظلم والشر، وإرادتهما لم تكن إلا من صفات المحدثين، وسمات المخلوقين. أما ذو العرش المجيد الفعال لما يريد، الغنى عن العبيد فقد تنزه عن الظلم وفعل الشر. وكيف وهو الآمر بالعدل فى قوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ** ﴾ (النحل:90).

وهو الناهى عن الظلم، المحرم له فى قوله: «**يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرماً؛ فلا تظالموا**»[2]. والمرغب فى فعل الخير بقوله: ﴿ **وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ** ﴾ (البقرة:197). وقوله: ﴿ **وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (الحج:77).

وثالثاً: ما هو الظلم، وما هو الشر ؟ أليس فى مفهوم كل العقلاء هو وضع الشئ فى غير موضعه، وأن الشر هو كل فعل خلا من نفع، أو زاد ضرره عن نفعه ؟ بلى، وإذاً، فهل تعذيب عاص متمرد على ربه، فاسق باختياره وإرادته عن أمر مولاه، عازم على مواصلة الفسق، مصمم على المعصية ولو عاش دهر الدهارير، وآباد الآبدين، ولم يحدث نفسه بالتوبة، ولم يردْها، وهو قادر عليها بما وهبه الله من قدرة، وما منحه من إرادة.

فهل يا معشر العقلاء تعذيب هذا الإنسان يعد ظلماً وشراً ؟ اللهم، لا.

---

(1) رواه مسلم (2/ 185).
(2) رواه مسلم (8/ 17).

رابعاً: إنه بحكم ملكية الله تعالى لعباده بخلقه إياهم، ورزقه لهم، وتدبيره لأمورهم ؛ كان له الحق المطلق فى أن يتصرف فيهم بما شاء، فلو عذبهم أجمعين لما كان ظالماً لهم، ولو رحمهم أجمعين لكانت رحمته خيراً من عملهم. وبهذا صح الخبر، إذ روى أحمد وأبو داود وابن ماجه بسند لا بأس به عن زيد بن ثابت ﷺ عن النبى ﷺ قوله: «**لو أن الله عز وجل عذب أهل السموات والأرض عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً فى سبيل الله ما قبله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلت النار**»[1].

خامساً: إن الله تعالى لما قدر مقادير العباد من أعمار وأرزاق، وسعادة وشقاء قدر ذلك مع موجباته وأسبابه بحيث لا ينفك قدر مهما كان عن سببه ـ إلا أن يشاء الله ـ كما هى الحال بالنسبة إلى سائر أجزاء الكون ؛ إذ الكل مربوط بنظام السنن، محكوم بقوانينها من أكبر جرم إلى أصغره كخلية النواة.

ويشهد لهذه الحقيقة مثلُ قول الرسول ﷺ: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»[2]. والشاهد من هذا الحديث الصحيح إثبات نظام الأسباب ؛ فإنه لما كان لدخول الجنة أسباب ولدخول النار أسباب، فإن العبد مهما عمل من أعمال تخالف أسباب سعادته أو شقائه فإنه لابد فى النهاية أن يعمل مريداً بأسباب ما كتب له أو عليه فى كتاب المقادير ليوافق علم الله وتقديره، وهو فى نفس الوقت مريد مختار لم يُكره على فعل ما فعل، ولم يجبر على ترك ما ترك.

إن هذه الحقيقة المدهشة حَرِيَّة بالوقوف عندها، والتفكير فيها. إننى لا أشك فى أن عبداً يدرك كنه هذه الحقيقة إدراكاً صحيحاً سليماً، ثم لا يتصدع أمام عظمة الله تعالى، ولا يخر ساجداً بين يديه سبحانه وتعالى.

---

(1) أبو داود (2/ 527)، وابن ماجه (مقدمة / 10). وأحمد (5/ 182، 185، 189).
(2) متفق عليه، واللفظ لمسلم (8/ 44)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 207، 208)، والبخارى (4/ 135).

وبيان هذه الحقيقة: أن الله تبارك وتعالى قبل أن يخلق الكون بخمسين ألف سنة[1] علم أنه سيُخلق فى يوم كذا، وتاريخ كذا، فى مكان كذا عبد اسمه كذا، ووصفه كذا وكذا، وعلمه الذى سيختاره وبمحض إرادته واختياره هو كذا وكذا ليتحقق له به كذا وكذا من خير أو شر، من سعادة أو شقاء. وكتب ذلك كله فى كتاب عنده. وفى نفس الوقت المعين، والمكان المحدد يوجد ذلك العبد، ويربيه إلى غاية بلوغه أشده وهو صحيح، سليم الحواس، صحيح العقل، ثم تعرض له ـ العبد ـ أمور متعددة، وأحوال مختلفة فيختار منها ما يراه لنفسه وهو بعيد عن كل إكراه، أو إجبار. فيفعل الذى اختاره لنفسه بكامل حريته واختياره ؛ ثم يجد نفسه بالتالى قد وافق ما كتب الله له فى ذلك الكتاب الأزلى القديم، ولم يخالفه فى شىء، ولم يخطئه فى قليل أو كثير. فسبحان ذى العز والجبروت، سبحان ذى الملك والملكوت سبحان الحى الذى لا يموت.

* * *

(1) روى مسلم رحمه الله عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء**» (8/ 51).

إرادة الله تعالى ومشيئته

إن مما له صلة وثيقة بموضوع القضاء والقدر مسألة الإرادة والمشيئة

فلنسمع كلمة فى هذا الموضوع تبين لنا وجه الحق فيه، وتهدينا للتى هى أقوم وأحسن فى هذه المسألة الخطيرة من مسائل عقيدة المؤمن.

والكلمة فى هذا الموضوع تدور حول شيئين:

الأول: إثبات إرادة الله تعالى ومشيئته بالبرهانين النقلى والعقلى.

الثانى: هو أن إساءة فهم كثير من الناس لإرادة الله تعالى هو الذى أوقعهم فى ضلال مبين، وخطإ وشر عظيمين.

أما إثبات إرادة الله تعالى ومشيئته فإنه يكفى فى ذلك سرد الأدلة السمعية وهى أخباره تعالى، وأخبار رسولهﷺ . ومنها قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾ (البقرة: 185). وقوله: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ (النحل:40).

هذا فى إرادته تعالى، وأما مشيئته فيقول تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ**﴾ (الأنعام:112). وقوله: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ (التكوير: 29).

ويقول ﷺ فى إثبات إرادة الله تعالى: «**من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين**»[1].

ويقول فى إثبات إرادة مشيئته تعالى: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شىء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان**»[2]

إن فيما ذكرنا من أخباره تعالى، وأقوال رسوله ﷺوهو قليل من كثير لدليلاً كافياً فى إثبات إرادة الله تعالى ومشيئته سبحانه وتعالى، ولنشفع هذا الدليل السمعى بالدليل العقلى فنقول: إن الله تعالى بكونه خالق كل شىء، وربه، ومليكه مستلزم لإرادته تعالى ومشيئته ؛ إذ لو لم يكن مريداً لكان مكرهاً، ولو كان مكرهاً لما تأتى له إيجاد العوالم، والتصرف فيها، والتدبير لها بمقتضى المصلحة والحكمة، كما أن كون الإنسان مريداً شائياً نقض لإرادة الله تعالى ومشيئته،

---

(1) رواه البخارى (4/ 103، 9/ 125)، ومسلم (3/ 95، 6/ 53،54)، واللؤلؤ والمرجان (1/ 218، 219).

(2) رواه مسلم (8/ 56)، وقوله فى آخر الحديث: «**ولكن قل: قدر الله**» روى بلفظ: قدر، بالدال المهملة المفتوحة بدون شدة، وروى بتشديد الدال.

إذ من غير المعقول أن يكون المخلوق مريداً شائياً، ويكون خالقه لا إرادة له ولا مشيئة، بل إن العقل يقضي بإثبات إرادة للخالق ومشيئة أعظم من إرادة الإنسان ومشيئته المخلوقتين منه. فلذا ما أراد المخلوق شيئاً ولا شاءه إلا وقد أراده الخالق وشاءه ذلك وإلا لزم أن يكون المخلوق أقوى من الخالق، مستقلاً بالأمر عنه وهو محال عقلاً وشرعاً قال تعالى: ﴿ **أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ** ﴾ (النحل:17). وقال تعالى: ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (التكوير:29).

هذا في إثبات إرادة الله تعالى ومشيئته. وأما عن إساءة فهم كثير من الناس لهما، وما ترتب على ذلك من ضلال، وشر، وفساد، فإننا نقول:

إنه من غير المجازفة في الكلام إن قلنا: إنه ليس هنا في المؤمنين من ينفي إرادة الله تعالى ومشيئته، وإنما هناك سوء فهم لهما ترتب عليه ضلال لا يقل خطورة عن ضلال أهل الجبر، ونفاة القدر.

وهذه المسألة أيضاً الناس فيها طرفان ووسط، فهي نظير مسألة القضاء والقدر، وقد تقدم بيانها بما فيه كفاية لمن أخذ اللهُ بيده فحماه من زيغ القلوب !

فالوسط نجا هنا كما نجا هناك، والطرفان ضلاَّ هنا كما ضلاَّ هناك، والله المستعان.

وهذا بيان ضلال القوم: إن الطرفين منهما مفرِّط، ومنهما مفرط، فالطرف المفرط هو من زعم أن لا إرادة يخضع لها، ولا مشيئة إلا إرادته هو ومشيئته، فجميع أفعاله في زعمه لا تخضع إلا لإرادته وحده، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يستثنى من ذلك إلا ما أكره على قوله، أو فعله بقوة سلطان قاهر له، ألجأه بالقوة المادية إلى قول ما لا يريد، أو فعله، وما عدا ذلك من تصرفاته فهو لا يخضع فيها إلا لإرادته ومشيئته فقط. وهذا الضلال في هذه المسألة هو ضلال الملاحدة الذين لا يؤمنون بوجود الله تبارك وتعالى، ولا بسلطانه على خلقه، وحكمه فيهم.

بيد أنه شاركهم فيه طائفتان من المؤمنين ! إحداهما تقول: إن الله تعالى منزه عن أن يريد ضلال ضال، أو كفر كافر، أو يشاء فعل الفواحش، أو ارتكاب القبائح. فنفوا بهذا إرادة الله تعالى، ومشيئته في أكثر حوادث العالم الجارية فيه، ولازم هذا المعتقد أن الله تعالى قد يقع في ملكه ما لا يريد، وأن هناك مشاركاً في خلق الحوادث، وإيجادها بإرادة مستقلة عن إرادة الله تعالى. وهذا قطعاً ضلال وشرك، يتبرأ منهما، ويستعاذ من مثلهما.

وقالت الأخرى وهي ممن لا رأي لهم في هذا الموضوع ولا علم، وإنما هي مجموعة جهلة المسلمين ومقلدتهم، وأكثرهم من مثقفة المستغربين، قالوا:

إنه لا دخل لمشيئة الله تعالى في أفعالنا، وإنما مرد أفعالنا إلى إرادتنا الخاصة، ومشيئتنا، فما

شئنا فعله فعلناه، وما لم نشأ فعله لم نفعله، ولهذا تراهم ينكرون بشدة على من يقول سأفعل كذا غداً إن شاء اللّه تعالى، ويردون عليه فى غضب وزمجرة: لا تقل إن شاء اللّه قل سأفعل فقط. لا تقل لنا إن شاء اللّه، هذه الكلمة خلها جانباً، وقل سأفعل كذا وكفى !!!

ومن مظاهر ضلالهم هذا أن أحدهم يتكلم بأخبار مستقبلة خالصة للاستقبال، ولا يقيد خبراً واحداً منها بمشيئة اللّه تعالى، فيخبر أنه سيسافر، أو يبيع، أو يشترى، أو يبنى، أو يهدم، أو يأخذ، أو يعطى، ولا يقيد من ذلك بمشيئة اللّه تعالى شيئاً أبداً، بل يطلق أقواله إطلاق من لا يؤمن بغير إرادته ومشيئته. ولا أدل على ذلك من أن مذيعى النشرات الجوية فى أغلب الإذاعات، والتلفازات الإسلامية من عربية وعجمية يطلقون أقوالهم جازمين بوقوع مدلولاتها كأن الأمر لهم وحدهم، وليس لهم فيه مشارك. فيقول أحدهم ستهب الرياح غداً شرقية، أو غربية، وستنزل أمطار غزيرة أو ضعيفة فى منطقة كذا، وستتراكم السحب على كذا، أو تنزل ضخات مطر خفيفة على كذا إلى آخر ما يتنبؤون به ويقولون فى نشراتهم الجوية اليومية، ولم يقيدوا منها بمشيئة اللّه تعالى ولا إرادته ولا إذنه شيئاً، فدل ذلك على عدم إيمانهم بمشيئة اللّه تعالى، ولا إرادته، ولا أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن كان بينهم يؤمن بإرادة اللّه ومشيئته فإنه يترك الاستثناء بمشيئة اللّه تعالى خوفاً من الملاحدة حوله، أو مجاملة لهم فيصبح قريناً لهم فى الشرك والضلال، هذه حال الطرف المفرِّط.

وأما الطرف المفرِط وهو لا يقل ضلالاً وباطلاً عن مقابله، فإنه يهدر ما منح اللّه تعالى عباده من إرادة، وما وهبهم من مشيئة تليق بآدميتهم، وتتفق مع ما هيأهم اللّه له من التكاليف التى يتقرر بها مصير العبد فى الحياتين. كما سبق بيانه عند الكلام على القضاء والقدر. فقالوا: إنه لا إرادة للعبد ولا مشيئة البتة وإنما الإرادة والمشيئة للّه تعالى وحده، وأنكروا أن يكون للعبد إرادة أو مشيئة، فساقهم هذا المعتقد الفاسد إلى ضلال لا حد له، ولا حصر، حتى أصبحوا به معطلة أسوأ حالاً من الملاحدة الذين لا يؤمنون باللّه تعالى، ولا بشرعه، ولا بلقائه.

وانعكست عندهم الأمور، واختلطت الأشياء فأصبح القبيح عندهم حسناً والحسن قبيحاً، والكفر كالإيمان، والفسق والفجور كالطاعة والبرور ! فكل عامل عندهم هو مطيع للّه سواء عمل بطاعته، أو عمل بمعصيته ؛ فالعامل بالمعصية مبرأ من تبعة عمله، وجريرة فعله فلا ذنب ولا وزر، وبالتالى فلا عذاب ولا عقاب، وذلك لأن كل عامل فى نظرهم هو يعمل بإرادة اللّه تعالى ومشيئته لا بإرادة نفسه ومشيئته، إذ العبد عندهم لا إرادة له ولا مشيئة !

ولنستمع لأحدهم وهو يترجم هذا المذهب الفاسد القبيح فى بيت واحد من الشعر فيقول:

أصبحت منفعلاً لما يختاره منى ففعلى كله طاعات

ومبنى هذا المذهب الباطل -الذى أهدر ما وهب الله تعالى عبده من إرادة ومشيئة، وأهدر بالتالى كل القيم والشرائع- مبناه على قاعدة تقول: العبد مطيع للإرادة موافق للمراد، يريدون إرادة الله تعالى ومراده. وعليه فلم يبق ذنب ولا مذنب على وجه الأرض ؛ إذ الناحر للإنسان مطيع للديان، والصائم الظمآن موافق لمراد الرحمن، فهما إذاً فى هذا المذهب سيان.

ودون هذه الطائفة طائفة أخرى أخذت كذلك مبدأ ألا إرادة للإنسان، ولا مشيئة، ولكن ما قالوا هذا عن علم لهم، وفهم لديهم، وإنما قالوه اتباعاً للهوى، وجرياً وراء الشهوات.

إذ أن أحدهم يأتى ما يأتى من الباطل، ويرتكب ما يرتكب من المنكر والذنوب وإن قيل له فى ذلك قال: هذه إرادة الله حكمت بهذا، ومشيئته اقتضته، ولو شاء الله ما فعلت، وإنما أنا عبد لا أخرج عن إرادة الله ومشيئته، وهذه حال كثير من المسلمين اليوم، وقبل اليوم، منذ أن فشا الفساد فى عقائد الأمة، وانتشر الزيغ فى صفوفها نتيجة عمل يد الهدم والتخريب التى ما برحت تطعن فى جسم أمة الإسلام حنقاً عليها، وحسداً لها.

ولو كان هذا القول منهم نابعاً من اعتقاد صحيح، وهو أنهم خاضعون لمشيئة الله تعالى وأقداره فيهم لكان حسناً منهم، وصح لهم ولكنه لا صلة لله بقلوبهم البتة، وإنما هو مجرد قول يلوكونه بألسنتهم لدفع المذمة عنهم، والملامة عليهم، فكان شأنهم شأن المشركين الذين حكى القرآن قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام:148).

فإنهم لما دُعوا إلى عبادة الله وحده، وإلى ترك التحريم لما أحل الله تعالى من بحائر الإبل وسوائبها[1] احتجوا مبررين شركهم وافتراءهم على الله بمشيئة الله تعالى، وأنه لو شاء الله عدم شركهم ما أشركوا ؛ ولو شاء عدم تحريمهم لما حرموا ما حرموه، ولم يكن هذا منهم إلا دفاعاً عن باطلهم وضلالهم ؛ ولم يكن أبداً عن اعتقاد صحيح بأنهم خاضعون حقيقة لأقدار الله تعالى، عاملين بمراده، طالبين لرضاه، نازلين عن مشيئتهم لمشيئته؛ إذ لو كان هذا هو المراد من قولهم لكانوا به مؤمنين صادقين، وكان من السهل إقناعهم بترك الشرك بالله، والافتراء

(1) البحائر جمع بحيرة: وهى الناقة تنتج وتلد خمسة أبطن أو سبعة فتشق أذنها ويخلى سبيلها فلا يركب ظهرها، ولا يجز وبرها، ولا يشرب لبنها، ولا يؤكل لحمها، والسوائب جمع سائبة: وهى الناقة التى يحرمها صاحبها ويتركها تقرباً للآلهة وأحكامها كأحكام البحيرة عندهم!!!

عليه ؛ لأن اللّه تعالى حرم ذلك، ونهى عنه، ولو كان مراداً له محبوباً لديه لما نهى عنه، وحرمه فى كتابه، وعلى لسان رسوله محمد ﷺ.

وهنا يحسن التذكير بقاعدة جليلة، وحكمة ثمينة وضعها الهداة المهتدون من فرقة الوسط الناجون وهى: أنه لا يحتج بإرادة اللّه وقدره على المعائب ؛ ولكن يحتج بهما على المصائب، فالمعائب وهى الذنوب والمعاصى ما دام اللّه تعالى قد حرمها على عباده، وكرهها لهم ومنهم وأنزل بذلك كتبه، وبعث رسله، فإن العبد إذا غشيها مريداً لها ؛ وتلبس بها مختاراً غير مكره عليها،لا يصح عقلاً أن يحتج بالقدر الذى هو علم اللّه، وتقديره لأحداث الكون خيرها وشرها وكتابته لها فى كتاب المقادير (اللوح المحفوظ) بخلاف المصائب التى تصيب المرء ولم يكن قد تسبب فيها بترك طاعة ؛ أو مخالفة سنة من سنن اللّه تعالى الشرعية أو الكونية ؛ فإنه إن قيل له فى ذلك صح منه الاحتجاج بالقدر بل بالإرادة الكونية ؛ إذ لم يكن بإرادة منه ولا اختيار، كالرجل يسقط عليه جدار، أو تلسعه حية، أو تنقلب به سيارة ولم يكن قد علم بتصدع الجدار وجلس تحته، ولا بوجود الحية ونام عليها، ولا تجاوز حد السرعة المعتادة لسيره.

أما إن تسبب فى هذا فلا حق له فى الاحتجاج بالقدر، بل عليه أن يتحمل نتائج معصيته، ومعاقبة ربه تعالى له لمخالفته سننه، وإهماله الأسباب المشرعة لسلامته.

وبالمناسبة يُذكر هنا احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، قال موسى عليه السلام لآدم لائماً له: «**أنت أبونا خيَّبتنا وأخرجتنا من الجنة**»، فرد عليه آدم عليه السلام محتجاً على المصيبة التى شكاها موسى، وهى الخروج من الجنة قائلاً: «**أتلومنى على أمر قدره اللّه علىَّ قبل أن يخلقنى بأربعين سنة، فحج آدم موسى**» وغلبه فى الحجة؛ لأن المصائب يحتج فيها بالقدر، بخلاف المعائب؛ لأن المصيبة لم يُردْها الإنسان، ولم يأتها مختاراً لها مؤثراً إياها، وإنما تقع عليه بدون علم منه، ولا إرادة ولا اختَيار، فيحسن الاحتجاج عليها بالقدر تخفيفاً من آلامها؛ وثقل وطأتها على النفس المصابة.

أما المعائب أى الذنوب فإن العبد يأتيها مريداً لها، وهو يعلم أن اللّه تعالى، قد حرَّمها وكرهها، فإذا فعلها لم يصح منه عقلاً ولا شرعاً أن يحتج عليها بإرادة اللّه تعالى، وقدره بحال من الأحوال.

وقد يكون من اللائق هنا رواية حديث احتجاج آدم وموسى عليهما السلام لسماع نصه كاملاً كما رواه الشيخان ؛ إذ جاء فيه عن أبى هريرة رضي الله عنه قوله: قال رسول اللّه ﷺ: (**احتج آدم وموسى، فقال موسى: «يا آدم أنت أبونا خيبتنا، وأخرجتنا من الجنة ! فقال آدم: أنت موسى،**

اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك التوراة بيده، أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟» فقال النبي ﷺ : «**فحج آدم موسى**»(1)، وقد روى هذا الحديث بألفاظ أخرى نكتفي بهذا اللفظ منها. والله المستعان.

سوء فهم كثير من الناس لإرادة الله تعالى أوقعهم في الحيرة والخطأ

لقد ثبت بالتجربة والملاحظة أن خللاً بسيطاً يقع في جهاز ضخم كطائرة (الكونكورد) الفرنسية البريطانية، أو كبناية كبرى كناطحات السحاب الأمريكية قد يفسده ويدمره فيحيله إلى خراب ودمار. وكذلك الحال بالنسبة إلى عقيدة القضاء والقدر، والإرادة والمشيئة إذا وقع فيها أدنى انحراف، وبأي وجه، أو صورة أوقع صاحبه في ضلال وخطأ لا حد لهما.

إن أكثر الذين تبلبلت أفكارهم، واضطربت نفوسهم في عقيدة الإرادة والمشيئة من المسلمين كانوا ممن غفلوا عن كون القدر هو نظام الحياة الذى يحكمها من نواتها إلى نهايتها، وأنه يجب أن يمضي كما علم وكتب، وأن تغيير شيء منه معناه خراب الحياة بكاملها.

ولذا تحتم على العبد التسليم به، وله، وحرم عليه إنكاره، والاعتراض عليه، كما لا يجوز بحال الاحتجاج به، أو الاتكال عليه، هذا هو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال ؟؟

أو كانوا ممن جهلوا أن إرادة الله تعالى ـ ومشيئته منها ـ تنقسم إلى:

إرادة كونية قدرية، وهي تلك التي لا يناط بها تكليف الإنسان، ولا إثابته ولا معاقبته، وهي الإرادة التي كان بها القدر ونظامه. والتي لا حق للإنسان أن ينظر إليها بغير عين الرضا والتسليم، وإلا أصبح محارباً لله، معارضاً لنظامه، يدعي السمو إليه، والتعالي عليه، وهو مخلوقه الذى لا غنى به عنه(2) حتى في أنفاسه التي يرددها، والهواء الذى يتنفس فيه، والضوء الذى يبصر به، والظلام الذى يهجع فيه.

وإلى إرادة شرعية دينية وهي التي أناط الله تعالى بها تكليف الإنسان، وثوابه أو عذابه، وهي التي يجب على العبد أن ينزل عليها، ويطيع ربه فيها، كما يحرم عليه التمرد عليها، والخروج عنها، وهي التي قد نزلت ببيانها وتفاصيلها كتب الله تعالى، وبعثت للدعوة إليها، وتعليمها رسل الله عليهم السلام. وهي جميع ما شرع الله تعالى لعباده من عقائد وعبادات،

---

(1) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (3/ 211)، والبخاري (8/ 157)، ومسلم (8/ 49-51).
(2) الضمير في مخلوقه كالضمير في عنه كلاهما يعود إلى الله عز وجل.

وأحكام، وحدود، وآداب، ومحاسن، وأخلاق، وهى التى من أجلها منح اللّه تعالى العبد ما منحه من قدرة، وإرادة، ومشيئة، واختيار، ليبتليه مختبراً له أيستجيب لما أراده ربه منه، وشاءه له من عبادته وطاعته ؟ أم يرفض الاستجابة، فلا طاعة ولا عبادة؟!!

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان:2،3).

وهى الإرادة التى قد يتخلف فيها مراد اللّه تعالى ومحبوبه، فيأمر بها عباده، وينهاهم، ومنهم من يمتثل، ومنهم من لا يمتثل. فقد أمر تعالى عباده بالإيمان به، وبرسله، وبطاعته، وطاعة رسله، وأحب لهم الطاعة، وكره لهم الكفر، والفسوق، والعصيان[1].

وبما منحهم من القدرة، والإرادة، والمشيئة أمكنهم من أن يمتثلوا أو يرفضوا بمحض إرادتهم وكامل اختيارهم، ليرتب على ذلك جزاءهم بإثابة المحسنين وعقوبة المسيئين.

هذه هى الإرادة الدينية الشرعية كما ينبغى أن تعلم.

وأما الإرادة الكونية القدرية والتى سبق بيانها: فإن اللّه تعالى لم يجعل للعبد قدرة على الخروج عنها، والتمرد عليها بحال من الأحوال ؛ لأنها لا تتعلق بأفعال العباد الإرادية الاختيارية التى هى التكليف والجزاء إلا من حيث إنه تعالى شاءها أن تكون أزلاً كذلك، فكانت طرداً لعموم إرادته حتى لا يخرج الكون عنها.

وزيادة فى الإيضاح للإرادة الكونية والتى لا سبيل للإنسان إلى الخروج عنها نقول: فهل يمكن للإنسان أن يرفض أن يكون ذكراً إذا كان أنثى ؛ أو العكس ؛ أو يرفض أن يكون أسود إذا كان هو أبيض، أو يرفض أن يكون قصيراً إذا كان هو طويلاً، أو يرفض أن يولد فى بلد كذا أو تاريخ كذا إذا كان هو فى بلد وزمان غير ما كان فيه ؟؟؟ والجواب فى كل هذا، لا، ولم ؟ والجواب: هو أن إرادة اللّه تعالى الكونية لا يعصى فيها، ولا تتخلف بحال من الأحوال، لأنها مناط نظام الكون، وآية الربوبية، وموجب الألوهية للّه سبحانه وتعالى، وبخلافها الإرادة الشرعية التكليفية المتعلقة بأفعال العباد الإرادية الاختيارية، فإن اللّه تعالى أقدر العبد على امتثالها، ورفضها ليبتليه ثم يجزيه.

(1) قال الله عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (الحجرات:7).

وأخيراً إنه لا يسع العبد أمام هذه العظمة الإلهية إلا أن يسجد لله هيبة وإجلالاً. وأن يذكره ويشكره اعترافاً وتقديراً، وبذلك تتم كرامته، وتكتمل إنسانيته ويستقيم فى حياته استجابة لما أراد الله تعالى منه كوناً وتقديراً، وشرعاً وديناً.

الهداية والإضلال

ومثل الخطأ فى فهم الإرادة والمشيئة، الخطأ في فهم الهداية والإضلال، فقد أساء كثيرون فهم مثل قول الله تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (إبراهيم:4). وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام:108). وقوله: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ (فاطر:8).

فقالوا: كيف يضل الله العبد ثم يعذبه ؟ وكيف يزين له سوء عمله ثم يعاقبه عليه ؟ وقالوا: أين العدل والرحمة فى ذلك ؟ فنصبوا أنفسهم بجهلهم خصوماً لربهم، فهلكوا بجهلهم، وشقوا بسوء فهمهم. ولو وفقوا لسلموا لله تعالى فى حكمه. ولم يعترضوا عليه فى تدبيره لأمر خلقه ؛ إذ له الخلق وله الأمر، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا يُسأل عما يفعل، وهو العزيز الحكيم، ولكن القوم لما لم يوفقوا سلكوا مسلك إبليس فى الاعتراض على الله عز وجل فأصابهم بذلك إبلاس وخذلان. ولو وفقوا ـ وقد عرفوا أن الله تعالى يهدى من يشاء، ويضل من يشاء- للجأوا إليه تعالى راغبين خائفين، يسألونه الهداية، ويستعيذونه من الضلال ؛ إذ هو مالك الملك، القادر على كل شيء. لو وفقوا لأتوا بابه سائلين، وللاذوا بجنابه محتمين، حيث لاح طريق الهدى ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ (الكهف:17).

ولكن ما وفقوا فاتبعوا خطوات الشيطان، فباءوا بالحرمان، والذى قادهم لهذا الخسران والهوان جهلهم بربوبية الله تعالى، وسوء ظنهم فى الرحمن. فجهلهم بالربوبية التى من مقتضياتها التربية والإصلاح، ومن مستلزماتها الهداية والإضلال هو الذى جعلهم يسألون كيف ؟؟ وليس من حقهم أن يسألوا، وسوء ظنهم بربهم فى تقديره، وحسن تدبيره جعلهم يعترضون على حكمه، ويستخفون حكمته، فهلكوا بجهلهم، وسوء ظنهم بربهم.

فما أسوأ حالهم ؟! وما أخسر مآلهم ؟!

والحقيقة التى قد خفيت عليهم فضلوا هى أنهم لم يعلموا أن الله تعالى إنما يضل من يضل بعد أن يُعذَر إليه بتبيين سبل الهدى واضحة، ويمنحه القدرة الكافية على السير فيها، فإذا آثر

العبد - بعد العلم - الضلال على الهدى، ولاه اللّه ما تولى، فكان ذلك عدلاً منه تعالى، لا ظلم معه. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ (التوبة:115).

إنهم لم يعلموا أن الهداية كالإضلال كل منهما يتم حسب سنن اللّه تعالى فى خلقه، والسنة فى الإضلال كالسنة فى الهداية وهى الإيثار، والرغبة، والطلب، والعمل.

فمن آثر الهداية ورغب فيها، وطلبها وعمل بأسبابها تمت له. ووجد من الله تعالى عوناً له على تحصيلها وتحقيقها، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده، وفضله عليهم. ومن آثر الضلالة، ورغب فيها وطلبها، وعمل بأسبابها تمت له، ولم يجد من اللّه تعالى صارفاً عنها وهذا من عدل اللّه تعالى فى عباده، وحسن تدبيره فيهم.

وجهلوا سنة اللّه تعالى فى تزيين الأعمال لأصحابها، فأنكروا على اللّه تعالى ذلك، وقالوا: كيف يزين الباطل الشر لعبد حتى إذا فعله عاقبه عليه ؟؟

وما علموا أن هذا التزيين إنما حسب سنة إلهية لا تتخلف، وهى أن المرء إذا آثر العمل باختياره، وأحبه من نفسه، ولازمه غير منفك عنه زمناً طويلاً أصبح ذلك العمل زيناً له، حسناً عنده، وإن كان شيئاً قبيحاً عند غيره. والعمل الفاسد كالعمل الصالح فى هذه السنة كلاهما يُزين لفاعله بهذه الطريقة.

غير أنه من رحمة اللّه تعالى بعباده، وعظيم إحسانه إليهم أن حذرهم فى كتبه، وعلى ألسنة رسله عليهم السلام، حذرهم من استدامة العمل الفاسد، والإصرار عليه، ودعاهم إلى تركه، والتوبة منه، قبل أن يبلغ من نفوسهم حد التزين، ويصل إلى مستواه، فيزين لهم حسب سنة اللّه تعالى، ويومها يتعذر عليهم تركه، والإقلاع عنه.

وفى هذا يقول تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ (فاطر:8). ويقول: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ (الأنعام:108).

فمن استجاب لتحذير اللّه تعالى، وترك فاسد الأعمال، وسيئها نجا، ومن تجاهل التحذير، وواصل فى سبيل الغى السّير هلك، ومن نجا فقد نجا برحمة اللّه وفضله، حيث هيأ له أسباب النجاة، وأعانه على الأخذ بها، ومن هلك فقد هلك بعدل اللّه تعالى حيث نهاه عن الغى، فآثره على الرشد، ودعاه إلى التوبة، فرفضها، وأصر على خلافها حتى وصل فى عمله حد التزيين فزين له فرآه حسناً، وبذلك فقد الاستعداد لقبول دعوة الخير والهدى، ومضت فيه سنة اللّه فى التزيين، فهلك مع الهالكين، ولا عدوان إلا على الظالمين: ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (النحل: 33).

الجزاء من ثواب وعقاب
قائم على أساس الرحمة والعدل

ومن غفلة بعض المؤمنين عن كيفية إجراء الثواب والعقاب على العباد فى الدنيا والآخرة تورطوا فى جدل وخصومات لا معنى لها، ولا داعى إليها فى مسألة العدل والظلم.

حتى ضل منهم خلق كثير. وفتنتهم جاءت من غفلتهم عن نظام السنن الذى هو نظام القدر ،ونابع منْه، وداخل فيه، وليس خارجاً عنه، ولا متنافياً معه.

وهذا بيان ذلك: إن اللّه تعالى جعل للأعمال الإرادية الاختيارية التى يقوم بها الإنسان أثراً فى نفسه، وبحسب ذلك الأثر يكون الجزاء من ثواب وعقاب.

ومن هنا كان العمل اللاإرادى كعمل الناسى، والمخطىء، والمكره، والمجنون لا تأثير له على النفس، أعنى أن النفس البشرية لا تتأثر بذلك العمل حسب سنة اللّه تعالى فى ذلك. وعليه فلا ثواب ولا عقاب.

أما ما كان من العمل إرادياً اختيارياً ؛ فإنه لا محالة من تأثر النفس به، فإن كان العمل صالحاً أى من الأعمال التى شرعها اللّه تعالى لعباده لتزكية أرواحهم وتطهيرها، لتتأهل بذلك لمجاورته سبحانه وتعالى فى الملكوت الأعلى كان التأثر والانطباع وصفاً حسناً للنفس، ويسمى ذلك الانطباع حسنة، وقد يطلق لفظ الحسنة على نفس العمل المسبب لذلك على سبيل المجاز الذى علاقته السببية.

وإن كان العمل سيئاً أى مما جعله اللّه تعالى حسب سنته مؤثراً فى النفس بالظلمة والتدسية ليكون مؤهلاً للإنسان لمجاورة الشياطين فى جهنم من عالم الشقاء كان الانطباع أو الأثر وصفاً سيئاً للنفس، ويسمى ذلك الانطباع سيئة، وجمعها سيئات. كما قد يطلق لفظ السيئة على العمل المكسب لها إطلاقاً مجازياً علاقته السببية أيضاً، وقد جاء فى هذا عدة آيات قرآنية منها قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (الشمس:9، 10). وقوله: ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ (الانفطار: 13، 14).

فالوصف مشعر بعلة الحكم، فالبرور والفجور هما سبب دخول النعيم والجحيم، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ (البروج: 11).

وقوله: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ (الزخرف: 74 ـ 76).

فالإيمان والعمل الصالح سبب فى تطهير النفس، والإجرام بالشرك والمعاصى سبب فى تدنيسها، وبحسب ذلك الأثر الطيب أو الخبيث يكون الجزاء بالثواب والعقاب. ومصداق هذا وارد فى كتاب الله تعالى فى قوله تعالى: ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام: 139).

إنه وإن كان للآية الكريمة معنى غير الذى أوردنا وهو أنه تعالى سيجزى المشركين بوصفهم الكذب بما حرَّموا من الأنعام والحرث افتراء على الله تعالى فإن المعنى الذى أردناه قائم بالآية أيضاً، وهو أن الجزاء على الأعمال الصالحة، والسيئة يكون بحسب الوصف المكتسب منها للنفس البشرية التى اقتضت سنة الله تعالى انطباعها بأفعال العبد الإرادية الاختيارية. مما جعله الله تبارك وتعالى مؤثراً فى النفس، وذلك من كل ما شرع من الأعمال الصالحة، وما حرم ومنع من الأعمال الضارة الفاسدة مما يقوم به، ويعمله قلب الإنسان، وجوارحه على حد سواء.

وبناء على هذا فإن الجزاء جار على أساس من الرحمة الإلهية والعدل: فالعبد يكسب عمله بمحض إرادته واختياره، فإن كان الكسب مما يحب الله تعالى حيث شرعه لعباده، وأمرهم به، ورغبهم فيه، وأعانهم عليه، بعد ما وفقهم للقيام به ثم أثابهم عليه الحسنة بعشر أمثالها، فكان جزاء تغلب عليه الرحمة والإحسان، وإن كان الكسب مما كره الله تعالى لعباده، ونهاهم عنه، وحظره عليهم تخلى الله تعالى عن فاعله خذلاناً له ؛ لأنه آثر معصيته على طاعته، وسخطه على رضاه، ثم هو إن لم يغفره له بموجب من موجبات المغفرة كالتوبة، أو العفو الإلهى، وعاقبه عليه كان العقاب بمحض العدل، السيئة بمثلها فلا حَيف ولا ظلم.

وهكذا فقد تقرر ما توخيناه من إثبات هذه الحقيقة وتقريرها، وهى أن الجزاء والثواب والعقاب على كسب المرء قائم على أساس الرحمة والعدل الإلهيين، خال من كل معنى للإساءة أو الظلم. وصدق الله العظيم ؛ إذ يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: 40).

* * *

الحسنة والسيئة من الله تعالى
أو من النفس

بين يدى الحديث عن الحسنة والسيئة، وهل هما من عند اللّه تعالى ؟ أو الحسنة من اللّه، والسيئة من النفس، نظراً إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (النساء: 78).

مع قوله عز وجل من نفس السورة، وذات السياق: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (النساء: 79).

أقول بين يدى تحقيق هذه المسألة، والتى هى جزء هام من مسائل عقيدة المؤمن، وذات صلة وثيقة بموضوع القضاء والقدر، والجبر والاختيار، والإرادة والمشيئة، والجزاء بالرحمة، والعدل، وهما ما سبق لنا القول فيه بالتفصيل، وبالقدر الذى فتح اللّه علينا به، ورأينا أنه كاف والحمد للّه فى تحقيق المعتقد الذى يُرضى اللّه تعالى، ويرضاه من عبده، ويرضى به عنه. أقول: إن الحسنة وهى ما يحسن لدى الإنسان مما يلائم مزاجه فيورث باطنه صفاء وطهراً، أو جسمه نعومة ونضرة، وهى بهذا المعنى قسمان:

الأول: حسنة سببها الإيمان والعمل الصالح، أو هى حسنة الطاعة للّه ورسوله محمدﷺ.

الثانى: حسنة سببها الإنعام الإلهى على العبد بما يريح جسمه من الوصب، ونفسه من الغم والهم، وذلك بما يؤتيه من مال، وسلامة بدن، ونصر، وعز، ومجد.

والسيئة ضد الحسنة وهى ما لا يحسن لدى الإنسان مما لا يتلاءم مع مزاجه وطبعه، أو هى ما يسوءه فى باطنه، ويضره فى ظاهره، وهى بهذا المعنى قسمان أيضاً:

الأول: سيئة سببها الشرك والمعاصى ؛ إذ هما حسب سنة اللّه تعالى يورثان النفس ظلمة وخبثاً، فتمرض لذلك وتشقى.

الثانى: سيئة سببها الانتقام الإلهى، وذلك كأمراض الجسم وعلله، وضياع المال، والهزيمة فى الحروب، وفقد الشرف، وذهاب الكرامة.

وبناء على هذا الذى تقدم فالحسنة التى هى بمعنى الطاعة لله ورسوله ﷺ يوفق العبد لفعلها، والإتيان بها على الوجه الذى شرع الله تعالى لعباده، هذه الحسنة لا تُنسب إلا إلى الله تعالى، إذ هو الذى شرعها للعبد، وعلمه إياها، وأمره بفعلها، وأعانه عليها، ووعده بحسن المثوبة عليها ترغيباً له فى فعلها، كما أنه كتبها له أزلاً وقضى بها له قدراً. فهذه الحسنة نسبتها إلى غير الله تعالى خطأ فاحش لا يُقَر عليه أبداً.

والسيئة التى هى بمعنى معصية الله تعالى ورسوله ﷺ، ومخالفتهما فى أمرهما ونهيهما، هذه السيئة إذا فعلها العبد بإرادته واختياره مؤثراً المعصية على الطاعة، والمخالفة على الامتثال، فهذه السيئة لا تُنسب إلا إلى العبد فاعلها، ولا تصح نسبتها إلى الله تعالى أبداً ؛ لأن الله تعالى لم يشرعها، ولم يأمر بها، ولم يرغب فيها، بل حرَّمها، وتوعد عليها منفراً منها فكيف تصح نسبتها إلى الله تعالى ؟ اللهم لا، وكيف والله تعالى يقول: ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾ (النساء:79).

وأما إن كانت الحسنة بمعنى النعمة والبلاء بالخير كالمال والولد، والصحة والعافية فى ذلك، وكالنصر والظفر، والعز والجاه، وكانت السيئة بمعنى النقمة والابتلاء بالشر، وذلك كالنقص فى المال والنفس والهزائم فى الحروب، وما إلى ذلك من الشدائد والكروب فكلاهما ـ أى الحسنة والسيئة ـ من هذا النوع ـ كلاهما من عند الله تعالى، لأنه عز وجل هو الذى يبلو عباده امتحاناً، وانتقاماً حسب مقتضيات رحمته فى تربية عباده، وتدبير شأنهم. قال تعالى: ﴿ **وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾ (الأنبياء:35). وقال عز من قائل: ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ** ﴾ (الفجر:15 ـ 17).

ومن هنا لما كان المنافقون بالمدينة ينسبون الحسنة بمعنى النعمة إلى الله تعالى، وينسبون السيئة بمعنى النقمة، والبلاء، والشر ينسبونها إلى رسول الله ﷺ رد الله تعالى عليهم قولهم هذا، وعابه عليهم، ونسبهم إلى سوء الفهم، وقلة الإدراك، وأخبر مقرراً أن كلاً من هذين النوعين

من الحسنة والسيئة هما من عند اللّه تعالى. قال عز وجل: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (النساء: 78).

وبهذا زال والحمد للّه الإشكال الذى كان يقف عنده كثير من المؤمنين حيارى يكادون أن يقولوا: إن بين الآيتين تناقضاً أو تعارضاً فى حين أنه لا تناقض بينهما، ولا تعارض وحاشا كتاب اللّه تعالى أن يضرب بعضه بعضاً تناقضاً أو تعارضاً، وكيف يكون ذلك واللّه منزله وهو العزيز الحكيم يقول: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (41) لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (فصلت: 41 ـ 43).

ويحسن التنبيه هنا إلى أن العبد وإن نسبت إليه السيئة التى هى المعصية للّه ولرسوله ﷺ، والتى يترتب عليها تدسية النفس وتلوينها ليس معنى ذلك أن العبد قد فعل ما لم يكن قد كتب عليه أزلاً، وقضى به عليه قدراً ،لا واللّه، بل ما فعل العبد إلا ما كتب عليه أن يفعله، كما أن كون العبد أبى المعصية باختياره وفعله بنفسه مريداً لها، لا يدل على أنه خلق فعله فيها، بل الخالق هو اللّه الذى خلقه وخلق إرادته واختياره.

وإنما لم تنسب السيئة التى هى المعصية للّه ورسوله ﷺ لم تنسب إلى اللّه تعالى ؛ لأن اللّه تعالى قد حرَّمها، ونهى عن فعلها، وتوعد عليها، ولم يرضها لعبده كما رضى له الطاعة، إذ قال تعالى: ﴿ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ (الزمر: 7).

مع العلم والتسليم بأن اللّه تعالى لو شاء أن يحول بين العبد وبين فعله المعصية أو الطاعة لفعل، وهو على ذلك لو شاء قدير، لكنه لم يفعل، لأنه خلق هذا المخلوق ليبتليه فى هذه الحياة قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (الملك: 1، 2).

فلذا مُنح العبد إرادة واختياراً يتأتى لكل امرئ بهما أن يسلك أى سبيل من سبل الهدى أو الضلال، الغى أو الرشاد، وبسلوكه الذى أراده واختاره يصل إلى الغاية التى جعل السبيل مؤدياً إليها ـ سنة اللّه: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (فاطر: 43).

بحث مهم فى المشيئة

وأخيراً إنه قد يظن البعض أن مشيئة العبد كافية فى إيجاد ما يريده، ويرغب فى حصوله، وهو ظن باطل خاطئ قطعاً. وذلك: ـ

أولاً: أنه قد ثبت بالمشاهدة والحس أن العبد كثيراً ما يريد الشىء، ويرغب فى تحصيله، ويبذل كل وسيلة من شأنها أن تحقق الشيء المطلوب، ثم يخيب العبد فى سعيه، ولا يفوز بمراده.

وثانياً: أن القدر قد سبق فى كل ما هو كائن إلى يوم القيامة فلم يكن فى الكون إلا ما كتب أزلاً، وقُدر أن يكون. وبهذا يعلم أن مشيئة العبد التى يتحقق بها المراد هى نفسها مكتوبة أزلاً، ومحكوم بوجودها فى إبَّانها ليتحقق بها ذلك الفعل الذى أراد العبد أن يفعله، وآثر فعله واختاره على غيره وفى هذا يُقرأ قوله تعالى: ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (التكوير: 29).

وتوضيح ذلك أن العبد ليس له أن يشاء إلا ما سبق به الكتاب فإذا سبق كتاب المقادير بشيء يقع على يد العبد أوجد اللّه تعالى للعبد مشيئة تدفعه إلى إتيان العمل وخلق له اختياراً فى نفسه يرجح به الفعل على الترك فيكون ذلك المقدور.

وبهذا تتأكد الحقيقة العظمى وهى أن الرب غير العبد، وأن العبد غير الرب سبحانه وتعالى، ويتبع ذلك أن لا تكون للعبد مشيئة مستقلة عن مشيئة الرب، وسابقة لها، وأن لا يكون للعبد من حق أن يسأل الرب تبارك وتعالى: لم فعل كذا ؟ أو لِمَ لَمْ يفعل كذا، قال تعالى: ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ (الأنبياء: 23).

* * *

الخاتمة

وأخيراً إن الإيمان بجميع أركانه، وإن كان مطلوباً لذاته كما هو ظاهر نصوص الكتاب والسنة المطالبة بذلك كقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيدًا** ﴾ (النساء: 136).

وكقول الرسول ﷺ في جواب من سأله عن الإيمان: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**»(1).

فإنه بالنظر إلى ما يترتب عليه من حب الله تعالى، وتعظيمه، وخشيته، والإنابة إليه، وطاعته بفعل محابه، وترك مكارهه، وحب رسوله، وتعظيمه وطاعته والتأسي به، ومتابعته، هو وسيلة لا غاية، ذلك أن الباعث النفسي على طاعة الله تعالى بالاستقامة على شريعته هو الإيمان بالله تعالى بصادق وعده ووعيده، إذ لولا ذلك ما تمت الاستقامة لأحد على طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ . لهذا صح أن ينظر إلى الإيمان على أنه وسيلة لابد من تحقيقها، وذلك لتوقف الاستقامة عليه.

وهذا بيان ذلك: ـ

١ ـ **الإيمان بالله تعالى** وسيلة لطلب معرفته بأسمائه وصفاته، ولحبه وتعظيمه، وطاعته وخشيته، والتقرب إليه بفعل محابه، واجتناب محارمه، يشهد لهذا، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (الأنفال: 1). إذ علق تعالى حصول ما طلبه منهم على إيمانهم.

٢ ـ **الإيمان بالملائكة** وسيلة إلى الاعتبار بطاعتهم ؛ لأنهم: ﴿ **لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ (التحريم: 6).

ووسيلة إلى الاستحياء منهم، والاستئناس بهم لعلم المرء بأن الكرام الكاتبين عن يمينه وشماله لا يفارقونه، كما أنه وسيلة إلى معرفة عظمة الله تعالى فيهم(2)، وقدرته عليهم ؛ إذ يقول تعالى: ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ (النحل: 50).

٣ ـ **الإيمان بالكتب** وسيلة إلى الإيمان بالله تعالى، ومعرفة علمه، وأسمائه، ووعده ووعيده، كما هو وسيلة إلى تصديق الرسل الذين أرسلوا بها، وأنزلت عليهم، ووسيلة أيضاً

---

(1) رواه مسلم (1/ 31).

(2) جاء في الصحيحين: أن الرسول ﷺ رأى جبريل وله ستمائة جناح. اللؤلؤ والمرجان (1/ 41)، والبخاري (4/ 140)، ومسلم (1/ 109).

إلى معرفة شرائع الله تعالى، وجميع ما يحبه الله، ويرضاه، أو يكرهه ويسخطه من المعتقدات، والأقوال، والأفعال، وإلى معرفة الغيب وأحوال الدار الآخرة.

٤ ـ الإيمان بالرسل وسيلة إلى معرفة تطبيق شرائع الله تعالى، وبيان كيفيات أداء عباداته، ووسيلة إلى محبة الرسل الباعثة على طاعتهم، واتباعهم والتزام شرائعهم.

٥ ـ الإيمان باليوم الآخر وسيلة إلى فعل الخيرات، وترك المنكرات بما يوجد فى النفس من الرغبة فيما عند الله من خيرى الدنيا والآخرة، وبما يوجد لها من الخوف من عذاب الله، والرهبة من عقابه.

٦ ـ الإيمان بالقدر وسيلة إلى ترك الحزن على ما فات من متاع الحياة، وترك الفرح الحامل على البطر والأشر بما يُؤتى الإنسان من حطام الدنيا، ومتاعها الزائل. كما هو وسيلة إلى الصبر والتحمل، والطمأنينة والسكون(1).

وبناء على كل الذى سبق فإنه يتبين بوضوح أن كل ركن من أركان الإيمان الستة المكونة لعقيدة المؤمن يثمر للمؤمن ثمرة خاصة، فالإيمان بالله تعالى يثمر محبة الله، وتعظيمه، وطاعته، وخشيته. والإيمان بالملائكة يثمر الاعتبار بطاعتهم، والاستحياء منهم، والاستئناس بهم، والإيمان بالكتب والرسل يثمر قوة الإيمان بالله تعالى، ويثمر معرفة شرائعه، وكيفيات أدائها. والإيمان باليوم الآخر يثمر الرغبة فى فعل الخيرات، والنفرة من الشرور، والمفاسد، والمنكرات. والإيمان بالقدر يثمر سكون النفس، ورضاها، وطمأنينة القلب، وهدوءه، وهدايته، وذلك بتخليص النفس من الفرح بالحياة الدنيا، والغم على ما فات منها، ومن الهم على ما قد يفوت المرء منها.

وبالنظر فى هذا والتأمل فيه نجد أن الإيمان وسيلة للحصول على تلك الثمرات التى يثمرها كل جزء من أجزائه، كما نجد أن تلك الثمرات هى وسيلة إلى غاية من أشرف الغايات وهى كمال الإنسان الذاتى والروحى وسعادته فى الدنيا والآخرة؛ إذ كل كمال للإنسان، وسعادة له مردهما إلى طاعة الله ورسوله تلك الطاعة المزكية للنفس، والمؤهلة للإنسان لدخول دار السلام.

قال الله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ (الشمس: 9، 10). وقال تعالى: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا** ﴾ (النساء: 69، 70).

تم تحرير هذا الكتاب فى الفاتح من رمضان سنة 1396هـ والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

(1) قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (الحديد: 22، 23).

المـراجـع

أ ـ فى التفسير:

1 ـ أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن ـ محمد الأمين الشنقيطى، المتوفى 1393هـ الطبعة الأولى بمطبعة المدنى.

2 ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ـ لأبى السعود ـ طبعة دار العصور للطباعة والنشر.

3 ـ التسهيل لعلوم التنزيل ـ لابن جزى، المتوفى (741هـ) ـ الطبعة الثانية (1393 هـ 1973م) الناشر دار الكتاب العربى ـ بيروت.

4 ـ تفسير القرآن العظيم ـ لابن كثير، المتوفى (774هـ) مطبعة عيسى البابى وشركاه.

5 ـ جامع البيان فى تفسير القرآن ـ لابن جرير الطبرى، المتوفى (301هـ) الطبعة الثانية (1392 هـ ـ 1972م) دار المعرفة للطباعة والنشر.

6 ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبى، المتوفى (671هـ) الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية.

7 ـ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ـ للألوسى، المتوفى (1270هـ) الطبعة الثانية المطبعة المنيرية.

8 ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان ـ لنظام الدين النيسابورى المعروف بالقمى مطبوع مع تفسير ابن جرير.

9 ـ فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير للشوكانى، المتوفى (1281هـ) مطبعة الحلبى وأولاده.

10 ـ الفتوحات الإلهية على الجلالين لسليمان الجمل، المتوفى (1204هـ) مطبعة الحلبى وشركاه.

11 ـ فى ظلال القرآن لسيد قطب ـ الطبعة الثانية ـ بمطبعة الحلبى وشركاه.

12 ـ المنار للإمامين محمد عبده ورشيد رضا، المتوفى (1354هـ) ـ الطبعة الرابعة أصدرتها دار المنار بمصر (1373هـ، 1954م).

ب ـ كتب الحديث:

1 ـ تحفة الأحوذى على جامع الترمذى ـ للمبار كفورى، المتوفى (1373هـ، 1954 م) مطبعة الحلبى.

2 ـ الترغيب والترهيب للمنذرى، المتوفى (656هـ) الطبعة الثانية (1373هـ- 1954م) مطبعة الحلبى.

3 ـ تنوير الحوالك شرح موطأ مالك للسيوطى، المتوفى (911هـ) مطبعة الحلبى.

4 ـ جامع الأصول لابن الأثير الجزرى، المتوفى (606هـ) تحقيق عبد القادر الأرناؤوط الطبعة الأولى (1389هـ، 1969م) مطبعة الملاح.

5 ـ جمع الوسائل فى شرح الشمائل ـ لعلى القارى، المتوفى (1014هـ) ـ الطبعة الثانية بمطبعة دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت.

6 ـ سبل السلام على بلوغ المرام للصنعانى، المتوفى (1182هـ) الطبعة الرابعة (1379هـ، 1960م) مطبعة الحلبى.

7 ـ السندى على سنن ابن ماجه القزوينى ـ السندى، المتوفى (1138هـ) الطبعة الأولى بالمطبعة التازية بمصر.

8 ـ سنن أبى داود ـ الطبعة الأولى (1371هـ ـ 1952م) مطبعة الحلبى.

9 ـ سنن الترمذى ـ للترمذى، المتوفى (279هـ) المطبعة الوطنية بحمص ـ (1385هـ 1965م).

10 ـ سنن الدارمى ـ لعبد الله الدارمى، المتوفى (225هـ) بتحقيق عبد الله هاشم يمانى ـ شركة الطباعة الفنية المتحدة.

11 ـ السيوطى على النسائى ومعه حاشية السندى (1163) ـ المطبعة المصرية بالأزهر.

12 ـ شرح الموطأ للزرقانى ـ مطبعة مصطفى محمد (1355هـ ـ 1936م).

13 ـ شرح النووى على صحيح مسلم ـ للنووى، المتوفى (676هـ) المطبعة المصرية ومكتبتها.

14 ـ صحيح البخارى ـ للبخارى ـ مطبعة محمد على صبيح وأولاده ـ تسعة أجزاء، صحيح مسلم ـ لمسلم، المتوفى (261هـ) منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع بيروت.

15 ـ عمدة القارى شرح صحيح البخارى ـ للبدر العينى، المتوفى (855هـ) المطبعة المنيرية.

16 ـ عون المعبود شرح سنن أبى داود. الطبعة الثانية (1388هـ ـ 1968م).

17 ـ فتح البارى شرح صحيح البخارى ـ لابن حجر العسقلانى، المتوفى (852هـ) طبعة الحلبى (1378هـ ،1959م).

18 - الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد الشيبانى ـ للساعاتى ـ الطبعة الأولى ـ مطبعة الفتح الربانى.

19 - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ لمحمد فؤاد عبد الباقى ـ الطبعة الأولى ـ مطبعة الحلبى.

20 - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ـ لنور الدين الهيثمى، المتوفى (807هـ) الطبعة الثانية (1967م).

21 - مستدرك الحاكم على الصحيحين ـ للحاكم، المتوفى (405هـ) ـ نشر مكتبة مطابع النصر الحديثة بالرياض.

22 - مسند الإمام أحمد ـ لأحمد بن حنبل، المتوفى (241هـ) الطبعة الأولى (1389هـ، 1969م) المكتب الإسلامى دار صادر.

جـ ـ كتب العقيدة:

1 - آكام اللؤلؤ والمرجان فى أخبار الجان للشبلى الحنفى، المتوفى (769هـ) طبعة محمد على صبيح (1376هـ).

2 - الإسلام فى عصر العلم للغمراوى ـ الطبعة الأولى (1393هـ ـ 1973م) مطبعة السعادة.

3 - الإسلام يتحدى ـ لوحيد الدين خان ـ الطبعة الأولى (1390هـ ـ 1970م).

4 - إلى التى سألت: أين الله ؟ للأستاذ أحمد بهجت.

5 - الإيمان ـ لابن تيمية، المتوفى (728هـ) المكتب الإسلامى بدمشق (1381هـ، 1961م).

6 - التوسل، أنواعه، وأحكامه ـ للألبانى ـ الطبعة الأولى.

7 - تيسير العزيز الحميد فى شرح كتاب التوحيد لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، المتوفى (1233هـ) الطبعة الثانية (1390هـ) طبعة المكتب الإسلامى.

8 - شرح الطحاوية بتحقيق الألبانى ـ الطبعة الرابعة (1391هـ) المكتب الإسلامى ببيروت.

9 - الشرك ومظاهره ـ للعميلى الجزائرى ـ الطبعة الثانية (1966م).

10 - العقيدة الإسلامية وأسسها ـ عبد الرحمن حسن حبنكة.

11 ـ قصة الإيمان ـ للجسر ـ الطبعة الثالثة (1389هـ ـ 1969م) المكتب الإسلامي.

12 ـ الكواشف الجلية عن معاني الواسطية ـ لعبد العزيز السلمان ـ الطبعة الرابعة بمؤسسة مكة للطباعة والنشر دار الإعلام.

13 ـ لوامح الأنوار البهية ـ للسفاريني ـ المتوفى (1188) الطبعة الأولى.

د ـ كتب السيرة:

1 ـ البداية والنهاية ـ لابن كثير، المتوفى (774هـ) الطبعة الأولى (1966م) دار النصر للطباعة.

2 ـ سيرة ابن هشام ـ لابن هشام، المتوفى (218هـ) بتعليق الهراس، نشر مكتبة الجمهورية لصاحبها عبد الفتاح مراد.

3 ـ محمد المثل الكامل ـ لمحمد أحمد جاد المولى ـ الطبعة الرابعة (1371هـ، 1951م) مطبعة الاستقامة.

4 ـ مختصر سيرة الرسول. لعبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، المتوفى (1244هـ) مطابع الحكومة بمكة.

هـ ـ كتب اللغة:

1 ـ دائرة معارف القرن العشرين ـ لفريد وجدى، المتوفى (1373هـ) ـ الطبعة الثالثة: (1971م) دار المعرفة للطباعة والنشر.

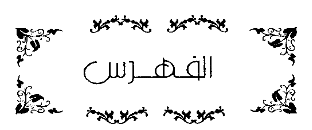
2 ـ القاموس المحيط ـ للفيروز أبادى، المتوفى (817هـ) المطبعة الحسينية المصرية.

3 ـ لسان العرب لابن منظور ـ دار بيروت للطباعة والنشر.

4 ـ مختار الصحاح ـ للرازى، المتوفى (666هـ) الطبعة الأولى (1976م).

5 ـ منجد الطلاب ـ لمعلوف ـ الطبعة السابعة عشرة.

* * *



الموضـــوع **الصفحة**

الركن الأول من أركان عقيدة المؤمن

الركن الثاني من أركان عقيدة المؤمن

الركن الثالث من أركان عقيدة المؤمن

الركن الرابع من أركان عقيدة المؤمن

الركن الخامس من أركان عقيدة المؤمن

الركن السادس من أركان عقيدة المؤمن

تمت فهارس كتاب عقيدة المؤمن والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد